أحمَد خَيري العُمَري

أحمر السادس

عصير الكتب

https://t.me/MktbtArab

السادس أحمر

عصير الكتب

HTTPS://T.ME/MKTBTARAB
البريد
https://t.me/MktbtArab

عصير الكتب

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● الطبعة الأولى: يناير / 2024م

● رقم الإيداع: 2023/29104م

● الترقيم الدولي: 978-977-992-371-0

● العنوان: السادس أحمر

● تدقيق لغوي: نهال جمال

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب»

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

https://t.me/MktbtArab

تنبيه

الشخصيات في هذه الرواية هي شخصيات متخيَّلة.

رغم ذلك فالسياقات التي تتحرك فيها هذه الشخصيات هي سياقات تاريخية حقيقية تمامًا.

وهذه السياقات مليئة بشخصيات تشبه الشخصيات المتخيَّلة.

فاقتضى التنبيه.

https://t.me/MktbtArab

https://t.me/MktbtArab

إهداء

إلى الطبقة الوسطى، مع التحية.

https://t.me/MktbtArab

https://t.me/MktbtArab

-1-

الماضي لا يغادر حقًّا، على الأقل ليس كما نتصور. نقفل الباب خلفه حين يغادر ونتوهم أنه ابتعد لكنه يمكث متوثبًا، متأهبًا للقفز عليك وعلى حاضرك، مثل قط منزلي مدلل توهمت أنه نسي غريزة الافتراس، ثم في لحظة واحدة، يرى فأرًا أمامه، فتستيقظ قرابته الدفينة للأسود والنمور. وينقض كما لو أنه لم يصبح أليفًا قط. الماضي صياد ماهر، يجيد اصطياد فريسته. غالبًا يبقى مختبئًا في مكان خفي قريب بعد أن يغادر، وبينما تكون منشغلًا باللحظة الراهنة وبمطحنة تفاصيلها وأعباء تحملها إلى أن تصبح ماضيًا هي الأخرى، يتربص بك الماضي ويراقبك، وعندما تكون قد تصورت أنك أهلت على ذكراه تراب النسيان، تكتشف فجأة أنه قد عاد دون أن يكلف نفسه عناء الاستئذان بالدخول.

الماضي يطوي في لحظات كل دروب السفر التي باعدتنا عن مدن ولادتنا وبيوتنا الأولى وقصص حبنا المبكرة وخيباتنا وذكرياتنا وأحلامنا وضحكاتنا وبراءتنا وطيشنا المراهق. يمكنه أن يطوي دروب السفر، ويمكنه أيضًا أن يفرشها من جديد، أن يجعلها دروبًا للعودة من السفر، ربما إلى أنفسنا، أو إلى ما حاولنا الهرب منه.

أحيانًا يتسلل بهدوء كالماء المتسرب من المغطس الممتلئ في الطابق العلوي. وأحيانًا يقتحم حياتك مثل قطار لا يكترث إلى وجود من تمدد على سكته. أحيانًا يتسلل عبر وجه أليف، أو رائحة مميزة، أو أغنية لم تسمعها منذ

https://t.me/MktbtArab

عقود، أو صورة بهتت ألوانها وجدتها مصادفة في حقيبة لم تفتحها منذ أن أغلقتها أمك في الأيام الغابرة لطفولتك.

أو اسم ذكَّرك بشخص لم تفكر فيه منذ أن رأيته آخر مرة قبل عقود.

أو مشهد في فيلم سينمائي نجح ذات يوم في شبابيك ذاكرتك.

الماضي، حين يعود، قد يعود متنكرًا بأغرب الأشكال.

كأن يأتي عبر إشعار يصل في الوقت ذاته إلى سبعة هواتف متوزعة على أربع قارات.

إشعار يتحدى كل دروب السفر.

أو يبتدئها.

***

منتصف الليل في إسطنبول.

ومنتصف مماثل في عمان.

التاسعة ليلًا في لندن.

العاشرة في أبسالا شمال ستوكهولم.

الخامسة مساءً في ديربون ميشيجان.

الثانية بعد الظهر في سان فرانسيسكو كاليفورنيا.

السابعة صباحًا في سيدني.

في وقت واحد، وصلت الإشعارات إلى الهواتف السبعة.

في عالم موازٍ، لم تحدث فيه الأمور على النحو الذي حدثت فيه في عالمنا هذا، كانت كل -أو أغلب الهواتف- ستكون في منطقة توقيت واحدة.

في هذا العالم الموازي الذي لا وجود له، كانت الإشعارات ستصل إلى الهواتف في بغداد.

وسيكون الوقت عندها منتصف الليل.

***

كان وليد خالد يغط في نوم عميق عندما وصل الإشعار إلى هاتفه.

https://t.me/MktbtArab

في وضعه الطبيعي، كان وليد يهب مذعورًا عند أي صوت. إشعار على الهاتف أو جرس إنذار الحريق. نومه خفيف كما يقال عادة لمن يستيقظ بسرعة عند أدنى صوت. لكن الواقع كان أعقد بكثير من هذا الوصف. كان نوم وليد أقرب إلى السير في حقل ألغام. كان ينام دومًا كما لو أنه متشبث بجذع شجرة تحتها ثلاثة ذئاب مفترسة تنتظر لحظة سقوطه.

لكن هذه المرة لم ينتبه وليد إلى صوت الإشعار. وربما لو دق جرس إنذار الحريق ما كان سينتبه أيضًا. كان تحت تأثير منوم قوي هو الترايزولام، نصف ميليجرام منه مع وجبة العشاء، بعد أن مر بأدوية أخرى -وعيار أقل من الدواء نفسه- لم تجد نفعًا مع نومه القلِق.

بعد ست ساعات، دخلت عاملة المطعم لتحضر طعام الإفطار، أثر الدواء كان قد بدأ بالتلاشي، وأصبح وليد منتبهًا لما يحدث حوله. كل يوم يفتح عينيه ويجول بهما في الغرفة، لثوانٍ يداهمه شعور بالاستغراب من المكان كما لو أنه كان قد أوى إلى النوم في مكانٍ واستيقظ في مكان آخر. تحديدًا في هذه الثواني كان يستغرب أن هذا المكان ليس غرفة نومه في بيت أهله في الحارثية في بغداد. البيت الذي تركه منذ قرابة ثلاثين عامًا. ثم يرى صينية الطعام موضوعة على الطاولة. على حافة الصينية اسم المستشفى وعلامته المميزة. فيتذكر أين هو، ويغمض عينيه مجددًا.

بعد دقائق تدخل الممرضة كما تفعل كل يوم. تقول الكلمات التي استطاع أن يفهمها حتى دون أن يحاول ذلك.

Gunyden faris bey

يرد عليها بالإنجليزية بينما هو يعدل من وضعيته لكي تقيس ضغطه ونبضه كما تفعل في كل يوم. في الأيام الأولى كانت مناداته باسم فارس تثير استغرابه. قيل له إن اختيار اسم بديل ضروري من أجل «الخصوصية» و«السرية». اختار هو اسم فارس بنفسه. بعد مضي شهر يشعر أنه لم يعد متأكدًا إن كان فارس أو وليد. فارس بيه أو وليد بيه. ما الفرق.

تقول له الممرضة جملة بالتركية لا يفهمها ولكنها تتكرر كل يوم. معها إشارة باليد إلى الطعام الموضوع على الطاولة وبعدها إشارة إلى فمها. تتضمن الجملة كلمة (دفا) التي فهم وليد أنها تحريف تركي لكلمة (دواء)، مع الإشارتين والكلمة كانت الجملة مفهومة: تناول طعامك لكي تأخذ أدويتك بعدها.

لم يكن فارس يشعر بالجوع، لكنه يسارع كل يوم إلى تناول الطعام فقط لكي يستطيع الذهاب إلى صالة التدخين.

قبل أن يذهب إلى الصالة يذهب إلى استقبال الطابق. طقوس أخذ الدواء. تعطيه الممرضة حبوبه التسع ومعها قدح ماء ورقي. يضع الحبوب في فمه ويشرب الماء دفعة واحدة، ثم بينما يفتح فمه على اتساعه تمد الممرضة رأسها لكي تتأكد من أنه ابتلع الحبوب كلها ولم يترك واحدة أو أكثر في قاع فمه. كل يوم يشعر وليد أنه يريد أن يسترضي الممرضة ويقنعها أنه مطيع وملتزم بالتعليمات. كما لو كان التلميذ المجتهد نفسه الذي كانه في الابتدائية، الذي يفترض أن تميِّزه معلمته عن بقية التلاميذ. لكن «آيلة أبلة» تعامل الجميع بالطريقة نفسها. وجه حازم ومحترم وغير مكترث للطف زائد أو ناقص من المرضى. الكل عليه أن يفتح فمه لكي ترى إن كان قد ابتلع الحبوب.

ذهب ليأخذ علبة سجائره من غرفته، أخذ هاتفه أيضًا.

قبل أن يصل إلى صالة التدخين، انتبه إلى الإشعار الذي وصل منتصف الليل.

***

يعرب عبد الحميد في عمان كان مدمنًا لمتابعة وسائل التواصل الاجتماعي. وعلى الرغم من أنه لم يكن نشطًا في النشر أو التعليق لكن الفيس بوك كان قد أصبح بالنسبة إليه -وهو في الخامسة والخمسين من العمر- من وسائل «معيشته» حرفيًا. أي إشعار يصل سيكون مهمًّا بالنسبة إليه مهما كان. الصورة النمطية للأشخاص من هذا النوع أن لديهم متسعًا من الوقت لكي يقضوه على وسائل التواصل، شبه عاطلين عن العمل، لكن يعرب عبد الحميد كان رجل أعمال مهمًّا يفترض أن لا وقت عنده ليحك شعر رأسه، ما هي أعماله بالضبط؟ كل شيء. حرفيًّا كل شيء. يعمل في المقاولات. والمقاولات لافتة عريضة تشمل كل شيء من بناء المدارس إلى «استيراد» الخادمات الإندونيسيات والأثيوبيات مرورًا بأجهزة الاستقبال الفضائية وصحونها اللاقطة وكواشف السيارات المفخخة وكاميرات المراقبة المنزلية. الرابط الوحيد بين هذه الأشياء المختلفة هو أنها كانت لها سوق رائجة في العراق في أوقات مختلفة، وأنها جميعًا يمكن أن تصنَّف تحت عبارة «المقاولات»،

https://t.me/MktbtArab

وأن يعرب عبد الحميد عمل فيها جميعًا، إضافة إلى عشرات الأعمال المشابهة، التي لا شيء فيها يشبه الآخر.

عبارة «المقاولات» كانت ترضي يعرب عبد الحميد في أنها ترتبط -ولو بشكل هش- مع لقبه كمهندس، وهو اللقب الذي يحرص على استخدامه في كل مناسبة رسمية وغير رسمية. شيئان لم يكن يتنازل عنهما قط عندما يكتب اسمه أو يعرِّف عن نفسه. لقب المهندس قبل اسمه. ولقب «جبارة».فيما يليه. المهندس يعرب عبد الحميد جبارة. ورغم أنه تخرج في جامعة بغداد -كلية الهندسة قسم الهندسة المدنية دفعة 1989- فإنه لم يمارس الهندسة ولا حتى يومًا واحدًا في حياته المهنية كلها. لكن هذا غير مهم. بالنسبة إليه كان قد دخل كلية الهندسة وتحمل صعوبات الدراسة فيها فقط ليكون «مهندسًا»، ويقال عنه «مهندس»، وقد حقق ذلك ونال اللقب ولن يتنازل عنه مهما حدث. وكما لم يكن لقب «المهندس» يعبّر عن مهنته حقًّا فإن «جبارة» لم يكن لقب العائلة الحقيقي المثبت في الأوراق الرسمية. لكن والده -رحمه الله- عرف بهذا الاسم في فترة النضال السري ضد حكم عبد الكريم قاسم. كان اسمه «الحركي» هو جبارة، وتردد كثيرًا في جلسات «محكمة الشعب» عندما كان يحاكم غيابيًّا، من قِبل عباس فاضل المهداوي، ولأن المحاكمات كانت تبَث على التلفاز وتنال متابعة واسعة، فقد عرفه الناس بهذا الاسم واستخدموه مقترنًا باسمه الأول لكي يميزوه عن «عبد الحميد» الآخر الذي كان «مناضلًا» أيضًا في صفوف حزب البعث (أعدِم لاحقًا -بعد وصول الحزب إلى السلطة- في واحدة من نوبات أكل القطة لأولادها). كان اسم والده رسميًّا وفي الصحف عبد الحميد يونس، لقب «الغنام» كان يستخدَم في البداية ثم صدر قرار بإلغاء الألقاب، فأصبح عبد الحميد يونس فقط. لكن بالنسبة إلى الناس، غنام أو لا غنام، هو عبد الحميد جبارة. وكان يعرب متمسكًا بهذا اللقب أكثر من اللقب الأصلي للعائلة، وهو أمر كان يزعج أعمامه كثيرًا، إلى أن تعودوا على جمعه لجبارة مع الغنام. عندما طبع بطاقات دعوة عقد قران ابنته نور قبل أشهر كتب الاسم كاملًا لكي يرضي كل الأطراف: المهندس يعرب عبد الحميد جبارة الغنَّام، وتجاوز هذا على مساحة اسم والد العريس، وأثر على تناسق التصميم، وسبَّب مشكلة مع ابنته المتحسسة من أي شيء قد يزعج أهل خطيبها، لكن يعرب لم يكترث. المهندس يعرب عبد الحميد جبارة الغنام.

https://t.me/MktbtArab

كان يعرب يقضي سهرته كعادته في كافيه زوكا في حي عبدون وسط عمان. يذهب قرابة الساعة العاشرة كل ليلة، طاولته محجوزة كل يوم دون أن يبلغهم بالحجز، إذا تأخر يتصلون به فقط للتأكد أنه لن يأتي، في الركن الأيمن تحت التكييف مباشرة، كل طلباته معروفة أيضًا للنادلين، تأتيه تباعًا دون أن يطلب أيًّا منها، الشاي أولًا، ثقيل لكي يكون قريبًا إلى الشاي العراقي، ثم الأركيلة، معسل تفاحتين، النخلة حصرًا. الشاي يستمر في الورود كلما فرغ القدح، والختام قرابة الثانية عشرة والنصف بفنجان قهوة مضبوطة. يلتحق به عادة ثلاثة أو أربعة أصدقاء، اثنان منهم ثابتان، سعد وعبد الناصر، صديقاه منذ أيام بغداد، وآخرون متغيرون، غالبًا عراقيون، وأحيانًا أردنيون أو سوريون. غالبًا تكون أصوات النقاشات على الطاولة مرتفعة، الزوار غير الدائمين في المقهى يعتقدون أن ثمة خلافًا قد يقود إلى مشاجرة، لكن في الحقيقة قد يكون النقاش وديًّا جدًّا أو مجرد انفعال طبيعي مع حدث مبهج أو ذكرى سعيدة. من المفروغ منه أن «الحساب» دومًا على يعرب. ليس طاولته فحسب، كثيرًا ما يحاسب عن طاولات أخرى. كان يحرص على ذلك، جزء من «هيبته» و«حضوره» وحتى هويته العراقية كما يفهمها هو. الناس تمتلك تصورًا سابقًا عن «كرم العراقيين»، إذن يجب أن يثبت ذلك لهم. يدفع الحساب عن طاولات أشخاص لا يربطهم به سوى معرفة سطحية، ينال نظرات الإعجاب من هنا وهناك بهذا «العراقي الكريم»، بالمقابل فإن تعاملات يعرب المادية في أعماله التجارية كانت مختلفة جدًّا. يفاصل ويساوم حتى في السنت الواحد. ينهي الصفقة بأكبر قدر ممكن من الربح وأقل قدر ممكن من الخسارة، وعندما يخرج من المكتب (الذي حدثت فيه معركة السنت الواحد) يدفع «إكراميات» جزيلة للموظفين والعمال. لا يغلبني أحد. لكن كرمي شيء آخر.

رغم انهماكه في الحديث، فقد تعود أن يختلس النظر إلى ساعته المربوطة بهاتفه حيث تصل إليه الإشعارات كما لو كانت مرتبطة بوريده. في منتصف الليل، والسهرة تقترب من نهايتها، و«نصَّار» معلم الأركيلة يغير الفحم، وصلت الرسالة المعتادة من زوجته: على رجوع أو أنام؟

فتح هاتفه وكتب لها: «نامي»، كان على وشك أن يرسلها، ثم أضاف: «تصبحين على خير».

ضغط على الإرسال.

https://t.me/MktbtArab

ووصل الإشعار في هذه اللحظة.

***

محمد عبد الجبار في لندن كان في خضم الإصابة بنوبة قلبية قبل وصول الإشعار.

كان محمد يعرف أعراضها جيدًا، مبدئيًا من مشاهد الأب الذي يصاب بالنوبة القلبية في الأفلام المصرية، وصولًا إلى الاطلاع على التفاصيل عبر الإنترنت التي تجعله يتحدث عما يشعر به من غثيان وألم في الصدر وضيق في النفس. أدرك منذ الطفولة أن إصابته بالربو تمنحه المزيد من الاهتمام والرعاية على الأقل من قبل والدته، كان يفتعل نوبات الربو أحيانًا من أجل الحصول على الاهتمام. بقيت هذه الاستراتيجية قائمة باختلاف التكتيك. الآن أصبحت النوبة القلبية هي وسيلته –ليس من أجل الاهتمام، بل أصبحت جزءًا معتادًا من أسلحته في المواجهات، هذه المرة في معركته مع ابنته، لكن هذه النوبات لم تكن مزيفة تمامًا دومًا، إذ كان محمد أحيانًا يعيش الدور حتى يكاد يصبح حقيقة، على الأقل على نحو مقنع لفريق الإسعاف من NHS وكانت المعركة مع ابنته سما قد بدأت قبل نحو الساعة، عندما اكتشف أنها قد وضعت وشمًا جديدًا على رقبتها. ما هو أسوأ من هذا الاكتشاف هو اكتشافه في أثناء المعركة أن عمر الوشم تجاوز الشهر دون أن ينتبه له.

ما إن وضع يده على قلبه وبدأ نفسه يضيق حتى أعادت سما سماعتيها إلى أذنيها وانسحبت من المطبخ حيث كانت المواجهة وغادرت إلى غرفتها.

قدمت له هالة حبة دواء وقدح ماء وقالت له: «اجلس».

أحيانًا يشعر أن هالة أصبحت تميز الأعراض أفضل من فريق إسعاف الـ NHS.

جلس دون تعليق وهو لا يزال يضع يده على قلبه.

قالت له هالة بثبات بينما هي تحمل الصحون وبقايا الطعام عن الطاولة: «إذا كنت ستصاب بنوبة قلبية لأنها وضعت وشمًا على رقبتها، فهل ستصاب بجلطة دماغية وتموت لو أخبرتك مثلًا أنها مثلية أو أنها ترغب في التحول إلى ذكر؟ وفر نوباتك القلبية لما هو أهم من الوشم».

أنزل محمد يده عن صدره والتفت بفزع إلى هالة: «هل هناك شيء كهذا؟».

https://t.me/MktbtArab

ردت هالة وهي تضع الصحون في غسالة الصحون: «لا. لا يبدو أن هناك شيئًا كهذا، ولا أعتقد أنه سيكون شيء كهذا في المستقبل، لكنه مجرد مثال».

رد محمد بسرعة: «لماذا لا تعتقدين أن هناك شيئًا كهذا في المستقبل؟ هل لديها بوي فريند من الآن؟».

نظرت إليه هالة نظرة تعني: كفاك. ثم قالت: «الأم تعرف. الشيء المؤكد أن ميولها ليست مثلية».

غمغم محمد: «الحمد لله».

جففت هالة يدها وهي تقول له: «لو تعرف نصف ما أعرف من قصص تحدث للبنات في سن سما وأصغر لقضيت الوقت وأنت تحمد الله».

رد محمد بصوت منخفض: «لا أريد أن أعرف»، وأعاد وضع يده على قلبه كما لو أنه سيصاب بنوبة قلبية فعلًا هذه المرة.

نظرت إليه هالة وعلى شفتيها ابتسامة كما لو أن الحركة كشفته: «لم يعد هذا الأسلوب يجدي».

سألها بتهرب: «أي أسلوب؟».

رفعت حاجبيها وهي تقول: «أسلوب «قلبي قلبي»»، قالتها باللهجة المصرية وهي تحاكي المشهد الكلاسيكي في الأفلام المصرية القديمة.

استمر محمد في التهرب: «هل تريدين أن تري تخطيط القلب وتقرير الطبيب؟».

هزت رأسها وهي تقول: «دعنا لا نخوض في التفاصيل محمد، ما كان مجديًا مع بشار وعمار لم يعد كذلك مع سما».

ردد محمد: «نعم، لم تكترث. وضعت سماعتها في أذنيها وانصرفت».

تذكر أن تعامله مع بشار وعمار وهما صغيران كان مختلفًا جدًّا، عندما انتقلوا جميعًا إلى المملكة المتحدة، كانا في العاشرة والتاسعة من العمر، وكان لا يزال يحمل معه عدته التقليدية في التربية. التهديد والوعيد بالضرب وأحيانًا تنفيذ التهديد. مع مضي السنوات أصبح ذلك أكثر صعوبة بالتدريج، وعندما جاءت سما، كان الأمر حسب المجتمع الجديد مستحيلًا، والمواجهات (الصغيرة) التي حدثت مع بشار وعمار في مراهقتهما وما بعدها كانت تحسَم بالصوت المرتفع والحرمان من المصروف ومن ثم (قلبي قلبي)، وكانت

https://t.me/MktbtArab

الأمور تسير على ما يرام. بصورة عامة بشار وعمار كانا بلا مشكلات كبيرة، أو ربما لأنه لم يدقق عليهما كثيرًا، فهما في النهاية ذكران. لكن رغم ذلك لم تكن هناك مشكلات مهمة، لم ينحرفا على الأقل. لم يرجع أي منهما مخمورًا إلى البيت. ولم يرجعا بمشكلة على الإطلاق. دخلا الجامعة بتفوق وحصل كل منهما على منحة دراسية خففت عنه عبء تحمل دراستهما بالكامل. تخرج بشار طبيبًا في جامعة إيكستير، وعمار مهندسًا كيميائيًّا من جامعة أبردين. ابن طبيب وابن مهندس. ماذا يريد أي أب عراقي في لندن أكثر من ذلك؟ ولم يضع أيٌّ منهما وشمًا على جسده.

مع سما الأمر مختلف.

قالت هالة: «الجيل اختلف يا محمد. علينا أن نركز في المهم».

قال محمد بعد صمت قصير: «أخشى أن الله سيعاقبنا عبر سما».

تغيرت ملامح هالة فورًا وسألته: «ماذا تقصد؟».

قبل أن يرد، وصل الإشعار.

***

في أبسالا شمال العاصمة السويدية ستوكهولم، كانت تارا عبد القادر قد فرغت قبل قليل من حضور التدريبات على الأمسية الكردية التي ستقيمها الجامعة في يناير المقبل التي تشرف عليها تارا بصفتها أستاذة الأدب الكردي في الجامعة. وصفت في البروشور الذي يُعَد له بأنها (منسقة ومشرفة الفعالية) لكنها كانت في الحقيقة الأم والأب لها. كانت فكرة الأمسية فكرتها من الألف إلى الياء. حاربت لكي يقبلها مجلس الكلية ومن ثم مجلس الجامعة، وحاربت من أجل الحصول على الدعم والتمويل، منذ ثلاث سنوات وهي تسعى لتحقيق هذه الأمسية. ثلاث ساعات ونصف من المحاضرات والفعاليات. لكن اليوم، وبينما هي أقرب إلى تحقيقها من أي وقت مضى، تشعر أن الأمور تكاد تفلت من بين يديها. لا يمكنها اختصار تاريخ ألف سنة في ثلاث ساعات ونصف. تشعر أنها ممزقة. تشعر أن كل ما ستفعله لن يليق بالأمسية وأهميتها، وأنها قصرت مع نوزاد، وأن سالار لم يعد قادرًا على السيطرة على الأمور في غيابها.

فكرت أكثر من مرة في الأسابيع الماضية أن تطلب تأجيل الأمسية إلى العام القادم، بل لمَّحت إلى ذلك لرئيس القسم، لكن نظرته صدتها عن المضي

في المحاولة. عشرون سنة وهي تدرِّس الأدب الكردي وتلقي محاضرات أمام عشرات الطلبة، لكن هذه الأمسية مختلفة تمامًا. مخيفة وثقيلة. أصوات في رأسها تقول لها كل يوم أن تعتذر عن كل شيء وتنهي الأمر. لكن أصواتًا أخرى تقول لها إنها أجبن من الهروب الآن. المواجهة صعبة ولكن الهروب أصعب.

بين حين وآخر كانت ترسل رسائل إلى سالار لتتأكد أن كل شيء بخير مع نوزاد. كان يرد لكن يتأخر في الرد. هذا مزعج. لماذا لا يرد فورًا؟ هل من الصعب ذلك؟ هل هو مشغول بشيء ما؟ هل كبرنا على أن نخاف من ذلك؟ هل كبرنا على أن نشعر بالغيرة؟

لا يهم. كبرنا أم لم نكبر، عليه أن يرد أسرع وبشكل أكثر تفصيلًا. لا يرد إلا بكلمة واحدة: بخير. لا. نعم. ليس بعد.

مهما كان أسلوبها لطيفًا فلن يضيف أي شيء في رده. لا «يا قلبي». لا «يا حبيبتي».

ليس معها حتى قلب. لا أحمر ولا أي لون آخر.

وصلت إلى البيت قرابة الساعة التاسعة، متأخرة عن موعد حضورها المعتاد حتى في هذه الفترة التي انشغلت بها في تحضير الأمسية. لم تتأخر عن الثامنة قط. لكن هذا التأخر لم يجعل سالار يسأل عنها ليطمئن. آخر رسالة منها كانت في السابعة. دخلنا على التاسعة، ولم يسأل. تفهم أنه لم يعد يحبها كما كان، أو لم يعد يحبها أبدًا. لكن ألا يقلق عليها وهي تعود متأخرة؟ معدل الجريمة زاد في أبسالا مع زيادة اللاجئين. قالت تارا لنفسها رغم أنها تعرف أن هذا غير دقيق. أبسالا لا تزال تعتبر من المدن الآمنة في السويد، وموقفها من المهاجرين واللاجئين -الذي دفعها لانتخاب حزب SD العنصري في الانتخابات الأخيرة- كان متناقضًا، لأنها أصلًا مهاجرة، لكنها مهاجرة من وجبة التسعينيات. كل شيء كان مختلفًا وقتها. وهي مختلفة الآن. تفكر دومًا في موقف والدها لو كان حيًّا وعرف بتأييدها لحزب يؤيده «النازيون الجدد». ربما والدها كان سينتخبهم أيضًا، تحاول أن تقنع نفسها.

دخلت المنزل من باب المطبخ. لاحظت فورًا أن سالار دخل بحذائه إلى المنزل. بعض العادات لا تتغير بسهولة. لكن لمَ العادات الجيدة تموت؟ لمَ الدخول بالحذاء لا يتغير و«صباح الخير يا حبيبتي» تتغير؟ صاحت: «إيفار باش. لقد عدت».

رد سالار من غرفة المعيشة: «إيفار باش».

لم يعلِّق على تأخرها أو يعبِّر عن قلقٍ عليها.

فتحت الثلاجة لتخرِج طعامها الذي أعدته قبل خروجها.

ثم سمعت صوت وصول الإشعار إلى الهاتف.

***

في ديربورن ميشيجان كان سرمد صلاح الدين يترقب اتصالًا من محاميته التي تنهي إجراءات طلاقه الثاني. أجورها باهظة لكن الإجراءات يسيرة جدًّا بالمقارنة مع ما عاناه في طلاقه الأول، حيث إنه يفكر منذ الآن في زيجة ثالثة يتخذ فيها كل الاحتياطات القانونية السابقة التي اتخذها في زواجه الثاني. ليس مجنونًا بما فيه الكفاية ليكرر تجربة الزواج الأول. لكنه مجنون بما يكفي لتكرار الزواج الثاني مع كل الاحتياطات القانونية. هذا محتمل جدًّا. نصف أملاكه ذهبت إلى زوجته الأولى، أم أولاده، رند سعيد. لو أنها لم تتزوج المكسيكي لقال «حلال عليها». في النهاية كل ذلك يذهب إلى ولديه دانيا وفيصل. لكنها وضعت رأسه في التراب بزواجها هذا. تعمدت ذلك لكي تغيظه بعد أن تزوج بلبنانية بمقاييس عارضة جمال طبيعية لا تحتاج إلى عمليات تجميل. أو ليست طبيعية تمامًا لكنها عمليات متقنة جدًّا.

تزوجت المكسيكي غيرة من اللبنانية، بعد أن أخذت نصف البيت، بيته الذي اشتراه بأكثر من خمسين ساعة عمل في الأسبوع بين المستشفى في وسط ديترويت والمركز الطبي في ديربورن بينما كانت هي تقضي أيامها متنقلة بين جلسات الغيبة والنميمة وخرافات الطاقة وهراءات الجذب في تجمعات الجالية العراقية في ديربورن والتسوق من فايرلاين تاون سنتر. رند سعيد الكلبة. صادته منذ أول يوم جاءت فيه إلى الكلية لتزور صديقاتها في دفعته. جاءت من كلية الصيدلة إلى كلية الطب لتصطاد عريسًا. ووجدته فريسة جيدة. كم كان مغفلًا! كم بقي مغفلًا معها حتى عندما طلقها. تنازل لها عن أملاك لم تتعب يومًا في تحصيلها ولم يحاربها لكي يحصل على أكثر من النصف. لا يمكن أن يكرر الخطأ نفسه مجددًا. صحيح أنه يطلِّق اللبنانية الآن، وصحيح أن تكلفة الطلاق مرتفعة بكل الأحوال، لكن على الأقل لا يذهب تعبه وعرقه إلى زوج آخر، وبخاصة إذا كان «مكسيكيًّا». أصبح يكره المكسيكيين بعد زواج رند بأحدهم. يسبهم جميعًا ويطلق عليهم جميعًا اسم

سانتياجو. رغم أن زوج رند اسمه عمر، وأمه لبنانية من طرابلس، ووالده ليس مكسيكيًّا بل من الأرجنتين، إلا أن سرمد مصِر على أنه مكسيكي، وهو يسب كل المكسيكيين في ولاية ميشيجان بسببه. بل في الولايات المتحدة بأسرها. يكاد يصبح من أنصار ترامب فقط ليغيظ رند وزوجها. نعم، أنا عنصري. كان يعترف. ناسيًا أنه بالنسبة إلى أغلب العنصريين في خانة سانتياجو نفسها ببشرته الحنطية ولكنته التي تؤكد أنه مهاجر «جيل أول» جاء ليخطف العمل والفرص من أبناء البلد ومهاجري الجيل الثاني. قالت له ابنته دانيا ذلك ألف مرة وبألف طريقة مختلفة. العنصرية بالنسبة إليها شتيمة وإهانة. أما هو فقد تربى في بلد كان يسمي العنصرية «قومية» و«وطنية». هذا الجيل لا يفهم ذلك. جيل لا أمل فيه. لا يعجبه شيء رغم أنه حصل على كل شيء جاهزًا. لكن هل يشعر بالامتنان لما حصل عليه؟ لا طبعًا. بل يذهب إلى المعالج النفسي لينقب في طفولته عن الصدمات بالعدسة المكبرة والمجهر. وإن لم يجد شيئًا يخترعها اختراعًا. لم أنل الاهتمام الكافي. لم أجد الدعم. لم يكن هناك من يستمع لي. لم يساعدوني في اكتشاف شغفي. بلا بلا بلا. وطبعًا الآباء هم السبب في كل مشكلة تواجههم. من أطلق لقب «ندف الثلج» على هذا الجيل جاملهم كثيرًا. هم أقرب إلى «بول البعير».

يتمنى لو تتأخر المحامية اللعينة كي يستطيع أن يجد حجة لخصم أي مبلغ من أتعابها. 400 دولار في الساعة. غالبًا لن يفلح في ذلك. من يستطيع أن يغلب المحاميين؟ فضلًا عن ذلك، فهي لا تتأخر أبدًا. دقيقة في مواعيدها إلى درجة تشعره بالحرج. هو الذي تعود أن يعتبر أن «الدقائق الخمس مسموحة». بل ويعتبر نفسه دقيقًا في المواعيد بسبب أنها «خمس دقائق فقط».

في الخامسة مساء بالضبط دخلت لورا ماك جونز -المحامية الموكلة بقضية طلاقه- إلى مقهى ستاربكس في أوكوود بوليفارد حيث كان ينتظرها.

بينما قام ليحييها، شعر بالهاتف في جيبه وهو يستلم إشعارًا.

***

كانت ريم مظفر تجلس بهدوء في صالة الانتظار في المركز الطبي التابع لجامعة كاليفورنيا -سان فرانسيسكو. لقد فهمت بالتدريج حقيقة الأمر وتوقعت ما ستقوله لها الطبيبة عندما ستدخل عليها بعد قليل. نعم،

https://t.me/MktbtArab

للأسف لقد عاد السرطان. أوجاع الظهر التي تشعر بها ليست أعراضًا مرضية لمهنتها كطبيبة أسنان تجاوزت الخمسين من العمر كما حاولت أن توهم نفسها في البداية. بل هذه رسالة من السرطان. أنا هنا. لقد عدت، بعد عشر سنوات من الغياب.

كانت شبه متأكدة مما سيحدث. الفحوصات الأولية التي أجرتها. تدقيق الطبيب في أثناء الفحص على الغدد اللمفاوية. لم تكن تحتاج إلى جوجل لكي تدرك ماذا يعني كل هذا. كانت تعرف بسبب خلفيتها الدراسية أولًا. وثانيًا لأنه لم يعد أحد لا يعرف ماذا يعني كل ذلك.

فكرت في ديانا وعمر. هما الآن أكبر من قبل عشر سنوات بالتأكيد. ولكن، بالنسبة إليها لا يزالان يحتاجان إليها ولا تزال تحتاج إلى أن تكون «الأم – المروحية» التي تحلق على ارتفاع منخفض بالقرب من أولادها أينما كانوا. إن لم تكن الأم المروحية التي تحلق بنفسها فعلى الأقل تكون الأم التي ترسل بطائرة مسيرة خاصة للمراقبة.

فكرت لأجزاء من الثانية أن تخفي الخبر عن أمها حتى لا تقلِقها. ثم تذكرت أنها قد توفيت منذ خمس سنوات. ليست متأكدة إن كانت أمها ستكون داعمة لو كانت لا تزال حية. أختها هبة ستقلق بالنيابة عن أمها وبالأصالة عن نفسها. مسكينة هبة، يكفيها ما بها. ستؤجل إخبارها إلى أن يتبين الأمر أكثر.

قررت أن تصلي فور عودتها إلى البيت. ألا تقطع صلاة أبدًا بعد اليوم. ثم تذكرت بجزع أنها قد قالت الشيء ذاته في الجولة الأولى مع السرطان. انتظمت فترة ثم ما لبثت أن انقطعت. لم تصلِّ منذ رمضان الفائت. وحتى في رمضان لم تكن ملتزمة جدًّا. قالت ريم لنفسها هذه المرة ستكون مختلفة. لا بد أن تكون كذلك. لقد عاد. لا بد أن تصلي. حاربت أول مرة لأنهما كانا صغيرين. وستحارب هذه المرة لأنهما لا يزالان يحتاجان إليها حتى لو كانا أكبر بعشرة أعوام. لا تملك خيارًا آخر غير أن تحارب.

فكرت في دريد. ماذا سيقول عندما يعرف؟ هل سيفعل كما فعل أول مرة؟ لم تستطع أن تتوقف عن التفكير فيه تمامًا طيلة هذه السنوات. لم يخرج من حياتها رغم الطلاق. ليس فقط لأنه والد ديانا وعمر. ولكن لأنه دريد. لا يمكن أن يُمحى من حياتها تمامًا مهما حدث. تزوج الآن وهو مستقر على ما يبدو. لكنه يبقى دريد والد أولادها، والطلاق لم يكن بسببه.

في تمام الساعة الثانية نادت مساعدة الطبيبة: «مسز مظفر؟».

https://t.me/MktbtArab

قبل أن تقف، وصل الإشعار.

***

سوزان كاشاني يبدأ يومها مبكرًا جدًّا في ضاحية آشبري جنوب غرب سيدني.

عندما يستيقظ أغلب الناس ويحاولون مواجهة يومهم بكوب من القهوة، تكون سوزان قد أنهت كوبًا ثالثًا، وأنجزت ما كان لن ينتهي حتى الظهيرة لو أنها استيقظت في الوقت المعتاد للناس.

تعودت على ذلك عبر مراحل حياتها المختلفة. عاشت أكثر عمرها وهي تهرول في ماراثون يومي، دراسة وبيت وأولاد وعمل ودراسة مجددًا إلى جانب العمل. تقول لنفسها دومًا إنها لولا هذه البداية المبكرة ليومها لما استطاعت أن تنجح في شيء. حتى بعد أن كبر الأولاد واعتمدوا على أنفسهم فيما كانت تقضيه لهم في ساعات يومها الأولى، لا تزال تجد «البركة» -كما كانت أمها تقول- في هذه الساعات الأولى سواء وهي تعد الطعام لكي يسخنه حسين ويتناوله عندما يعود قبلها، أو وهي تراجع القضايا التي عليها أن تتابعها كل يوم.

أنهت تحضير طعام الغداء. «تمن[1]» وفاصوليا. سلطة الأمس في الثلاجة تكفي لليوم. تتمنى لو أن حسين يتوقف عن تناول التمن كما فعلت هي. تمكنت من تخليصه من الخبز. لكنه لا يزال مصرًّا على التمن. مستعد أن يفتعل مشاجرة لو فتحت الموضوع. «أنا حر وكفي عن التدخل في شؤون أكلي». «تعال واطبخ أنت إذن». لكن لا. على الأقل تطبخ هي لتجعله صحيًّا قدر الإمكان. «الرجال عقولهم صغيرة جدًّا أحيانًا. أحيانًا فقط؟» تسأل نفسها وهي غير متأكدة. ثم ترد. «نعم، أحيانًا فقط يا سوزان».

بدأت في مراجعة ملف الموكل الذي ستلتقيه اليوم بعد أقل من ساعتين. أفغاني جاء وأسرته عبر القوارب منذ أكثر من خمس سنوات. أسرته حصلت على الإقامة الدائمة وسيتاح لها التقديم على الجنسية قريبًا بينما لا يزال هو في معسكر اللاجئين بل ويواجه خطر الترحيل بسبب وجود أوراق مزيفة في ملفه. منذ أن تخصصت في قانون الهجرة وهي تواجه باستمرار قضايا من

(1) التمن: الرز باللهجة العراقية.

https://t.me/MktbtArab

نوع مشابه: قوارب وأوراق مزيفة. كانت تدرك ذلك جيدًا عندما اختارت هذا التخصص، كانت تعرف نوع القضايا التي ستتعامل معها، بل ولعلها اختارته بسبب ذلك، بل ربما اختارت دراسة القانون بأسره من أجل هذه القضايا تحديدًا.

تأملت في اسمه. سعيد غني مزدهري. لأول مرة تنتبه إلى الاسم بهذه الطريقة. يا للكوميديا السوداء! لاجئ من بلد دمرته الحرب جاء على متن قارب ويواجه خطر الترحيل واسمه سعيد غني مزدهري!

قبل أن تفرغ من قراءة الملف، وصل الإشعار.

***

كان الإشعار دعوة إلى مجموعة خاصة على الفيس بوك.

اسم المجموعة كان «السادس أحمر 1979 - مدرسة المنصور التأسيسية».

المجموعة كانت خالية من المنشورات، باستثناء صورة واحدة نشرها مؤسس المجموعة الذي وجه لهم الدعوات، واختفى أو اختفت خلف حساب اسمه «السادس أحمر».

أما الصورة فهي صورة التخرج لطلاب الصف السادس أحمر في مدرسة المنصور التأسيسية في بغداد، دورة 1978-1979. وقد وقفوا جميعًا في باحة المدرسة -مقابل بناء المرحلة الرابعة- وحاولوا الابتسام للكاميرا بينما الشمس بمواجهتهم تشوش على ذلك.

أسفل الصورة وثق تاريخ التقاطها. 12 نيسان إبريل 1979.

https://t.me/MktbtArab

-2-

مدرسة المنصور التأسيسية الابتدائية المختلطة

واحدة من أهم وأعرق المدارس الابتدائية في بغداد. أو كما عرِفت في بدايتها «مدارس المنصور الأهلية» أسستها مؤسسة كولبنكيان العالمية عام 1937 وشغلت بناءً مؤقتًا في حي البتاويين في جانب الرصافة حتى أواخر الخمسينيات إلى أن انتقلت إلى موقعها الأساسي في جانب الكرخ مدينة المنصور أوائل الستينيات في ضاحية المنصور التي كانت قد أنشئت حديثًا من قِبل شركة المنصور المساهمة التي كانت تمثل نقلة حضارية مختلفة عن التخطيط المعتاد لمدينة بغداد، وأقرب إلى تخطيط الضواحي على الطريقة الأمريكية.

شغلت المدرسة بأبنيتها وساحاتها ومختبراتها ما مساحته خمسة هكتارات، أي خمسون ألف متر مربع، وكانت بذلك ثاني أكبر مدرسة في الشرق الأوسط بعد كلية فكتوريا في الإسكندرية بمصر، وكانت تضم روضة للأطفال وثانوية.

استقطبت المدرسة الطبقة الوسطى الصاعدة والناشئة عن ارتفاع معدلات التنمية والتعليم في الخمسينيات، وازدياد عدد الطلبة المبتعثين للدراسة في الخارج (من 234 طالبًا في 1952 إلى قرابة 7000 طالب في 1965).

وتميزت مدارس المنصور الأهلية بتبنيها للتعليم الحديث مبتعدة بذلك عن التعليم الديني التبشيري الذي كان طاغيًا على سابقاتها من المدارس

الأهلية مما جعلها تمتلك قبولًا أكبر بالنسبة إلى الفئة المستهدَفة، كما تميزت بوجود المدرسين الأجانب من البريطانيين والهنود إضافة إلى العرب من الفلسطينيين واللبنانيين. وكانت الآنسة صوفي مبارك اللبنانية الجنسية هي أول مديرة للمدرسة وبقيت كذلك لأربعة عقود إلى أن أحيلت على التقاعد، وأصبحت تعتبر رمزًا لمكانة المدرسة وانضباطها.

تعرضت المدرسة للتأميم من قِبل الحكومة العراقية في السنة الدراسية 1974 -1975 وأصبحت مدرسة حكومية تابعة لوزارة التربية والتعليم وتطبِّق المنهاج الحكومي، وأُبقي على الآنسة صوفي مبارك كمديرة بالإضافة إلى جزء بسيط من الكادر التعليمي السابق، وحاولت إدارة المدرسة -رغم التأميم- الحفاظ على المستوى والسمعة التي امتازت بها مدارس المنصور الأهلية.

من أنشطتها الرياضية السنوية التي يُحضَّر لها طيلة السنة الدراسية «اليوم الرياضيSPORTS DAY» الذي تتبارى فيه الفرق الرياضية على سباقات الساحة والميدان وألعاب الجمناستك، وينتمي كل طلبة المدرسة منذ الصف الأول إلى فريق من الفرق الرياضية الأربع (الأحمر، والأخضر، والأزرق، والأصفر) التي ربِطت لاحقًا بأسماء قادة الفتوحات الإسلامية.

الشُّعب الدراسية كانت تصنَّف حسب الأبجدية أولًا (A،B،C...) ثم أصبح التصنيف حسب الألوان (الأحمر، الأخضر، الأزرق...).

11 نيسان 1979

قالت لهم مرشدة الشعبة الست فائزة الصفَّار أن يلتزموا بالزي الصيفي الموحد من أجل الصورة، وألا يتغيب أحد. أكدت عليهم ذلك. قالت أيضًا إن هذه الصورة ستبقى معهم كذكرى للمدرسة الابتدائية وإن هذه الذكريات لا يمكن أن تعوَّض. مرت عليهم المعاونة الست محاسن قندلا قبل نهاية الدوام وأعادت عليهم التذكير. غدًا صورة التخرج. لا غياب والالتزام بالزي الموحد. لم يكن هناك داعٍ للتذكير بالزي الموحد لأن الالتزام به دائم والتشديد كذلك. لكن الاحتياط واجب. القميص أبيض والبنطلون أو التنورة باللون الرصاصي.

https://t.me/MktbtArab

الحذاء أسود ويمنَع أي حذاء رياضة إلا في درس الرياضة. ربطة عنق غامقة اللون للأولاد. والبنات يفضَّل أن تربَط شعورهن في ضفيرتين على الجانبين.

سأل أحمد موفق إن كان ارتداء البابيونة مسموحًا، فأشارت المعاونة أن نعم. كانت تعرف أن الأولاد في هذا العمر يسخرون ممن يرتدي البابيونة ولذلك فنسبة من يرتديها لن تتجاوز واحدًا أو اثنين في الشعبة الواحدة، لذا لن يؤثر ذلك على نظام الصورة واتساقها.

الأربعاء الذي سبق الصورة. واجب العلوم إلى نهاية الجهاز العصبي. الرياضيات حل مسائل الفصل السادس. إنجليزي حفظ المحاورة ومعاني الكلمات. التاريخ مراجعة منجزات ثورة السابع عشر - الثلاثين من تموز. جدول حافل. وفوق ذلك حلقة جديدة من مسلسل مغامرات السندباد الذي يعرَض كل أربعاء الساعة السادسة والربع، وحلقة من مسلسل «دالاس» الذي يعرَض في السابعة والثلث تقريبًا، بعد جريدة المساء.

بدا العالم بسيطًا واضحًا لطلاب الصف السادس أحمر بينما هم يستعدون لالتقاط صورة تخرجهم. بل ربما بدا لهم باعثًا على التفاؤل. فاز العراق قبل أيام فقط بكأس الخليج العربي في دورته الخامسة. الفوز كان عبر مباراة عصيبة مع منتخب الكويت. 3-1. حسين سعيد هداف الدورة بعشرة أهداف. عشرة أهداف في دورة واحدة! يعرب عبد الحميد كان يتفاخر على الجميع بأنه حضر المباراة الختامية في ملعب الشعب الدولي، وسهَّل له والده -المسؤول الحزبي المهم وعضو القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي والوزير لعدة مرات- التقاط صورة مع حسين سعيد وحارس المرمى رعد حمودي. صورة فورية بكاميرا «بولورويد» لم يبقَ أحد في المدرسة إلا وشاهدها في اليوم التالي. فيلم «سوبرمان» وصل بنسخة «أصلية» -فيها صورة وغلاف- على الفيديو كاسيت عند سرمد صلاح الدين. انتشار الفيديو كان لا يزال في بدايته، ونظريًّا كان يعتقَد أنه ممنوع من قِبل الحكومة. لكن يعرب عبد الحميد أكد أن الحكومة ستسمح به قريبًا، وكلامه لا بد أن يكون صادرًا من والده الوزير والمسؤول الحزبي المهم. أيًّا كان، امتلاك جهاز فيديو أو أشرطة فيديو وأفلام جديدة كان يمثل «مكانة» اجتماعية جديرة بالتنافس عليها. أن تمتلك جهاز فيديو في تلك الفترة كان يضعك في مرتبة عليا تجعل الآخرين

https://t.me/MktbtArab

يتوددون لكي يشاهدوا هذا الجهاز الحديث النادر، وتزداد هذه المكانة ويزداد التودد إذا كنت تمتلك أشرطة لأفلام جديدة لم تعرَض على التلفزيون أو في دور العرض. نسخة سوبرمان «الأصلية» كانت ضربة قوية من سرمد صلاح الدين ضد ليث صبيح، الذي كان أول من امتلك جهازًا للفيديو في المدرسة. المنافسة بين ليث وسرمد على أشرطة الفيديو كاسيت الجديدة كانت تبدو طفولية وسخيفة بالنسبة إلى آخرين، ممن بدؤوا يدخلون عالم المراهقة، مثل يعرب عبد الحميد، وأحمد موفق، ومحمد عبد الجبار وكان بينهم تنافس (لا يقل طفولة) على جذب اهتمام الفتيات، تحديدًا الفتاتين الأجمل في الصف: ياسمين علي وريم مظفر.

عالم الفتيات كان متقدمًا بسنتين على الأقل على عالم الفتيان. الفتيان لا يزالون أولادًا. أو هذا ما يبدو على أغلبهم مع استثناءات نادرة. أما البنات فكن يتحسسن خطواتهن الأولى في عالم الأنوثة. أغلبهن لديهن فكرة عن «البلوغ» المنتظَر، وعن «كيف يحدث الحمل» (وهو أمر كان لا يزال غامضًا عند أغلب الفتيان، باستثناء يعرب عبد الحميد الذي جعله رجال حماية والده يشاهد فيلمًا إباحيًا فتح عينه على الحقائق بطريقة مشوشة لازمته طيلة حياته لاحقًا). بعض الفتيات كن قد دخلن للتو عالم النساء السري المحفوف بالسرية والكتمان والخجل والفخر في آن واحد. على العتبة المبكرة للمراهقة كانت أقصى مغامراتهن تتمثل في تبادل مجلة الفوتورومان اللبنانية «سمر» أو «ريما»، أو بالتعبير عن إعجابهن بفرانكو كاسباري من ممثلي المجلة المصورة أو جون ترافولتا من الممثلين الأجانب. حسين فهمي كان الوحيد ضمن الممثلين العرب الذي ينال اهتمامهن إلى أن حدث دخول جديد لممثلين لبنانيين، عندما بدأ التلفزيون يعرض في سهرة يوم الخميس مسلسل «عازف الليل»، وكانت الفتيات منقسمات بين تفضيلهن لعبد المجيد مجذوب بذقنه المميز «السكسوكة» -الذي أصبح موضة عند الشباب بسببه- أو حكمت وهبي الوسيم الحليق.

«العلامات الكاملة» كانت الطموح الدراسي للمتفوقين الذين يتنافسون على المراكز الثلاثة الأولى، ولم تكن صعبة جدًا. عدا اللغة العربية، حيث كانت العلامة الكاملة فيها مستحيلة لأنك مهما حاولت لن تحصل على العلامة الكاملة

في «الإنشاء» الذي يأخذ نسبة ثلاثين بالمائة من درجة اللغة العربية. كانت المراكز الأولى دومًا في الصف السادس أحمر تتوزع بين وليد خالد وسرمد صلاح الدين وريم مظفر. المركز الأول دومًا لوليد. دون منافس. سرمد وريم يتنافسان على المركز الثاني، مرة لسرمد ومرة لريم، وغير بعيد عنهم أحمد موفق. كانت الفروق غالبًا طفيفة بين الأربعة، إلا عندما تحدث كارثة بمقاييس المتفوقين، كما حدث مع وليد الذي نسي الإجابة عن سؤال كامل في امتحان الجغرافية في نصف السنة، وأضاع عشرين درجة كاملة جعلته يحل محل أحمد موفق في المرتبة الرابعة. كان لدى سرمد نظرية قالها للجميع ملخصها أن وليد لم ينس السؤال لكنه أجاب عنه بشكل خاطئ، وفضَّل أن يقول إنه نسي السؤال لأن «النسيان» يحفظ له ماء وجهه أكثر من «الإجابة الخاطئة».

بكى وليد يومها عندما اكتشف أنه نسي حل السؤال (أو عندما اكتشف أنه أجاب بشكل خاطئ تمامًا، حسب نسخة سرمد التي اعترف وليد بصحتها بعد سنوات طويلة). تندر على دموعه بقية «الأولاد». وليد يبكي «مثل البنات». قالوها بينهم لأن مكانته «كالأول دائمًا» كانت تحفظ له مسافة احترام ما. ولكنه سمعها وآذته. مع الوقت تعلم وليد أن يخفي دموعه لكي يتجنب هذه التعليقات. لم تكن كلمة «تنمر» قد ظهرت بعد، لكن السلوك كان موجودًا ربما منذ أن تعلم البشر اللغة. البكاء لم يتوقف مع وليد. أصبح مخفيًّا فحسب. أصبحت الدموع تجري في الداخل فقط. لكن أسباب الدموع تغيرت جدًّا مع الوقت.

أخبار العالم في 12/ نيسان 1979

الصحف اليومية الثلاث التي تصدر في بغداد صدرت بعنوان رئيسي موحد كالعادة. «الثورة»، و«الجمهورية»، و«العراق»، كلها صحف حكومية رسمية تتحدث باسم الحكومة، لكن تبقى «الثورة» هي الأكثر «رسمية» لأنها كانت الناطقة الرسمية باسم حزب البعث العربي الاشتراكي الذي استلم السلطة قبل أحد عشر عامًا. لم تكن الصحف الأخرى تنطق بشيء مخالف للحزب بطبيعة الحال، ولكن «الثورة» رسميًّا هي صحيفة الحزب. كل الصحف كانت تضع كل يوم على صدر صفحاتها صورًا للسيد الرئيس المهيب أحمد حسن

https://t.me/MktbtArab

البكر ونائبه الرفيق المناضل صدام حسين حتى لو لم يكن هناك خبر مباشر عنهما.

العنوان الرئيسي الموحد هذا اليوم كان التنديد والشجب لمعاهدة السلام بين مصر و«الكيان الصهيوني» التي كانت قد وقعت في واشنطن في الشهر الماضي، التي وافق عليها البرلمان المصري في اليوم السابق بأغلبية كبيرة في خطوة لوضع المعاهدة موضع التنفيذ. محتوى الخبر في الصحف الثلاث كان موحدًا وصادرًا عن وكالة الأنباء العراقية (واع)، ويستعيد الخبر قرارات مجلس الجامعة العربية قبل أسبوعين بتعليق عضوية مصر في الجامعة وسحب السفراء العرب من مصر ونقل مقر الجامعة إلى تونس.

العنوان الرئيسي الثاني كان عن ترشيح منظمة اليونسكو العراق لنيل جائزة تقديرية عن جهود «الحملة الوطنية الشاملة لمحو الأمية الإلزامي»، وهي الحملة التي صدر قانونها الخاص قبل سنة، واستهدفت كل المواطنين الأميين بين عمر 15 – 45، ونص قانونها على عقوبة الحبس والغرامة لكل من يتخلف عن الالتحاق بحملة محو الأمية، بل بالحبس لكل من يتغيب لثلاثة أيام في الشهر. ورغم أن خبر جائزة اليونسكو سينتشر مع الوقت ويصبح واحدًا من الأمثلة الراسخة على تطور التعليم في العراق في تلك الفترة، فإن الحقيقة هي أن الجائزة لم تكن من اليونسكو، بل من منظمة سوفيتية حكومية تحمل اسم أرملة الزعيم الراحل «لينين» نادزهدا كابروسكي، وتبلغ قيمتها 5000 روبل، أي أقل من ألف عراقي حسب سعر التصريف الرسمي. أما سبب الخلط بين هذه المنظمة واليونسكو فهو أن الجائزة سلِّمت لاحقًا في فعالية أقامتها اليونسكو لمكافحة الأمية.

صحيفة الثورة أفردت مساحة واسعة لخبر تنفيذ إعدامات في إيران لمسؤولين سابقين في نظام الشاه الذي أطيح به مطلع العام، بينما تجاهلت الصحيفة –قبل أسبوعين فقط– أي إشارة إلى خبر إعلان «الجمهورية الإسلامية» في إيران، واختزلت الخبر إلى ذكر نتائج الاستفتاء الذي انتهى بنسبة تأييد كاسحة بلغت 99.3% لصالح «آية الله» الخميني. خلال أشهر ستتحول لغة الإعلام الرسمي من «الاحترام الحذر» إلى العداء المعلَن. اسم الخميني لن يسبَق بـ «آية الله»، بل سيكون ملحوقًا دومًا بـ «الدجال». مجرد

https://t.me/MktbtArab

ذكر لقب «آية الله» قبل اسم الخميني سيصبح جرمًا قد يزج بقائله في غياهب السجن، أو حتى إلى حبل المشنقة.

انقلاب عسكري يطيح بعيدي أمين في أوغندا بعد ثماني سنوات في السلطة.

رئيس الوزراء البريطاني جيمس كالاهان يقول إنه واثق من الفوز على منافسته زعيمة حزب المحافظين السيدة مارجريت تاتشر في الانتخابات التي ستجري مطلع شهر أيار/ مايو القادم. المقال التحليلي الذي نشرته صحيفة «الثورة» عن الانتخابات البريطانية كان يرجِّح الشيء ذاته بسبب قلة خبرة السيدة تاتشر مقارنة بجيمس كالاهان، لكنه يؤكد في الوقت ذاته أنهما في كفة واحدة (معادية طبعًا) لأمتنا العربية الواحدة ورسالتها الخالدة.

صحيفة العراق تنشر عنوانًا رئيسيًّا إضافيًّا: (العالم يحبس أنفاسه مترقبًا سقوط مركبة الفضاء العملاقة سكاي لاب) مع صورة للمركبة، وتتمة الخبر في الصفحة الثانية، وهو الموضوع ذاته الذي خصص له معد برنامج العلم للجميع الأستاذ كامل الدبَّاغ أكثر من نصف الحلقة التي بثَّت مساء الأربعاء 11 نيسان، وركز فيه على أسباب خروج المركبة التي تزن أكثر من أربعين طنًّا عن مدارها المرسوم والمخاطر الناتجة عن سقوطها المحتمَل على مناطق مأهولة بالسكان.

قال الأستاذ كامل الدبَّاغ إن وكالة ناسا تتوقع دخول المركبة المجال الجوي الأرضي وارتطامها بالأرض في شهر تموز، تحديدًا في يوم 11 من هذا الشهر، لكن موقع الارتطام المحتمَل يبدو أكثر تحديًا للعلماء بسبب إمكانية حدوث عوامل متغيرة مؤثرة. عمليًّا الكرة الأرضية كلها تبدو موقعًا محتملًا. وأنهى الأستاذ كامل الفقرة بدعاء سأل الله فيه أن يحمي «قطرنا العزيز» وشعبنا من أي أذى أو ضرر من السكاي لاب.

لاحقًا، سقط السكاي لاب بتاريخ 11 تموز يوليو كما توقع، موقع السقوط كان في المحيط الهندي وأجزاء من غرب أستراليا ولم يتسبب في أي أضرار أو وفيات.

https://t.me/MktbtArab

شهر تموز ذاته الذي شهد سقوط السكاي لاب سيشهد ارتطام العراق بحدث سيغيِّر مجرى تاريخه تمامًا. ألف كارثة مثل كارثة السكاي لاب، بل مائة ألف وأكثر، ستكون أقل تأثيرًا وضررًا مما حدث.

لكن هذا لم يكن من أخبار ذلك الصباح.

هكذا بدا العالم صبيحة الثاني عشر من نيسان أبريل 1979.

الصف السادس أحمر – 12 نيسان 1979

وقفوا صبيحة يوم الخميس المصادف للثاني عشر من نيسان 1979، الجو ربيعي، الشمس ساطعة. جاء «هرمز» مصور المدرسة الخاص المعتاد في كل مناسباتها لكي يرتب وقوف الطلاب وجلوس الصف الأول. عليه أن ينهي كل المرحلة السادسة اليوم. وسيبدأ مع السادس أحمر.

خرجوا من الصف. كان الدرس الأول هو العلوم. تخلصوا من واجب جديد. في انتظار مجيء المديرة المس صوفي مبارك رتبت المرشدة الست فائزة الوقوف حسب الطول والهندام ومزاجها العام تجاه الطالب. في الصف الأول في منتصفه تجلس المس صوفي مبارك وعلى يمينها معاونتها الست محاسن قندلا وعلى شمالها مرشدة الصف الست فائزة الصفَّار. بجانب فائزة يجلس وليد خالد، وسرمد صلاح الدين، ثم محمد عبد الجبار. من الجانب الآخر يجلس يعرب عبد الحميد، باعتباره ابن الوزير، وبجانبه تجلس ياسمين علي -تعمدت الست فائزة وضعها في المقدمة كما لو كانت تفخر بأنها مرشدة الصف الذي فيه هذه الحسناء، شقراء بضفيرتين ذهبيتين وعينين زرقاوين وطول بهي شامخ- وبجانبها ريم مظفر، لا تقل جمالًا عن ياسمين لكنها لم تكن تدرك ذلك، على الأقل ليس في هذه المرحلة. الجميلة الثالثة كانت دعد ياسين، سمراء بعينين واسعتين وشعر طويل فاحم وحضور ذكي. أوقفتها الست فائزة في الصف الثاني وعلى شكل يبرزها. بجانبها وقفت سوسن مالك، بيضاء صغيرة الحجم خجولة، صديقة ريم المقربة منذ الروضة. حاولت أن تجلس بالقرب من ريم لكن الست فائزة كانت قد حجزت لريم مكانًا قرب ياسمين.

https://t.me/MktbtArab

جاءت المس صوفي مبارك مرتدية سترة زرقاء غامقة وهي تضع عقدًا من اللؤلؤ في رقبتها ووردة بيضاء اعتادت أن تضعها في الجيب العلوي للسترة واعتاد الطلبة أن يأتوها بها من حدائق بيوتهم. بيضاء حصرًا. ياسمين أو رازقي أو أي وردة بيضاء حسب الموسم. سلمت المس صوفي على الطلبة وخصت يعرب عبد الحميد بتحية مميزة، أسلوب اتبعته مع أبناء المسؤولين.. تداعبهم وتميزهم عن غيرهم في المجاملات فحسب، لا في الدرجات ولا في الغياب. لا تسمح لهم بالتجاوز. لكن مع رقة في التعامل ومجاملات في الكلام. كانت تحتاج إلى العلاقات مع آبائهم لتسيير أمور المدرسة بعد التأميم. نظرت إلى ترتيب الجلوس وقالت للست فائزة أن تجعل ياسمين تقف. بينما جلست تارا عبد القادر مكان ياسمين، وقفت ياسمين في ركن الصف الثاني وعلى شكل يبرزها أكثر.

أخرجت الست فائزة من حقيبتها زجاجة عطر وبخت على رقبتها وهي تقول: «لكي تظهر الصورة برائحة طيبة». ضج الطلبة بالضحك. تبدو الآن نكت الست فائزة ثقيلة الدم، لكن يومها كانت تعتبر مضحكة، وبخاصة أنهم لم يعتادوا منها إطلاق النكات في الصف، على العكس من الست سهام مدرسة الرياضيات التي كانت تخلط شرحها للدرس بسيل مستمر من النكات.

بينما وقفوا جميعًا منتظرين وضع هرمز اللمسات الأخيرة على كاميرته. كاميرا كانون -نوع F-1 المعدلة- فخر الصناعة اليابانية في مجال صناعة الكاميرات آنذاك.

بينما كانوا ينظرون إلى الكاميرا كان المستقبل يتربص بهم. أحلامهم بسيطة وبريئة لكن المستقبل سيتعامل معها كما لو كانت كرة تتقاذفها الأرجل.

لم يكونوا يعرفون. لم يكونوا يتوقعون. وبعد أربعة عقود ستفاجئهم الصورة وتذكِّرهم بكل ما كان.

قال هرمز: «واحد، اثنان..».

قبل أن يكمل قاطعته الست فائزة: «قولوا جبنة». قالتها بالعربي، وليس «تشييز» المعتادة.

https://t.me/MktbtArab

ضحكوا، نظرت المس مبارك شزرًا إلى الست فائزة من تحت نظارتها، كأنها تقول لها: ماذا دهاك اليوم؟

ثم قال هرمز: «ثلاثة».

صدر صوت مسموع من الكاميرا، التقطت العدسة أشعة الضوء الصادرة من وقفة طلاب الصف السادس أحمر، وجهتها نحو حبيبات كيميائية حساسة للضوء محتواة في شريط الفيلم، حدث تفاعل كيميائي جعل أشعة الضوء تنطبع على الشريط.

خلال أجزاء من الثانية، اعتقلت كاميرا هرمز تلك اللحظة الهاربة، وخلَّدتها، على الأقل لأربعة عقود قادمة، أغلبهم نسيها تمامًا في زحمة الحياة وتقاطعاتها.

ثم جاءت لزيارتهم دون استئذان.

هرمز بولص دنخا

وِلد في قضاء تلكيف التابع لمحافظة نينوى عام 1925، نزح مع أسرته إلى الموصل في أوائل الثلاثينيات ومن ثم إلى بغداد حيث سكنت عائلته في حي (عقد النصارى). عمل والده في تنظيف المجاري العامة وكان يسير في الأحياء الراقية وهو يحمل عدته بانتظار أن يطلب منه أحد تنظيف المجاري، أما هرمز فقد حصل على معونة دراسية من جمعية الرحمة الخيرية الكلدانية واستطاع أن يتخرج في المدرسة الابتدائية وعمل بعدها في جريدة (صوت العروبة) التي كان يصدرها الصحفي إسكندر معروف، الذي ينحدر من قضاء تلكيف وتربطه به علاقة قرابة من ناحية الأم. عمل هرمز في مطبعة الجريدة مصحح تنضيد، ومن ثم انتقل للعمل في جريدة (صوت الشعب) التي كان يصدرها قريبه الآخر يوسف هرمز جمو، الذي كان مقربًا من الحزب الشيوعي العراقي لكنه هذه المرة عمل مصورًا للجريدة، وهناك تعرَّف إلى عامل في المطبعة من قضاء القوش من محافظة نينوى (لواء الموصل آنذاك) وتزوج ابنته هيلينا وأنجبا ثلاثة ذكور وبنتًا واحدة. مع انقلاب 8 شباط عام 1963 أقفلت الجريدة أبوابها لكن هرمز أصبح معروفًا كمصور للمناسبات الرسمية، استغل ذلك وافتتح محلًّا للتصوير في شارع السعدون في مركز مدينة بغداد

https://t.me/MktbtArab

واستطاع أن يحقق نجاحًا معقولًا مكّنه من العمل في تصوير مناسبات خاصة لمسؤولين مهمين.

عام 1982 استشهد ابنه البكر خالد في الحرب العراقية الإيرانية في أثناء المعركة التي استعادت فيها القوات الإيرانية السيطرة على مدينة المحمرة.

عام 1989 هاجر ولداه بشار وباسل إلى الولايات المتحدة، كانت ابنته بان التي تزوجت بابن عمتها قد سبقتهم إلى هناك.

في عام 1991 توفيت زوجته هيلينا، وباع محل التصوير لعدم قدرته على العمل فيه. هاجر إلى الولايات المتحدة بعد عامين إثر إلحاح من أولاده. رفض بإصرار التقديم على الجنسية الأمريكية، وعندما سقطت بغداد بيد القوات الأمريكية عام 2003 امتنع عن الكلام والطعام ثم مات بعد أيام.

أحد أحفاده أصبح طبيب أسنان معروفًا في ديترويت، وله حفيد آخر أصبح مذيعًا في قناة تلفزيونية محلية.

https://t.me/MktbtArab

-3-

عندما فتح وليد الإشعار وقرأه، ذهب فورًا إلى صورة حائط المجموعة.

صورة تخرج الصف السادس أحمر مدرسة المنصور التأسيسية 1979.

كان قد جلس في صالة التدخين وأشعل سيجارته الأولى لهذا اليوم.

تأمل مليًّا في الصورة. وقف عند كل وجه محاولًا تذكر الاسم. وقف على كل تفصيل من تفاصيل الصورة. البناء الذي يبدو في الخلف. واجهته المغلفة بالطابوق الحجري «الجفقيم». الأشجار. الأعمدة الحديدية.

تجاوز النظر إلى نفسه. وبعد أن أنهى التدقيق في الجميع وفي كل التفاصيل، نظر إلى صورته قبل أربعة وأربعين عامًا. كان مبتسمًا، يزم شفتيه وهو يبتسم. تعود على ذلك منذ أن كسِرت سنه وهو في التاسعة. يزم شفتيه كي لا تظهر سنه المكسورة. بقي يفعل ذلك حتى بعد أن أصلح السن. كانت عيناه تلتمعان بشدة. رغم أن الشمس في مواجهة الواقفين، وأغلبهم كانوا تقريبًا يحاولون تجنبها بتضييق أعينهم، فإنه هو بالذات، أو على الأقل هذا ما يبدو الآن، كان ينظر بعينين مفتوحتين على اتساعهما، وفيهما لمعة وبريق. أي شخص ينظر إلى صورة هذا الطفل سيقول عنه إنه سيكون ناجحًا مميزًا.

لم يكمل سيجارته الأولى، أطفأها في المنفضة، وظل ينظر إلى المنفضة الممتلئة ببقايا سجائر نزلاء الطابق والرماد المتراكم فيها.

ثم أخذ يقلب نظره بين الصورة على الهاتف والمنفضة الممتلئة.

https://t.me/MktbtArab

عاد إلى غرفته، دخل الحمام الملحق بالغرفة، الضوء في الحمام ينير تلقائيًا عند دخول أي شخص. عندما دخل وأنار الضوء فوجئ برؤية شخص في الحمام، شخص ينظر إليه بعينين فارغتين غائرتين. نحيل. عظام وجهه بارزة كأنها تريد أن تقول شيئًا لا يقال. لحيته طويلة مهمَلة. يبدو كئيبًا حتى دون أن ينطق بكلمة واحدة، كما لو أنه محكوم عليه بالإعدام تركوه في غرفة تنفيذ الأحكام ونسوه فيها.

لثوانٍ لم يعرف من هذا الذي يقف أمامه في حمام غرفته ينظر إليه.

عندما فهم أنه يشاهد انعكاسه على المرآة، بقي يتأمل فيما يراه.

كيف حدث هذا؟ كيف وصل هذا الطفل المختبئ في الصورة على الهاتف إلى أن يكون هذا الرجل النزيل في مصحة نفسية في إسطنبول تحرص إدارتها ألا يكون في متناوله أي أداة حادة كي لا ينتحر؟

«كيف وصلت إلى هنا؟»، سأل بصوت مرتفع، لكنه لم يكن يكلم الرجل في المرآة، بل الطفل في الصورة.

لم يرد عليه أحد.

***

عندما فتح يعرب عبد الحميد الصورة، أرسلها فورًا إلى أصدقائه في جلسة المقهى. قال لهم: «من يميزني من بين هؤلاء؟». ميَّزه عبد الناصر بينما لم يفلح سعد. أطلقوا النكات على الصورة وعلى وزنه الحالي. ضحك معهم بشدة بينما كان يلعب بسبحته بسرعة كما يفعل دومًا عندما يكون عصبيًّا أو متوترًا أو مستثارًا.

أرسل الصورة إلى مجموعة العائلة على الوتس آب وعلق عليها: أحلى أيام. ثم حذف التعليق وأبقى الصورة. أرسل الصورة إلى المجموعة الأخرى التي تضمه مع شقيقتيه الأصغر منه رشا وداليا وأمه. ثم حذفها بعد ثوانٍ.

استمر في المشاركة في الحوار والضحك في الجلسة ولكن بذهن شارد. مجرد تعليقات مجاملة تؤيد ما يقال على غير عادته. ثم طلب الحساب ودفعه دون أن ينسى (البخشيش) المعتاد. لم يتغير شيء في موعد خروجه وانتهاء الجلسة. تركه سعد عند باب سيارته مع التأكيد أنه سيمر غدًا على المكتب.

https://t.me/MktbtArab

جلس في السيارة وفتح الصورة على الهاتف مجددًا، وضع نظارته التي كان تركها في السيارة وتأمل في الصورة مليًّا. شعر فجأة بشعور غريب في عينيه. هناك بلل فيهما. مسحهما بسرعة.

لا. لن تدمع عيناه. هو لا يعرف هذا الشعور. لم يحدث له منذ أكثر من أربعين عامًا، ولن يحدث الآن بسبب أحمق مجهول أرسل صورة قديمة.

أمسكته والدته بشدة من كتفيه، وهزته بشدة أكبر، يوم حدث ما حدث، بعد أشهر فقط من التقاط هذه الصورة. كان على وشك البكاء، كانت هي تبكي بصوت مرتفع، وما إن رأته وهو على وشك أن ينخرط في هذا، قامت من دموعها وأمسكته بشدة، قالت له ما لن ينساه، ما بقي يتردد على مسامعه حتى صار جزءًا من بديهيات حياته.

قالت له: «لا. لن تبكي. أنا أبكي. شقيقتاك تبكيان. أنا أبكي وألطم. وشقيقتاك أيضًا. أنت لا. لا يمكنك أن تفعل ذلك. أنت رجل. أنت رجل البيت الذي نستند عليه الآن. أنت ابن عبد الحميد جبارة. أنت لا تبكي. فهمت؟».

سكت يومها وهو يتأملها كأنه يراها لأول مرة.

«فهمت؟»، أعادتها عليه.

مسح عينيه وقال: «فهمت».

الآن يمسح عينيه مجددًا، كما فعل يومها. سمعها تسأله مجددًا: «فهمت؟».

ضرب مقود السيارة وهو يقول: «فهمت، فهمت يا أمي».

***

فتح محمد عبد الجبار الإشعار ولم يشعر بالارتياح للدعوة. شخص لا يعرفه يسمي نفسه «السادس أحمر» يرسل دعوة إلى مجموعة تحمل العنوان نفسه. هذا غالبًا قرصان إلكتروني. ربما إذا فتح الدعوة سيتمكن هذا القرصان من اختراق هاتفه وسيدخل كل حساباته وربما يسطو على حسابه المصرفي. لا شيء يقف أمامهم هؤلاء المجرمين الجدد.

السادس أحمر؟ ما هذه المزحة السخيفة؟

من الأفضل تجاهل الأمر.

https://t.me/MktbtArab

لكن لماذا يختار أي قرصان إلكتروني هذا الاسم؟ ومن يعرف بأنه كان في الصف السادس أحمر في مدرسة المنصور التأسيسية قبل أكثر من أربعين عامًا إلا من كان معه في الصف نفسه؟

هل هي مزحة من يعرب؟ من سرمد؟ من ليث أو أحمد؟ من منهم يمكن أن يفعلها؟

حاول طرد الأمر من ذهنه، لكنه لم يستطع؛ فضوله أقوى من حذره.

فتح الصفحة، ومن ثم فتح الصورة.

تأمل فيها. بدا الانزعاج عليه فورًا، بدا كما لو أنه سيصاب بنوبة قلبية حقيقية هذه المرة.

سألته هالة وقد لاحظت تغير ملامحه: «ماذا بك؟ ماذا قرأت؟».

رد بوجوم: «لا شيء».

***

القواعد التي وضعتها تارا تقول إن لا هاتف على طاولة العشاء، لكن يمكن كسر هذه القواعد عند الضرورة القصوى. غالبًا هي من تحدد الضرورة القصوى ومدى (ضرورتها).

لكن هذه القاعدة تحديدًا لا معنى لها عندما تتناول طعام العشاء وحيدًا. وبما أن سالار ونوزاد قد تناولا الطعام فعلًا، فإنها ستتناول عشاءها وحيدة بسرعة. سخنت طعامها بسرعة. قطعة صغيرة من صدر الدجاج. أخرجت السلطة من الثلاجة، فتحت الهاتف، وجدت عدة إشعارات كان أحدثها باللغة العربية. زمت على شفتيها، لن يتركوها وشأنها. تحاول أن تنسى كل ما يتعلق بهذه المرحلة من حياتها. لكنهم لن يتركوها وشأنها. كانت من أنصار كتابة اللغة الكردية بالأحرف اللاتينية وكتبت في ذلك مقالات عدة. انظروا إلى أين وصلت الدولة التي فعلت ذلك وقارنوها بالدول التي تمسكت بأحرف عربية للغة غير عربية؟ المقارنة سهلة وواضحة النتيجة. لكن خلف أكاديمية المقالات كانت هناك مشاعرها الواضحة تجاه كل ذلك. تريد أن تنسى. وهذه الأحرف تذكّرها بكل ما تريد أن تنساه.

من أرسل هذه الدعوة؟ ليست متأكدة أنها تذكر أسماء الأولاد. لكنها تذكر بعض البنات بالتأكيد. ياسمين وريم ودعد وسوسن وسارة وعبير. كن لطيفات

https://t.me/MktbtArab

غالبًا. ياسمين كانت مغرورة قليلًا، لكنها جميلة جدًّا. الغرور طبيعي جدًّا في حالتها. وريم كذلك كانت جميلة جدًّا، ومتفوقة أيضًا. لا تعرف كم سنة مرت على آخر لقاء بأغلبهن. وبما ثلاثون عامًا. حسبتها في رأسها وصُعِقت. أربعة وأربعون؟ هذا كثير جدًّا. «لقد هرمنا» حرفيًّا. ضبطت نفسها تفكر بالعربية مجددًا. حاولت أن تتخلص من ذلك لكن بعض العادات صعب أن تموت تمامًا. لا تزال تقفز في رأسها جمل وتعبيرات عصية على النسيان والاستئصال. أحيانًا تضطر إلى الاعتراف أن اللغة العربية جميلة وثرية. لا يمكن لأكاديمية تخصصت في دراسة الأدب أن تتجاهل ذلك بسهولة، مهما كانت تملك تحيزات ومواقف سابقة ضد من يستخدم هذه اللغة. أحيانًا تجد ذلك سببًا أكاديميًّا علميًّا مقنعًا لكي تبرر استمرارها في التفكير باللغة العربية بين حين وآخر. لا الكردية ولا السويدية. لكنها في أحيان أخرى تعترف أن الأمر قد يكون أبسط من ذلك، وأنها لا تزال «تحن» للهجة العراقية، البغدادية خصوصًا. كما حدث في الشهر الماضي عندما كانت في سوبرماركت ica وسمعت سيدة ربما في السبعين من عمرها تتحدث على الهاتف بلهجة بغدادية بحتة بينما هي تضع المشتريات في عربة التسوق. بقيت تسير خلفها على بعد خطوات بحيث تستطيع سماع الكلمات. حدث ذلك دون وعي أو قصد منها. جذبتها اللهجة. الغريب أنها لم تجذبها فحسب، بل جعلتها تشعر بأمان غريب، أمان حميم قديم تذكُر بشكل غامض أنها شعرت به في حياة سابقة. دفء عميق طالما احتاجت إليه في ليالي أبسالا الباردة. ليالي أبسالا وصباحاتها أيضًا. لكن كان هذا غريبًا. قبضت على نفسها متلبسة بهذا الشعور وتوقفت عن متابعة السيدة. الأمان في ظل هذه اللهجة؟ نظريًّا، وحسب كل ما تؤمن به، يفترَض أن هذين ضدان لا يجتمعان.

بعد الابتدائية ذهبت هي إلى ثانوية العقيدة، بينما بقية البنات ذهبن إلى مدرسة أخرى.. «ثانوية بغداد» تقريبًا، أو هذا ما تذكره، وهكذا انقطعت علاقتها بهن تدريجيًّا، تذكر أنها كانت تتواصل مع ريم عبر الهاتف في أول سنة بعد الانقطاع، مكالمات قصيرة تتخللها فترات صمت طويلة، ثم لا تذكر ماذا حدث. انقطع كل شيء.

فجأة وجدت تارا نفسها وهي تشتاق لكل ذلك وتفتقده. داهمتها كل هذه المشاعر خلال أقل من دقيقة. بدأت مع (ماذا يريدون مني؟) وانتهت بـ (كم أشتاق لهن).

https://t.me/MktbtArab

حملت هاتفها وذهبت إلى نوزاد، ستطلب منه أن يحزر أين هي في هذه الصورة.

***

استغرقت الجلسة مع المحامية ساعة كاملة. ستأخذ الـ 400 دولار كلها. لكن الأخبار جيدة. التسوية المالية التي وصلت إليها مع محامية زوجته –التي ستصبح طليقته بعد توقيع الأوراق- تسوية منطقية جدًّا، مقارنة بخسائره مع رند سعيد الكلبة التي تزوجت بالمكسيكي، ومقارنة بتوقعاته السابقة أيضًا.

بقي في ستاربكس بعد مغادرة لورا. لم يكن قد أنهى بعد كوب الاسبريسو المزدوج الثالث. تأملها وهي تخرج كما يفعل مرة. صاروخ وصاروخ فتَّاك أيضًا. لكن من هو الرجل المجنون بما يكفي ليتزوج بمحامية؟ ومحامية طلاق أيضًا. ستأكله نيئًا بلا ملح.

فتح هاتفه. إشعارات إعلانات البوتوكس الرجالية التي أصبحت تصل إليه مؤخرًا مستفزة للغاية. تذكره أنه أصبح في الخامسة والخمسين. منذ أن بحث قبل أسابيع عن خيارات لتخفيف التجاعيد حول عينيه –بدافع الفضول فحسب- والإعلانات تلاحقه كما لو كانت قد وجدت فريسة جديدة. لم يعد الرجل يمكنه أن يتلصص على شيء في النت دون أن يكتشف أن الشركات كانت تتلصص عليه. هو ليس مقتنعًا بحاجته إلى أي إجراء. جسمه لا يزال رياضيًّا وهو يمارس الجري ثلاث مرات في الأسبوع ويذهب إلى النادي الرياضي مرتين. وهذا جعله في قوام مقبول جدًّا بالنسبة إلى عمره. لكن التجاعيد والشيب لا يمكن تجاهلها. هل يمكن لمن مر بتجربة طلاق مع رند الكلبة التي تزوجت بالمكسيكي إلا أن يغزو الشيب شعره والتجاعيد وجهه. هو مقتنع تمامًا أنه سيظل مرغوبًا فيه دون أي تدخل لا في وجهه ولا في شعره. على العكس، ربما أصبح أكثر جاذبية الآن مما كان عليه قبل سنوات. الآن أصبح ضمن نطاق «الشوجار دادي». على أي حال، لا يزال لا يعطي عمره الحقيقي. حسابه في تطبيق (تندر) للمواعدة يشير إلى أنه في التاسعة والأربعين فقط. وسيبقى كذلك حاليًّا. هو لا يستعمل الحساب على أي حال. لكنه يستكشف عبره فقط.

https://t.me/MktbtArab

وجد إشعار «السادس أحمر». فتحه فورًا. ابتسم وهو يشاهد الصورة. حاول تذكر الأسماء. لا يحتاج إلى تذكر (وليد). كان الأول بالواسطة، والدليل أنه غادر هذا المركز بعد أن غادر الابتدائية. مر على البقية وهو يتذكر الأسماء. ثم نظر إلى الصورة وقال في نفسه إن شعبته كانت فيها فتيات جميلات جدًّا. تذكر غرامه الطفولي الغبي بياسمين علي. آه ياسمين. من كان يصدق. من كان يصدق ما حدث.

ريم مظفر كانت جميلة أيضًا. كيف لم يفكر فيها بدلًا من الكلبة؟ ربما لأنها كانت منافسته على المركز الثاني طيلة فترة الابتدائية. ثم أصبح يراها دومًا في نادي كلية طب الأسنان حيث كان يذهب هناك دومًا مع أصدقائه. بنات الأسنان أجمل من بنات الطب وأكثر اهتمامًا بمظهرهن. هذه كانت من بديهيات تلك الفترة. وكانت ريم واحدة من جميلات دفعتها. تبادلا التحية عدة مرات وتصادف وجودهما في مجموعة واحدة أكثر من مرة. تحدثا باقتضاب عن التنافس في الابتدائية وكيف أن الموضوع أنتهى بانتصاره هو لأنه دخل كلية الطب. ربما لو لم تصطده رند الكلبة في السنة الثانية لكان فكر في ريم. كل شيء ممكن.

فكر في الأخريات: دعد وتارا وسوسن. لا يعرف أي شيء عنهن. لكن عليه أن يعترف، شعبته كانت محظوظة بالجميلات، لكن للأسف في الوقت الخطأ. هل يمكن أن تكون زوجته الثالثة واحدة منهن؟ هذا مستحيل طبعًا. الآن يريدها ثلاثينية. لماذا يتزوج رجل في الخامسة والخمسين بامرأة في سنه؟ أحمق في السابعة والعشرين سيفعل ذلك. وهذا الأحمق لن يكرر حماقاته. باستثناء حماقة الزواج نفسها، لكن مع كل الاحتياطات القانونية اللازمة.

***

سارت ريم إلى مرأب السيارات ورأسها مثقل بكمية المعلومات التي أخبرتها بها الطبيبة بحضور اختصاصي الأورام الذي سيتابع علاجها من الآن فصاعدًا. اللقاء كان أشبه بإجراءات استلام وتسليم. حاول كل من المسلِّم والمستلم الظهور بمظهر متعاطف معها، ولم يكن تمثيلهما سيئًا، لكن ريم كانت تعي أن ذلك كله جزء من بروتوكولات العلاج لا أكثر ولا أقل، وأنهما غالبًا شاهدا وتابعا ما يكفي من الحالات بحيث إن مشاعرهما تبلدت تمامًا.

https://t.me/MktbtArab

بين كل المعلومات التي أمطرت بها في أثناء الجلسة، كانت هناك جملة صريحة واضحة ولا يمكن تخفيفها أو إضافة أي نوع من السكر عليها لجعلها أكثر قبولًا.

«سرطان الثدي عندما ينتشر إلى العظم يمكن (معالجته) ولكن لا يمكن (شفاؤه)».

العلاج ممكن ولكن الشفاء لا. ليست أحجية. العلاج سيحسن من نوعية حياتك، بينما تسيرين بخطى واثقة نحو الموت.

تحسين نوعية الحياة قبل أن تموت؟ كيف؟

الجواب سهل: ألم أقل. كسور في العظام أقل.

طرحت سؤالًا: كم عامًا ستعيش؟

كان الجواب: 29% من السيدات وصلن إلى خمس سنوات. 50% وصلن إلى ثلاث سنوات.

ترجمت هذه الأرقام فورًا إلى عمرَي ديانا وعمر عندما يأتي وقتها حسب توقعات الأطباء، أضافت ثلاث سنوات ومن ثم أضافت خمسًا، مهما كان لا يزالان صغيرين. فكرت أن عليها أن تدفع أكثر بزواجهما خلال هذه الفترة. ثم وجدت الفكرة مستبعَدة بالنسبة إلى عمر الذي يدرس في السنة النهائية في كلية الطب في لوما ليندا. طريقه طويل. لكن خلال هذه السنوات عليه أن يقترب منها. يجد مكانًا للتدريب أو التخصص قريبًا من سان فرانسيسكو. ديانا تخرجت في طب الأسنان وتعمل معها في عيادتها. ما عدا موقفها المتعنت من فكرة الزواج المرتب من أمها فهي بخير. زواجها أمر قابل للتحقق. الدكتور وسام الذي قدم للعمل عندها قبل أسبوع يبدو جيدًا. وسيم ولطيف ويبدو ابن ناس. نسيت إن كان فلسطينيًّا أو أردنيًّا في الأصل. لا مشكلة. في الأحوال الأخرى ستفضِّل عراقيًّا. لكن لا وقت لديها الآن لكي تضع أي شروط. ستدفع بأمر وسام وترى كيف تسير الأمور.

قبل أن تصل إلى سيارتها بدأت تحسب الأقساط التي عليها أن تدفعها من أجل البيت. لن تورِّث ديانا وعمر أي مشكلات عالقة. لن يرثا ديونًا منها. عليها أن تسدد كل شيء خلال عامين على أبعد تقدير. هذا ممكن إذا باعت الـ SUV التي كان شراؤها أصلًا تبذيرًا لا معنى له.

عندما دخلت سيارتها انتبهت إلى أنها استلمت للتو خبر انتشار السرطان في جسدها، ولكنها مع ذلك لا تزال قوية متماسكة تعد لكي تكون أمور أولادها بخير بعد وفاتها المتوقّعة خلال ثلاث إلى خمس سنوات.

«اذهبي يا فتاة» قالت ريم بالطريقة الأمريكية، كما لو كانت تشجع نفسها.

قبل أن تشغل السيارة، فتحت الهاتف لتطمئن على ديانا والأمور في العيادة.

وجدت الإشعار. السادس أحمر؟ دق قلبها بسرعة.

فتحت الصورة فورًا. اتجهت بعينيها إلى صورتها. هذه تارا بجانبها. كانت يجب أن تكون سوسن. لا بأس بتارا، لكن سوسن كانت صديقتها المقربة.

سوسن. تذكرت سوسن وما حدث لها.

انفجرت تبكي فجأة، كما لو أنها كانت تحتاج إلى أي سبب لكي تبكي.

كما لو أنها كانت تريد أن تجد سوسن لكي تبكي في أحضانها.

***

بالنسبة إلى سوزان، فالإشعار الذي وصل إليها لم يكن يعني أي شيء. لم تعرف أي شيء يتعلق بالسادس أحمر. مرت عليه سريعًا دون أن تتوقف ودون أن تفتحه كما تمر عليها إشعارات كثيرة لا معنى لها ولا تربطها بها أي رابطة. سبق لها أن استلمت دعوات للانضمام إلى مجموعات خاصة بمربي الأبقار وجامعي الطوابع ومحبي السلاحف. اعتبرت سوزان أن هذه دعوة مماثلة وصلت إليها عن طريق الخطأ أو مثل كل الدعوات الجماعية التي تصل عشوائيًّا طمعًا في انضمام يزيد حجم المجموعة كيفما كان.

أكملت قراءة الملفات الخاصة باليوم. تناولت الإفطار مع حسين كالعادة. تبادلا الحديث بشكل طبيعي عن جاسمين وكامران. وضعت الطعام للكلاب في الباحة الخلفية للبيت. سقت الأزهار وشجيرات الدفلة التي يقول لها حسين إنها لا تحتاج إلى سقي يومي مباشر، لكنها تصر على مراعاتها كما لو كانت نباتات داخلية. ارتدت ثيابها ثم قادت سيارتها إلى مركز حجز المهاجرين غير الشرعيين في فيللاوود غرب سيدني. نصف ساعة لا أكثر عبر طريق هيوم السريع. كانت تقود السيارة وهي تستمع إلى محطة (نوفا) الخاصة بأغاني التسعينيات، فترتها المفضلة.

https://t.me/MktbtArab

في مركز فيللاوود تبادلت الحديث مع محامي من أصول آسيوية سبق لها أن التقته أكثر من مرة في مركز الحجز والمحكمة في نيوكاسل وآلبري.

بعد قليل جاء موكلها سعيد غني مزدهري. بينما يقترب منها فكرت مرة أخرى في التناقض الصارخ بين اسمه وقصة حياته، وتساءلت إن كان يعرف المعنى الأصلي بالعربية لاسمه الكامل، وهل يعتبر الأمر لعنة تطارده أم مفارقة حزينة ساخرة من مفارقات حياته.

بدأ يحكي لها ما سبق لها أن قرأته في ملفه ولكن هذه المرة بتفاصيل أكبر أغفلها المترجم الذي أعد الملف.

قال لها إنه عاش طيلة حياته في مدينة هراة، غرب أفغانستان، في حي حوض كرباس غرب المدينة، ولِد وكبر وتزوج هناك، أهله جاؤوا من قرية قريبة ضمن محافظة هراة، كمعظم سكان المدينة.

في عام 1997 –بعد عامين من سيطرة طالبان على المدينة- بدأت حملة التهجير التي استهدفت قبائل الهزارة في هراة. الهزارة أغلبهم شيعة، لكن التهجير استهدف السنة والشيعة على حد سواء. الهزارة ينظر إليهم نظرة دونية وكانوا يباعون ويشتَرون كعبيد حتى العقد الثالث من القرن العشرين.

(في سبتمبر 1997 جاء مقاتلو طالبان ومعهم باصات كبيرة، قالوا لنا عبر مكبرات الصوت إن لدينا نصف ساعة فقط لجمع ما نريد أخذه من منازلنا، ثم علينا أن نركب الباصات، قالوا إن من سيبقى ولن يركب في الباص سيحرَق البيت عليه. جمعنا كل ما نستطيع جمعه في دقائق، لم يكن لدينا الكثير أصلًا، لكني لم أجد أوراقي الثبوتية، بحثت في كل مكان، لكن لم أجدها، أوراق زوجتي وأولادي كانت موجودة، لكن أوراقي لم أجدها، انتهت نصف الساعة وجاء المسلحون على الباب، لم يكن هناك أي فرصة إلا أن أترك كل شيء وأغادر دون أوراقي، بعد ساعات تذكرت أني كنت قد أعطيتها إلى الملا رشيد، كان قد أخبرني أنه ربما يستطيع أن يجد لي عملًا في باكستان. كنا قد ابتعدنا عن هراة ولم يكن من الممكن النزول من الباص أصلًا، حاولت الوصول إلى ملا رشيد لاحقًا لكن لم أستطع. ما كان لدي خيار إلا أن أستخرج أوراقًا مزورة. والآن أدفع ثمن ذلك).

في مكان ما من حديثه توقف الزمن عند سوزان. لم تعد تسمع حديثه. أو أنها تسمعه لكن صدى كلمات معينة ظل يتردد في ذهنها. كانت مستغربة مما يحدث لها. سمعت قصصًا مشابهة وأسوأ بكثير مما جرى للمهاجرين

غير الشرعيين وقادهم إلى أستراليا عبر قوارب الموت، لكن شيئًا ما في قصة سعيد غني مزدهري ضغط فيها على وجع خفي. كما لو أنه قال كلمة سر لم تكن تعرف بوجودها.

وجدت نفسها تسأله: «أي لون كانت الباصات؟».

نظر إليها متعجبًا: «أي باصات؟».

قالت له كما لو أنها تتذكر شيئًا: «الباصات التي نقلتكم».

اعتقد هو أنها تريد أن تتأكد من صدق ما يقوله. قال بتردد: «لست متأكدًا تمامًا، لكن أعتقد أنها كانت خضراء».

قالت بحسم: «كانت (بيج). باصات نوع (ريم)».

بدا سعيد مصدومًا بما قالته وخشي أنه ربما أفسد شيئًا وأنها ستعتبره كاذبًا.

رفع صوته وهو يقسم بالله وبحياة أولاده وشرف نساء الأسرة إن الباص كان أخضر اللون وإنه لا يعرف النوع الذي تتحدث عنه.

هزت رأسها موافقة له وتركته يكمل حديثه بينما هي تسجل بعض الملاحظات.

لكن باص (ريم) بقي في بالها.

وهي تقود سيارتها راجعة إلى سيدني، تذكرت بشكل مزعج أن الاسم يرتبط في ذهنها بشيء آخر غير الباصات إياها. لم تكن متأكدة بماذا.

عندما فتحت هاتفها وجدت الإشعار مجددًا. السادس أحمر.

هذه المرة لم تعتبره عن طريق الخطأ.

فتحت الصورة وميزتها فورًا.

فكرت مع نفسها: كان هذا قبل أن يأتي الباص البيج نوع ريم.

https://t.me/MktbtArab

باصات ريم

وهي باصات للنقل الداخلي والخارجي جُمِّعَت من قِبل المنشأة العامة للصناعات الميكانيكية في الإسكندرية بمحافظة بابل وكانت محركاتها من صنع شركة سكانيا السويدية والهياكل من صناعة شركة إيكاروس الهنجارية وطرحت بعدة نماذج منها الصغير (22 راكبًا) وآخر كبير (44 راكبًا) وقد بدأ الإنتاج الفعلي لتلك الباصات في منتصف السبعينيات حيث غزت شوارع بغداد وبقية المحافظات، وتطور منها نموذج صار يعرَف بـ (الأزبري) أنتِج عام 1980، وقد استمرت باصات ريم في نقل المسافرين حتى انقرضت تدريجيًّا بعد عام 2003.

HTTPS://T.ME/MKTBWAR

-4-

قرابة الحادية عشرة صباحًا دخل الدكتور آلب إلى الغرفة المظلمة. وقال بصوت قوي: «صباح الخير فارس بيه».

كان وليد قد أغلق بإحكام الستائر التي سبق أن فتحتها الممرضة صباحًا. غرقت الغرفة في ظلمة دامسة وغرق هو في نوم عميق. ليس عميقًا تمامًا، فقد شعر عندما دخلت عليه ممرضتان قبل الدكتور آلب ولكنه لم يستجب لمحاولاتهما في إيقاظه.

مع الدكتور آلب الأمر مختلف. هذا زميل في النهاية. لا يريد أن يبدو أمامه بهذا المنظر.

فتح عينيه ونظر إلى الدكتور آلب وقال له: «صباح الخير دكتور».

سأله الدكتور آلب: «كيف تشعر اليوم؟».

هز وليد رأسه كما لو أنه يقول: كما ترى.

قال الدكتور آلب: «لم تحضر الاجتماع الصباحي، وقيل لي إنك رفضت النزول إلى الصالة الرياضية وحصة التدريب الفني».

رد وليد: «أريد أن أنام فقط».

قال آلب: «لم تنم جيدًا أمس؟».

- بلى. نمت جيدًا، لكنني أريد أن أنام أكثر.

- هذا النوم الإضافي هو هروب من شيء ما يا فارس بيه. لقد اتفقنا سابقًا على ذلك.

https://t.me/MktbtArab

فكر وليد: نعم هروب يا دكتور. الهروب عبر النوم أفضل من الهروب عبر شيء آخر. لكن لو توفر الشيء الآخر سأكون ممتنًا جدًّا لك.

- هل هو هروب يا فارس بيه؟

هز وليد رأسه وقال: «كما تحب يا دكتور. هو هروب آخر إن شئت».

قال آلب: «تتذكر ما قلناه عن الهروب؟ الهروب ليس سيئًا أو جيدًا بحد ذاته. المهم هو ممَّ تهرب وإلى أين؟».

- أهرب إلى النوم. لا أريد أن أرى أو أشعر أو أفكر أو أتذكر.

- هروب مؤقت إذن. لكن ممَّ تهرب؟

لم يرد.

- ماذا حدث اليوم تحديدًا؟ بين تناول الأدوية وموعد التمارين الرياضية؟

لم يرد.

- هذا هو ثاني يوم بعد أن أصبح هاتفك عندك. هل وصل إليك شيء على الهاتف وسبب هروبك؟

لم يرد ولكن عينيه قالتا نعم.

- فارس بيه، تستطيع أن تعود إلى النوم إن أحببت، لكني أشعر أنك ربما تفضِّل المواجهة والحديث عما جرى، ما رأيك أن تشرب قدحًا من الشاي وتدخن سيجارة في صالة التدخين ثم تأتي إلى مكتبي؟

لم يرد أيضًا ولكنه هز رأسه موافقًا ثم قال: «كنت أتمنى فقط أن يكون شايًا حقيقيًّا... وليس هذا الشاي الذي لا علاقة له بالشاي».

***

- جميلة الصورة. يبدو أن مدرستكم كانت خاصة؟

قال الدكتور آلب بعد أن شاهد الصورة في هاتف وليد الذي شرح له باختصار أنها صورة تخرجه في المدرسة الابتدائية.

- كانت خاصة، لكن الحكومة في تلك الفترة كانت ترفع شعارات اشتراكية وأمَّمت كل المدارس الخاصة، مع الاحتفاظ بإدارتها السابقة للحفاظ على مستواها.

- لماذا جعلتك هذه الصورة الجميلة تهرب يا فارس بيه؟

https://t.me/MktbtArab

أطرق وليد قليلًا، إصرار الدكتور آلب على وصف الصورة بالجميلة كان مستفزًّا. الصورة جميلة فعلًا، لكن هل سيخفف هذا من مشاعره تجاهها؟ ربما لو كانت أقل جمالًا، أقل أناقة، لكان الأمر أهون. فكر وليد أن آلب واعٍ تمامًا بهذا ولكنه يريد أن يسمعها منه.

- ربما لو لم تكن جميلة لما هربت. لو كانت صورة لمجموعة أطفال تعساء في مدرسة مهملة لما وجدت سببًا للهرب. لكن صورة التخرج هذه جميلة، هذه مشكلتها.

- ما هي مشكلتها بالضبط فارس بيه؟ إنها جميلة وإنكم جميعًا ترتدون ملابس أنيقة وراقية!

- ليس بالضبط. لا أعتقد.

- إذن؟

- التوقعات.

- التوقعات؟

- نعم، كل صورة تخرج فيها توقعات، نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة. والتوقعات في الصور الجميلة تكون عالية، على العكس من التوقعات في صور تخرج يبدو عليها الإهمال والعوز.

- إذن لو كانت صورة سيئة لما هربت؟

- ربما كنت هربت أيضًا، ولكنها ستكون أكثر اتساقًا مع ما حدث لاحقًا.

- ماذا حدث لاحقًا؟

- وصلت إلى هنا يا دكتور. إلى المصحة النفسية.

- لو أنك رأيت الصورة قبل عشر سنوات، هل كنت ستهرب أيضًا؟

- ربما لا. لكنها ستكون محزنة أيضًا. ربما حزن مغلف بالسوليفان وورق الهدايا.

- إذن قبل عشر سنوات، كان حزنك دفينًا، لم يكن أحد يراه، بل كانت هناك مظاهر مختلفة تغطيه للمراقب من الخارج؟

- نعم بالضبط. قبل عشر سنوات أو أقل.

- متى بدأ الأمر بالتغير فارس بيه؟

https://t.me/MktbtArab

- لا أستطيع تحديد وقت محدد. أعتقد حدث الأمر بالتدريج. تراكم الحزن حتى طفح إلى الخارج. ربما لو كنت واجهته مبكرًا، عندما كان دفينًا، ما كان سيتراكم إلى أن يطفح.

- لا فائدة من هذا الآن. ما حدث حدث. نحن الآن أمام هذه الصورة وأنت تهرب منها. قل لي فارس بيه، ماذا تريد أن تقول للطفل الذي كنته في هذه الصورة؟

- هذا ما أهرب منه دكتور.

- لماذا فارس بيه؟ هل يمكن أن تحدد السبب؟

- هذا الذي في الصورة كان موضع توقعات عالية. أنه سيكون الأول على العراق. أنه سيكون المتفوق الأول. كانت الأمهات يتمنين أن يصبح أولادهن مثله. انظر إليه الآن... في مصحة نفسية تنظر الممرضة في فمه لتتأكد من أنه ابتلع أدويته ولم يخزنها لينتحر بها لاحقًا.

- أنت تبالغ في موضوع الأدوية فارس بيه. هذا مجرد بروتوكول عام وأنت لست مقصودًا به على نحو شخصي.

- أنا في مصحة يا دكتور. وهذا الذي في الصورة كانت تُتوقَّع له أي نهاية غير هذه النهاية.

- هذه ليست النهاية يا فارس بيه.

- كما تحب يا دكتور. في هذه اللحظة هي النهاية. ربما بعد سنة تكون هناك نهاية أخرى. ربما أفضل أو أسوأ. لكن الآن هي النهاية.

- ما رأيك يا فارس بيه أن تكتب رسالة له؟

- رسالة لمن؟

- رسالة للطفل الذي في الصورة.

بدا الاقتراح صادمًا لوليد.

سكت للحظات كما لو أنه يفكر في الأمر.

- أقول له ماذا؟

- قل له أي شيء. لو رجعت الآن إلى غرفتك ووجدته هناك ماذا ستقول له؟

- لا أريد أن أقول له أي شيء... أنا أهرب منه أصلًا يا دكتور.

https://t.me/MktbtArab

- ولهذا تحديدًا أريدك أن تكتب له رسالة. اشرح له لماذا تريد الهرب منه... أو اشرح لنفسك.

***

عزيزي وليد

أنا آسف جدًا. لا أعرف طريقة اعتذار كافية لك. لقد خذلتك كما خذلت الجميع. لن تفهم ذلك الآن. أنا قادم من المستقبل، لقد رأيت كل شيء، وأقول لك بوضوح: أنا سأكون أكبر هزائمك. أنا سأكون أكثر شخص خذلك في حياتك. لا أملك -ولا تملك- أن تلوم أحدًا غيري للأسف. حاولت أن أصب اللوم على الغير لفترات من حياتي، لكن وفر ذلك لو استطعت.

في صورة التخرج هذه، تبدو الحياة لك زاهية حتى بتحدياتها، ستتخرج بالمرتبة الأولى، وتذهب إلى كلية بغداد، ستدرس كثيرًا وتحاول أن تكون الأول على العراق كما فعل والدك، ثم تدخل كلية الطب، جامعة بغداد تحديدًا، وتحاول أن تتخرج لتكون الأول أيضًا، كما فعل والدك، ثم تذهب لتتخصص في المملكة المتحدة، جراحة الدماغ، كما فعل والدك. هذه هي التحديات المرسومة في الخطة الموضوعة لك من قِبل أسرتك. لم يخبرك أحد بها. لم يستشرك أحد فيها. بل زرعت في دماغك قبل أن تفهمها. حقِنت بها في العضل ثلاث مرات في اليوم إلى أن أصبحت جزءًا منك. أصبحت أحلامك وطموحاتك. أصبحت أنت.

لو كان لديك شقيق ذكر، لتناصف معك الحِمل. لكنك الذكر بعد ثلاث إناث، يستطعن أن يكن متفوقات ويدخلن كلية الطب أو طب الأسنان في أسوأ الأحوال، لكن أنت من عليه أن يحمل الراية. أنت من عليه أن يكمل بناء المجد العائلي ويحافظ عليه. جدك كان أول وزير صحة في العهد الملكي. أول من بنى المستشفيات المتخصصة في العراق. لكن السياسة دربها وعر وخطر. ابنه سيتخذ طريقًا مختلفًا. الطب. التفوق فيه. التخصص النادر والجرأة فيه. ثم تأتي أنت. والدك سيسلم لك الراية. التوقعات ثقيلة، لكنك تبدو قادرًا على تحملها، كل معلماتك في المدرسة يشهدن لك بذلك منذ الصف الأول. صدقت أنت ما شهدن به. لم تضع في بالك مبالغاتهن، ولا مجاملاتهن لوالدتك المهتمة جدًا بسماع ما يقلن، ولا أنك جئت بعد ثلاث شقيقات متفوقات في

المدرسة نفسها وأحيانًا مررن على المعلمات نفسهن، وأن كل تلك الشهادات يمكن أن تكون مجرد جزء من العلاقات الاجتماعية والمجاملات المقبولة لا أكثر ولا أقل.

لم تكن تعي، ولا حتى أسرتك كانت تعي أن التوقعات تحتاج إلى تحقيقها أكثر بكثير من مجرد التفوق والاجتهاد في الدراسة.

تحتاج إلى الصلابة، المرونة، القوة من الداخل، اللامبالاة، التركيز على هدف واحد بحساسية قليلة تجاه أي هدف آخر.

كل ذلك لم يكن في الخطة المرسومة.

ولا في إرثك الجيني، للأسف.

على أي حال، بعد أيام فقط من هذه الصورة، سيحدث ما يجعل كل شيء يتغير.

بعد سبعة أيام تحديدًا يا عزيزي وليد.

هذه الصورة هي آخر صورة في العالم زاهي الألوان، ذي الخطة المرسومة بوضوح.

في 19 نيسان من هذا العام سيحدث ما يجعل العالم حولك يبدأ بالانهيار.

ثم يكتمل ذلك بعد ثلاثة أشهر.

أنا آسف جدًّا يا وليد. لكن لا يمكن لوم أحد على ما سيحدث في العالم.

في عالمك تحديدًا.

https://t.me/MktbtArab

-5-

على مجموعة الفيس بوك بدا الموقف للحظات الأولى محرجًا. كما لو أن الأشخاص السبعة وجدوا أنفسهم فجأة في مكانٍ واحد دون سابق إنذار.

كان يعرب عبد الحميد هو أول من قبل دعوة الانضمام إلى المجموعة. دخلها فوجد نفسه وحيدًا إلا من مؤسس المجموعة الذي أسمى نفسه «السادس أحمر».

المجموعة كانت خالية من المنشورات. فقط صورة التخرج التي وضِعت كخلفية للمجموعة. وضع أول علامة إعجاب.

بعد لحظات قبل سرمد صلاح الدين دعوة الانضمام ووجد يعرب أن اسم سرمد قد أضيف للمجموعة.

شعر كل منهما بالحرج. لم تكن علاقتهما مقطوعة تمامًا، لكنهما شقا طريقًا مختلفًا بعد الابتدائية، حيث ذهب يعرب إلى إعدادية المنصور، وذهب سرمد إلى ثانوية كلية بغداد. واستمر الطريق بالابتعاد في الجامعة، تلاقيا بشكل عابر في مناسبات متفرقة، وكان لديهما الكثير من الأصدقاء المشتركين في كل مرحلة، ويعرفان أخبار بعضهما بعضًا، إلى أن سافر سرمد في أوائل التسعينيات إلى الولايات المتحدة، بينما استقر يعرب في عمّان ولم يترك العراق بشكل نهائي.

يعرب أرسل طلب صداقة إلى سرمد منذ أن وجده على الفيس بوك منذ أكثر من عشر سنوات. تقريبًا منذ انتشار الفيس بوك. سرمد قبل الإضافة بعد مدة. شكره يعرب على قبول الطلب في رسالة، ورد سرمد بمجاملة مقتضبة.

https://t.me/MktbtArab

حاول يعرب أن يفتح الحوار فسأل سرمد إن كان قد تزوج وأين هو الآن، فجاءه الرد بكلمتين فقط: «نعم، ميشيجان». هذا كل شيء. وكانت هذه إشارة واضحة أن سرمد لا يرغب في التواصل، وهو ما لا يفهمه شخص مثل يعرب أبدًا، اجتماعي ومنفتح جدًّا ويتعامل مع الجميع كما لو أنهم أعز أصدقائه حتى لو كان قد تعرف إليهم للتو.

لم يكف يعرب عن المحاولة مع سرمد ولكن في إطار المجاملات المقبولة، عندما يضع سرمد صورة جديدة (ونادرًا ما يفعل) كان يعرب يعلق التعليقات المعتادة المجاملة مثل «منور» أو «ما شاء الله، العمر لم يترك أثرًا»، وكان سرمد يضع علامة إعجاب فقط على التعليق دون أن يرد بتعليق ودون أن يفعل الشيء ذاته مع صور يعرب الجديدة. الأمر ذاته كان يتكرر مع ميلاد سرمد. الفيس بوك يذكّر يعرب بميلاد سرمد في السادس من كانون الثاني (الموافق ليوم الجيش العراقي)، ويعرب يرسل تهنئة لسرمد، والأخير يرد بإبهام مرفوعة باردة. وعندما يذكّر الفيسبوك بميلاد يعرب (في السادس عشر من تموز) فإن سرمد لم يكن يرسل أي تهنئة.

كان يعرب يفسر الأمر ببساطة أن سرمد (عقله صغير) وأنه لم يتخرج في الابتدائية لحد الآن، وأن تنافسهما على اهتمام ياسمين علي، ومجموعة تنافسات صغيرة أخرى (الكرة الكريكر الأصلية التي حصل عليها يعرب قبل سرمد، أفلام الفيديو، مجلات كرة القدم الرائجة آنذاك مثل شوت) لا تزال تؤثر فيه حتى اليوم.

***

ما لم يعرفه يعرب، ولم يعِه سرمد أيضًا، أن كل تلك التنافسات الصغيرة بين الاثنين كان لها محركها الكبير الذي يفوق قدرتهما على الفهم والوعي آنذاك. ما كان يبدو أنه مجرد تنافس أقران في الابتدائية على اهتمام فتاة أو حيازة كرة، كان له جذور اجتماعية قوية يعبر عن حراك يحدث في المجتمع آنذاك. هل هو حراك جيد أم سيئ؟ يعتمد على موقعك مما يحدث، وإن كانت النهايات قد وضعت لاحقًا تصنيفها الحاسم على نحو يصعب مناقشته.

كان سرمد صلاح الدين ينتمي إلى أسرة معروفة انتقلت من العمل مع الإدارة العثمانية إلى تأسيس الدولة العراقية في العهد الملكي وبالتعاون مع البريطانيين بطبيعة الحال. وكان هذا من الجانبين، والده ووالدته، فهذه

https://t.me/MktbtArab

العوائل التي كان لها شأن في العهد العثماني، أغلقت الباب على النادي الاجتماعي الخاص بها، وبخاصة من ناحية التزاوج والمصاهرة، عوائل الإدارة العثمانية –التي استخدمها البريطانيون في بناء الدولة العراقية الحديثة- تتزاوج من العوائل نفسها حصرًا. أو من عوائل سبق لها التصاهر مع عوائل منتمية إلى النادي نفسه.

جد سرمد لأبيه كان ضابطًا في الجيش العثماني وشارك في حرب البلقان في عامَي 1912 و1913، وأدرك تمامًا أن الدولة العثمانية تعيش أيامها الأخيرة وأن القوميات التي استعرت في البلقان لا بد أن يكون لها مثيل عند العرب فانضم للثورة العربية مع الشريف حسين ضد الحكم العثماني، ومن ثم ساهم في تأسيس الجيش العراقي. ورغم أنه لم يدخل غمار السياسة في العهد الملكي فإنه كان وجهًا معروفًا ومحترمًا في هذا العهد.

أما جد سرمد لأمه فقد درس الحقوق في إسطنبول وعمل في السراي العثماني في كل من الموصل وبغداد وحلب وكان مديرًا لمكتب خليل باشا آخر والٍ عثماني على بغداد، ثم أصبح وزيرًا للعدلية عدة مرات في العهد الملكي.

ورغم أن هذه المناصب لم تكن تشكل ثراءً حقيقيًا، فإنها شكلت مدخلًا للحصول على أراضٍ زراعية عبر قوانين سهلت الحصول على حق التصرف بهذه الأراضي عبر استثمارها دون تملكها بالمطلق. وكان من نتيجة هذا الأمر حصول عائلة سرمد –من الجهتين- على أراضٍ زراعية واسعة جنوب بغداد. هذه المناصب، وما لحقها من امتيازات، وضعت الأسرتين في الطبقة العليا في المجتمع لعدة عقود.

ثم جاء الانقلاب العسكري في تموز عام 1958 –أو ثورة 14 تموز المباركة، حسب موقع المتحدث مما يحدث- وأطاح بالعهد الملكي وصولًا إلى السحل والتمثيل بجثث بعض رموزه، وكان من نتائج هذا الانقلاب- الثورة إزاحة العوائل البارزة في العهد الملكي من المشهد، أحيانًا عبر المحاكمات والسجن، وأحيانًا عبر مجرد الإقصاء، وأصبح كل شيء يتعلق بذلك العهد يعتبر بائدًا، بعد أن أصبح العهد الملكي يسمى عهدًا بائدًا، وكان من نتائج ذلك أيضًا أن فقدت تلك العوائل أكثر أراضيها عبر قوانين الإصلاح الزراعي المتلاحقة، التي كان والد سرمد يسميها قوانين «التخريب الزراعي». بينما فقدت هذه العوائل موقعها «الأعلى» في المجتمع لصالح طبقة جديدة،

https://t.me/MktbtArab

نزلت هي إلى «الطبقة الوسطى»، محاوِلة التشبث بالجزء العلوي من هذه الطبقة. ولهذا تحولت إلى تقديس مهن الطبقة الوسطى الأكثر ضمانًا. الطب والهندسة، وفي حالة سرمد، الطب حصريًا.

بالنسبة إلى سرمد، كان يعرب يمثل كل ما حدث لأسرتيه بعد انقلاب 1958. صحيح أنه حدثت عدة انقلابات على الانقلابيين، لكنها كلها اتفقت على محاربة كل ما يتعلق بالعهد البائد. كل تصرف كان يتصرفه يعرب كان يفسَّر من قِبل سرمد فورًا أنه تصرف محدث نعمة أو «نوفوريش» -كما كانت والدته تقول- وهكذا فأي شيء جديد كان يحصل عليه يعرب (كرة الكريكر مثلًا أو مجلة ماتش أو جهاز الفيديو كاسيت) كان يعتبر تعويضًا عن الشعور بالنقص الذي لا بد أن يعرب يشعر به نتيجة لتواضع أصوله. بينما التصرف نفسه كان يعد طبيعيًا تمامًا لو سلكه سرمد نفسه.

كل هذا كان خارج مشاعر يعرب ودوافعه. لم يكن يعرف أي شيء عن تاريخ أسرة سرمد ولم يكن يعنيه الأمر، وكان جده لأبيه مديرًا لمدرسة ابتدائية، أي أنه كان متعلمًا وابن مدينة ويرتدي بدلة ولم يكن فلاحًا أو حافيًا لكي ينطبق عليه «تصنيف» سرمد الطبقي، أكثر من هذا، كان يعرب خاليًا من العقد في طفولته -أو على الأقل هذا ما كان يبدو- كان يعرف تمامًا أن جده لم يكن ثريًا وأنه لم يورِّث والده سوى التعليم وجزء من بيت قديم في الكرخ، لكن بطل طفولته لم يكن الأجداد وتاريخ الأسرة كما كان الأمر مع سرمد، بل كان والده المناضل الذي وقف ضد حكم عبد الكريم قاسم وتحمل السجن والتعذيب والهروب. قصص النضال والمظاهرات والمطاردات كانت قصص طفولته الأجمل بكثير من سلسلة مغامرات سندباد التي بدأ التلفزيون بثها عام 1979، وكان والده يعيدها له مرارًا وتكرارًا حتى اختلطت بذاكرته وصار يعتقد أنه عاشها فعلًا.

كان يعرب بسيطًا وودودًا، الحياة -حتى تلك اللحظة- كانت مغامرة انتصر فيها والده على الأشرار (الشيوعيين و«الرجعيين» في جملة واحدة، لم يكن يعرب يعرف معنى «الرجعيين» وبقي لا يعرف معناها)، ولم يكن يحمل أي مشاعر سلبية ضد سرمد أو سواه، على العكس، كان معجبًا بأناقة سرمد وحسن هندامه.

لم تكن المشاعر متبادلة. كان سرمد يكره «أبناء المسؤولين» بكل أحوالهم وتصرفاتهم حتى لو لم يبدر منهم شيء سلبي. وكانت المدرسة تضم الكثير

https://t.me/MktbtArab

منهم، والكثير من هذا الكثير كان يتصرف بطريقة تؤكد أحكام سرمد السابقة تجاههم. اختلاف يعرب السلوكي لم يمنحه الحصانة من مشاعر سرمد.

احتفظ سرمد بمشاعره ضد يعرب كواحد من «أبناء المسؤولين»، حتى بعد أن لم يعد كذلك. الأحكام عند سرمد دومًا قطعية وحاسمة وغير قابلة للاستئناف أو التمييز. أبيض أو أسود دون منطقة وسطى، وبالتدريج أصبح الأسود هو الغالب في أحكامه.

كان وجودهما منفردين في المجموعة محرجًا لكليهما. يعرب لم يعد يرغب في الاستمرار في مجاملة سرمد دون مقابل، وسرمد لم يكن مهتمًّا بذلك من الأساس. دافعه الأساسي لدخول المجموعة كان الفضول لمعرفة كيف أصبح شكل زميلات الابتدائية.

مجزرة قصر الرحاب

في صبيحة الرابع عشر من تموز عام 1958 سيطرت قوة عسكرية ممن عُرِفوا لاحقًا بالضباط الأحرار على نقاط حيوية مهمة في العاصمة بغداد، وذلك بهدف إسقاط الحكم الملكي في العراق وسط تصاعد المشاعر القومية عقب إعلان الجمهورية العربية المتحدة كدولة اتحاد بين سوريا ومصر في مطلع العام ذاته. كان عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف هما الاسمان الأكثر أهمية في تنظيم الضباط الأحرار.

ضمن هذه الخطة، كانت هناك أوامر بمحاصرة قصر الرحاب الذي تسكن فيه العائلة المالكة لغرض تحييدهم من أي دور يحبِط المخطط. في أثناء خروج أفراد العائلة المالكة من مدخل القصر نحو الحديقة وهم يرفعون المناديل البيضاء إشارة إلى استسلامهم، أطلق الرائد عبد الستار سبع العبوسي النار عليهم وقتلهم جميعًا باستثناء الأميرة هيام زوجة الوصي عبد الإله التي أُصيبت وتمكنت من الفرار لاحقًا.

قتِل في هذه الواقعة الملك فيصل الثاني وخاله الوصي عبد الإله وجدته الملكة نفيسة وخالته الأميرة عابدية، حاول رئيس الوزراء نوري السعيد الفرار ولكن أُلقي القبض عليه وقُتل في الأيام التالية.

ليس واضحًا حتى الآن إن كان هناك قرار مبيت سري عند قادة الانقلاب بقتل جميع أفراد العائلة المالكة، وتحديدًا النساء والملك فيصل الثاني، فهناك شبه إجماع بعدم وجود أوامر بذلك وعدم استخدام القوة إلا في حالة

https://t.me/MktbtArab

المقاومة أسوة بالنموذج المصري في يوليو 1952، كذلك فإن الرائد عبد الستار العبوسي لم يكن مُنتميًا إلى تنظيم الضباط الأحرار ولم يكن من القوة المهاجمة للقصر، بل التحق بها بعد الإعلان عن محاصرة القصر في الإذاعة. لكن في الوقت ذاته لم يُفتح تحقيق رسمي في الأمر ولم يحاسَب المسؤول عن المجزرة، الذي انتحر عام 1970 وهو برتبة عقيد.

تحول قصر الرحاب إلى معتقل تابع للمخابرات وأصبح يعرَف بقصر النهاية بسبب الفظائع التي تحدث فيه، أي إن الذاهب إليه ذاهب إلى نهايته حتمًا.

في الثمانينيات، وبعد قرابة عقدين ونصف من المجزرة، بدأ بعض الاعتبار يعود إلى الأسرة المالكة والعهد الملكي بدافع من تحسن العلاقات مع الملك حسين ملك الأردن الذي كان الملك فيصل الثاني ابن عم مباشرًا له، كذلك تغير المزاج الشعبي العام تجاه الحكم الملكي بعد أن ذاق الكثير من مساوئ الحكم الجمهوري. لا تزال هناك مشاعر حنين للعودة إلى الحكم الملكي، ولكن هذه المشاعر مبنية بقوة مساوئ العهود اللاحقة بشكل أساسي. لم يكن العهد الملكي خيرًا مطلقًا، لكن المقارنة تكاد تجعله كذلك.

***

كتب يعرب تعليقًا على الصورة: أجمل أيام. وأجمل مدرسة. لعن الله كل من خرب العراق.

قرأ سرمد التعليق وكان على وشك أن يكتب له: ألم تشاركوا في ذلك؟ ثم أحجم عن ذلك. لو كان في جلسة واحدة مع يعرب وقال يعرب تعليقًا مثل هذا لرد عليه فورًا. لكنه لم يرغب في أن تفتتح المجموعة تعليقاتها بمعركة وجدل لا ينتهي حول (توقيت) البدء بخراب العراق.

البعض يؤمن تمامًا أن الأمر بدأ من انقلاب 1958، آخرون يرون أنه انقلاب شباط 1963 عندما أزيح عبد الكريم قاسم، آخرون يعتقدون أنه العام الذي التقِطت فيه الصورة 1979، بينما سيصوت كثيرون، ولو بأثر رجعي، على أنه عام 2003.

سرمد عاش طيلة حياته وهو يعتقد أن الخراب بدأ من انقلاب تموز، هكذا كان يؤمن والده ويتحدث عن ذلك ليل نهار، مع الوقت أصبح يؤمن أن الأمر أقدم، وأنه ربما بدأ مع سقوط بغداد في يد المغول، أو أن الانهيار المستمر

https://t.me/MktbtArab

جزء من قدر العراق. أحد الأولياء ربما دعا على العراق وأهله. هكذا أصبح يكرر كلما رأى واحدًا من الساسة الجدد في الأخبار. أحدهم دعوته كانت مستجابة جدًّا. كان يقول ذلك.

اكتفى سرمد بوضع علامة إعجاب على الصورة، وعلى تعليق يعرب عليها.

انتبه سرمد فجأة إلى أن عدد المنضمين إلى المجموعة قد زاد.

ظهر اسم ريم مظفر في قائمة المنتمين إلى المجموعة.

انتبهت ريم فورًا إلى اسمَي يعرب وسرمد في المجموعة. لم تكن بحاجة إلى تذكير بهما. يعرب عبد الحميد جبارة. يا للدنيا الصغيرة! كانت والدتها صديقة لوالدته في مرحلة دراسية ما. وبقيت كذلك لفترة. تظن ريم أن والدتها كانت تتمنى -أو تخطط- أن تزوجهما. إلى أن حدث ما حدث. منذ عقود لم تسمع بشيء عن يعرب. شقيقته رشا دخلت طب الأسنان بعد دخولها بسنتين. كانت لطيفة للغاية. سمعت أنها تزوجت في لندن.

سرمد قصة أخرى. كان غريمها في المدرسة. واكتشفت عند دخولها الجامعة أنه بقي يعتبر نفسه كذلك. كانت قد نسيت الأمر تمامًا. لكنه وقف أمامها في ساحة كلية طب الأسنان أول مرة شاهدها وقال لها: «فزت عليك يا ريم». كان يقصد أنه قبِل في كلية الطب بينما هي قبِلت في طب الأسنان مفترضًا أن معدلها كان أقل بحيث لا يتيح لها أن تدخل الطب. عندما قال لها ذلك رأته فورًا كما لو كان الطفل ذاته في الابتدائية، تجرد فورًا من شاربيه وأصبح أقصر ورجع بملامح طفولية. لكن لم يكن ذلك كل شيء. لم يفتها أن تلقنه درسًا. قالت له: «كم معدلك يا سرمد؟». قال بفخر: «95%». ردت عليه بفخر أكبر: «97%». صعِق هو وتلعثم وغير الموضوع. طفل بشاربين. لعله لا يزال كذلك.

زاد اسم آخر إلى القائمة. هذه المرة تارا عبد القادر.

أسرعت ريم إلى طلب إضافتها. قبلت تارا فورًا.

قررت ريم أن ترسل رسالة خاصة لتارا عبر الماسنجر، لكنها أجلت ذلك إلى فترة الغداء بعد أن تنهي جدولها الصباحي في العيادة. التقت مريضها الأول لهذا الصباح. مريض جديد هذه زيارته الأولى لها. خطته العلاجية لتقويم أسنانه قد تستغرق أكثر من عامين. فكرت أنها ربما لن تكون موجودة عندما تنتهي الخطة. فكرت في كل مريض في الجدول تباعًا. هناك منهم من سيكمل

https://t.me/MktbtArab

علاجه ضمن جدولها هي. جدول البقاء على الحياة. فكرت في ذلك ثم استدركت أن الأعمار بيد الله على أي حال. قد تموت قبل ذلك، وقد تكمل علاج كل المرضى.

***

عندما انتهت من المواعيد الصباحية وجدت ريم رسالة من تارا. رسالة مجاملات رقيقة وقلوب حمراء. بادلتها بالمثل.

سألتها تارا: كيف أنت يا ريم؟ أنت دخلت أسنان صحيح؟ معلوماتك على الفيس بوك تقول إنك في أمريكا الآن.

ردت ريم: نعم أسنان، في كاليفورنيا منذ 1997.

فكرت في سؤال تارا: (كيف أنت؟).

كتبت: بخير الحمد لله. بعد تردد قصير.

قالت لها تارا إنها في السويد من 1992، وإنها تعمل أستاذة في جامعة أبسالا.

سألتها ريم بالطريقة العراقية في السؤال عن الأولاد: ماذا عندك؟

كتبت تارا: عندي نوزاد فقط، سيتم ثلاثين عامًا بعد شهرين.

كتبت ريم: عندي ديانا وعمر. ديانا سبعة وعشرون وعمر خمسة وعشرون. ديانا طبيبة أسنان، وعمر في السنة النهائية من الطب.

ترددت تارا. أرادت أن تكتب شيئًا عن نوزاد ثم أحجمت.

كتبت بدلًا عن ذلك: جميل. أبوهما في المجال الطبي أيضًا؟

ترددت ريم. أرادت أن تكتب: نعم. دريد طبيب. انفصلنا منذ أكثر من عشر سنوات. عندي أيضًا سرطان للمرة الثانية. هذه المرة مرحلة رابعة. سأموت خلال عامين على الأكثر.

كتبت: نعم. والدهما جراح عظام.

رغبت تارا في أن تغير الموضوع، سألت: ماذا كان اسم معاونة المس مبارك؟ حاولت التذكر ولم أستطع.

كتبت ريم: الست محاسن. كانت لطيفة ورقيقة ومهذبة. رحمها الله.

أرسلت تارا قلبًا باكيًا وكتبت: ماتت؟ ثم فكرت مع نفسها: غريب هو استغرابي لوفاة من كان في سن الخمسين في طفولتي. ماذا يفترض أن يحدث له؟

بعد صمت قصير أرسلت ريم صورة شاشة.

انتقلت إلى الأخدار السماوية مربية الأجيال والمدرسة الفاضلة الست محاسن فتح الله قندلا (معاونة مدرسة المنصور التأسيسية سابقًا) إثر مرض عضال في مدينة ديترويت وهي شقيقة المرحوم السيد فاضل قندلا زوج السيدة لمياء مطلوب وشقيقة الدكتورة هند قندلا زوجة الدكتور سمير يونان وعمة السيد يوسف قندلا وخالة كل من الدكتور دريد والدكتورة ريما يونان.

تقبل التعازي عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي نظرًا للظروف الحالية لفايروس كورونا.

الراحة الأبدية أعطها يا رب ونورك الدائم يشرق عليها.

أرسلت تارا قلبًا باكيًا آخر، ثم علقت: لم أكن أعرف أنها مسيحية.

كتبت ريم: ولا أنا. إلى أن عرفت أنها خالة ريما. كانت معي في الأسنان، بعدي بأربع دورات. تلك الأيام، لم نكن نفرق فعلًا بين مسيحي ومسلم وسني وشيعي. انظري إلى أين وصلنا الآن.

لم تستطع تارا أن تمرر الجملة دون تعليق.

كتبت: كانت هناك أمور أخرى تفرق بيننا. لكنكم لم تكونوا تعرفون ذلك.

جفلت ريم من اللهجة. ضمير المخاطب في جملة تارا جعلها باردة وعدائية. جعل الأمر بين (نحن) و(أنتم). لا تذكر أنها كانت كذلك. لكنها لم تعرفها منذ أكثر من أربعين عامًا.

كتبت موافقة لتغلق الموضوع: مؤكد حبيبتي، كنا صغارًا.

وكانت تعني ما تقول.

وضعت تارا قلبًا على تعليق ريم.

ثم اتفقا على التواصل القريب.

قبل أن تغادر تارا المحاورة سألت: صحيح، ما أخبار ياسمين؟

كتبت ريم: ياسمين؟!

كررت تارا: نعم، ياسمين. ياسمين علي على ما أذكر. الفتاة الجميلة الشقراء.

أرسلت ريم وجهًا مصدومًا.

ثم كتبت: لا تعرفين؟

https://t.me/MktbtArab

-6-

استيقظت تارا على منام مزعج.

كانوا يقفون جميعًا -طلاب السادس أحمر، ولكن هي بعمرها الحالي- أمام كاميرا المصور هرمز، فجأة تشب النيران من كل مكان وتبدأ بالاقتراب منهم، تهرب ويهربون، تنتبه إلى أن الهاربين معها بعضهم ليسوا من طلاب السادس أحمر، بل من أشخاص عرفتهم لاحقًا في حياتها، كان الحلم خلاطًا جمع أشخاصًا من كل مكان مرت به من بغداد إلى أبسالا مرورًا بأربيل وعمان وستوكهولم ومالمو.

شربت من قدح الماء الموضوع بجانبها كما لو أنها تريد أن تطفئ النار في الحلم. كانت قد أوت إلى فراشها مثقلة بمحاورتها مع ريم. فكرت أن المحاورة لا بد أن تكون سبب هذا الكابوس.

فتحت الصورة في هاتفها وأخذت تتأمل فيها مجددًا. تنحنح سالار وتقلب في فراشه كما لو أنه يعترض على سلوكها هذا لأنها طالما كانت تؤنبه على فتح هاتفه قبل النوم. لا يهم. فليتنحنح كما يريد. منذ سنوات وهي ملتزمة بذلك، يحق لها أن تخترق القوانين بين الحين والآخر. وبخاصة أنها هي من وضعتها.

كانت تريد أن تنسى بعض التفاصيل التي قيلت. تعاملت دومًا مع ما يؤلمها بهذه الطريقة. تنسى الأمر بطريقة واعية وشبه إرادية. تقرر أن هذه الحقائق مؤلمة فتقرر تجاهلها. لم يكن الأمر دومًا كذلك. بدأ الأمر بطريقة دفاعية لا واعية، منذ طفولتها، بدأت تهرب إلى النسيان للتخلص من الألم، مع الوقت أصبح النسيان طريقتها المفضلة في المواجهة دون أن تفهم ذلك. ثم شرح لها

https://t.me/MktbtArab

معالجها النفسي ما حدث معها وسبب حالات الأرق ونوبات القلق التي كانت تنتابها. كانت؟ بل التي لا تزال تنتابها حقيقة، رغم أنها أصبحت أقل، غالبًا بفضل الأدوية، وليس بفضل ثرثرة معالجها، أو سماعه لثرثرتها. لكن ما شرحه لها عن «قمع الذكريات» أعجبها وشد اهتمامها. عاشت عمرها وهي تعاني القمع وتحاربه، ثم اكتشفت أنها تمارسه على نفسها وذكرياتها، ثم انتبهت إلى محاسن القمع في حالتها. لا مشكلة مع قليل من الأرق والقلق الغامض إذا كان يغني عن مواجهات مؤلمة. حبوب المنوم متوفرة، وحبوب مضادات القلق كذلك.

نامت وهي تفكر فيما قالته ريم وهي واعية أن قمعها لذاكرتها قد حذف أشياء مما قالته ريم. لا تعرف ما هي. لكنها تعي أن شيئًا ما قالته قد حذِف. ثم استيقظت على النيران في حلمها. كما لو أن لا وعيها يعترض على القمع الذي تعرضت له الذاكرة.

لم تستطع العودة إلى النوم، قامت لتأخذ حبة تساعدها على النوم. قسمتها قسمين وأخذت نصف حبة. عليها أن تنهض قبل الثامنة. فكرت أن تسمع أو تشاهد شيئًا بينما تأخذ الحبة مفعولها. في ليالٍ مؤرقة كهذه أصبحت تتمنى لو أنها كانت مؤمنة مثل أولئك المؤمنين الذين يحلون مشكلاتهم مع الأرق بقراءة سورة من القرآن. تفكر أحيانًا أن تستعيد شيئًا مما حفظته في المدرسة لكي تستخدمه كمنوم، لكنها تعرف أن الموضوع أعقد بكثير من هذا. بينما رضعت هي الإلحاد من والديها الشيوعيين، رضع الآخرون الإيمان. بالنسبة إليها الإلحاد هو كل ما تؤمن به. إلحاد حاسم وقاطع ونهائي. لا إله. نقطة انتهى. قضت معظم حياتها وهي لا تشعر بحاجة إلى وجود إله. ليس له وجود أكثر من وجود إشارة له في بعض الألفاظ المتداولة. حتى مع هذه الألفاظ كانت تشعر بمشكلة عندما تستخدم عبارات اجتماعية فيها إشارة إلى (الله)، مثل: إن شاء الله، أو الحمد لله أو ما شاء الله. تستخدمها مضطرة في المجاملات ولا تستخدمها مطلقًا داخل البيت أو مع أسرتها.

عاشت حياتها مطمئنة إلى إلحادها، في السنوات الأخيرة من حياتها غادرتها هذه الطمأنينة. لم تمل إلى الإيمان بدين محدد قطعًا. لكنها بدأت تفهم لماذا هو مهم للبعض. على الأقل بدأت تشعر بالفضول كيف يكون الأمر لو كانت تشعر بوجود إله لديه أجوبة عن أسئلتها. منذ أن بدأ نوزاد يكبر وهي لا تستطيع أن تتهرب من أسئلة لا جواب لها في الأجوبة التي رضعتها مع الإلحاد.

https://t.me/MktbtArab

فكرت أن المنام المزعج كان بسبب إشارة ريم إلى ولديها، واحدة تخرجت في طب الأسنان، والآخر سيتخرج في الطب. قالت كما لو أنها تتوقع أن يكون ردها: نوزاد مهندس معماري.

قبضت على نفسها متلبسة بهذه الأمنية. أن يكون نوزاد مهندسًا أو طبيبًا.

تذكرت شرح والدها عن هوس الطبقات البورجوازية بمهن الطب والهندسة، وكيف أن المجتمع العراقي رغم كل الشعارات الاشتراكية التقدمية في فترة السبعينيات فإنه كان بورجوازيًا جدًّا في خطوات تطوره لأن الاشتراكية كانت مجرد شعارات يستخدمها البعثيون الذين لم يكونوا «يساريين» حقًّا حسب تصوره. كم هو سهل الهجوم على البورجوازية وخياراتها عندما يكون لديك شهادة دكتوراه ومنصب أستاذ جامعي وبيت بنيته على قطعة أرض منحتها لك الدولة عدا إرثك من أسرتك الإقطاعية.

سيغفر لها والدها لو عرف بتعاطفها مع الطموحات البورجوازية. لكن ماذا عن خطيئتها الأكبر: تصويتها لحزب يميني عنصري؟ كان سيقاطعها لو كان حيًّا. أو ربما يموت كمدًا. قبل أن يموت، كان قد نسي تمامًا أن الاتحاد السوفياتي قد انهار وأن جدار برلين قد سقط. تقريبًا كان يعتقد أن جيفارا لا يزال على قيد الحياة. هل ورثت قمع الذاكرة منه؟

تمنت لو أنها كانت أكثر انفتاحًا مع ريم في الحديث عن نوزاد.

عاتبت نفسها بحدة. لماذا دخلت المجموعة؟ لماذا وضعت نوزاد في هذه المقارنة مع أولاد ريم؟ طب وطب أسنان. كانت تعرف أن ريم ستسأل وستقول. هذا ما يحدث مع الجميع. يسألون هل تزوجت وكم ولد عندك؟ ماذا كانت تظن؟ أم أنها نسيت هذا أيضًا؟

ذاكرتها وخزتها. شعرت أن هناك شيئًا مهمًّا قالته ريم وقمعته آليات دفاعها. شبكة دفاع ضد صواريخ الألم.

فتحت محاورتها مع ريم على الماسنجر. ارتفع حاجباها تعجبًا عندما وصلت إلى نهاية الحوار. كيف تنسى شيئًا كهذا؟ قد يكون هذا علامة على ألزهايمر مبكر.

الآن أصبح الكابوس منطقيًّا.

***

تردد محمد عبد الجبار في دخول المجموعة، لكنه دخلها على أي حال.

لم تكن الصورة هي التي أزعجته. بل التاريخ المؤشر عليها.

12/ 4/ 1979.

من الصعب جدًّا أن ينسى هذا التاريخ.

يصادف ميلاد شقيقه أحمد.

ويذكر جيدًا ذلك اليوم تحديدًا.

كان أحمد قد تجاوز العمر الذي يقبل أن تقام فيه حفلة لعيد ميلاده. أعياد الميلاد للأطفال وللبنات. أما هو فقد أصبح في الثامنة عشرة. مراهق يعتقد أنه أصبح رجلًا. كيف لا وقد نبت خط من الزغب الخفيف –ولكن الواضح– فوق شفته العليا. أي دليل أكثر من هذا؟ رجل ونصف.

كان أحمد مثله الأعلى في كل شيء. منذ الطفولة المبكرة كان معجبًا به إلى حد الهوس. يريد أن يصبح مثله في كل تفصيل. يقلده في كل حركة. السنوات الست التي تفصلهما كانت كفيلة بجعله بطل الطفولة. السوبرمان الموجود في المنزل. وكان الأمر يروق له. كان ثمة (أنا) أصيلة وفطرية فيه أحمد كانت تنمو وتتضخم وتتبختر كطاووس كلما وجدت إعجابًا كالذي كان محمد يقدمه لها. ربما كان محمد هو المعجب الأول بأحمد، ومع المعجب الأول اكتشف أحمد لذة ووهج أن يكون محطًّا للإعجاب، واكتشف أيضًا لذة أن يجعل المعجب به محطًّا للمزيد من التعلق عبر السخرية منه وإشعاره أن عليه أن يبذل المزيد لكي ينال القبول. ومن يومها وعلاقة الشقيقين تشبه لعبة جر حبل الخاسر الدائم فيها هو محمد. رغم كل محاولاته لتقليد شقيقه الأكبر منه، فلم يكن لديه العدة الجينية المناسبة لجعل التقليد متقنًا. بينما أحمد كان طويلًا قويًّا أخذ أفضل ما في الجينات من الجانبين، أخذ محمد (البواقي)، كما لو أن أحمد انتقى جيناته تنقية، ولم يترك لمحمد إلا ما لم يرغب فيه. كان محمد قصيرًا، ضعيف البنية، ولِد خديجًا، ومر بكل الأمراض التي يمر بها الأطفال الخدج، وبكل الصعوبات الصحية التي تبقى معهم في بقية حياتهم، مناعته دومًا ضعيفة، نزلة برد عادية يمكن أن تطرحه الفراش لأسابيع، أعراض التطعيمات التي تمر مرور الكرام مع الجميع تكون مبالغة جدًّا وتمكث مع محمد لفترة طويلة، وفوق كل هذا أصيب بربو مزمن.

بينما كان أحمد موفور الصحة يتدفق نشاطًا وحيوية.

تلك الليلة، في اليوم نفسه الذي التقِطت فيه الصورة، خرج أحمد مع أصدقائه، جاؤوا له على الباب وانتظروه، حاول محمد أن يقنع شقيقه بأن يخرج معهم، فلم يرد عليه، كرر طلبه فنهره. مر بهما والدهما وسمع حوارهما فضحك ساخرًا كما لو أنه استكثر على محمد طلبه. تكور محمد على نفسه وذهب إلى سريره مبكرًا، سمع والدته تعاتب أباه. لم تكمل تعليمها لكن كانت تستحق دكتوراه في علم نفس الطفل. قالت له إنه كسر بنِفس محمد بتلك الضحكة، من الطبيعي أن يرفض أحمد خروج محمد معه ومع أصدقائه، لكن تلك الضحكة الساخرة من والده كانت غير طبيعية. قالت له ذلك بوضوح. رده كان أسوأ من الضحكة الساخرة. قال لها ببرود إن محمد ضعيف وركيك وإنه لا يمكن أن يأتمنه على معمل الألمنيوم، ولن يحاول أن يدربه على المصلحة، «هل سمعتِ بأسطى ألمنيوم لديه حساسية من نشارة الحديد؟» سألها. وكان محمد يمتلك قائمة من الحساسيات التي لم يسمع بها أحد. من ضمنها نشارة الحديد بالفعل. لكن أهمها هو أكثرها خفية: حساسيته من أي إشارة إلى ضعفه، ومقارنته بشقيقه التي كانت أساسًا محور حياته.

ازداد تكور محمد على نفسه تلك الليلة. أخذ وضع الجنين في فراشه. سمع صوت أمه غاضبة وهي تقول لأبيه: «خَف ربك يا رجل. لا تقل كلامًا تندم عليه. ربك كبير. الاثنان ابنا بطني، لكن كلامك ظالم ومخيف. خَف ربك».

قرر محمد يومها أن يلجأ إلى ربه الكبير. دعاه بحرارة. ربما أصبح التقليد والإعجاب عقدة من ذلك اليوم، وتحولت إلى مواجهة محسومة سلفًا. محسومة مع استثناء أن «ربك كبير» كما قالت أمه. إذن فيلجأ إليه. ربما يحدث شيء.

ليلتها استيقظ محمد على صراخ أحمد بينما والده يضربه. رجع متأخرًا بعد منتصف الليل وشم والده رائحة السجائر.

في فراشه ازداد محمد في تكوره بوضع الجنين.

ربك كبير فعلًا. وبعض الدعوات تستجاب.

كانت تلك الليلة محورية في رحلة خروجه من وضع الجنين. بقيت علاقته بربه الكبير أساسية في كل ما سيأتي. من يومها سيكون الطفل المتدين، وسيكون أحمد هو المراهق الذي يشرب السجائر.

بعد اثني عشر عامًا، كان والده يبكي بحرارة وهو يقول: «انكسر ظهري. انكسر ظهري».

https://t.me/MktbtArab

وكان محمد يقف وهو يحاول أن يتماسك ويغلب دموعه.

وتذكر يومها تلك الليلة. ليلة ميلاد أحمد الثامن عشر. فكر بجزع إن كانت دعوته هي السبب لكسر ظهر والده.

طرد الذكرى والفكرة من باله بانزعاج.

لكنهما عادتا مع الصورة، بعد كل تلك السنوات.

يفكر الآن: ليت الأمر كان خدعة من قرصان إلكتروني.

مخاطر القرصان الإلكتروني المحتمَلة أقل بكثير من هذا الذي حدث معه في اليومين التاليين لوصول الدعوة إلى المجموعة ومشاهدته صورة التخرج. القرصان كان سيستولي على حساباته، أو بعضها. هذا الذي حدث استولى على ذاكرته. أصبح يرى الصورة ومشاهد ذلك اليوم في كل مكان. يكاد يقسم إنه رأى الصورة على الشاشة الإعلانية الضخمة المعلقة في البيكاديلي. وشاهد أجزاءً منها على الشاشة في ساحة لايكستر، مجاور عمارة بيلا إيتاليا. طاردته أيضًا في إعلانات القطار تحت الأرض، طاردته فوق الأرض وتحت الأرض. المس مبارك والست محاسن وكل تلامذة السادس أحمر. لكن هذا كله مجرد تفاصيل تضم بين السطور ما حدث يومها. لو أغمض عينيه حتى لا يرى الصورة في كل مكان كان يسمع ما حدث يومها بعد الظهر. أحمد ينهره. أبوه يسخر منه. أمه تدافع عنه. أبوه يقول ما قاله. يقول ما قاله. وهو أمه تتوعد: ربك كبير. وهو يتكور حتى يصبح قنفذًا يحتمي بأشواكه مما يسمع. ثم يسمع صراخ والده على أحمد. وذلك الضوء الذي التمع في ذهنه عندما ربط بين ما حدث ودعائه.

هالة لاحظت اضطرابه وفهمت أن هناك شيئًا ما كما تفعل دومًا مهما حاول أن يخفي الأمر. هذه المرة لم يحاول أن يخفي شيئًا، لكنه حاول أن يتجنب الحديث عن الأمر.

قالت له بعد أن أوى إلى الفراش، وكانت قد سبقته، وقبل أن يدير ظهره نحو الجهة الأخرى كما يفعل دومًا عندما يركبه القلق. قالت له: «هذا لا علاقة له بوشم سما، صحيح».

سكت قليلًا ثم قال: «صحيح».

سكتت لثوانٍ ثم قالت: «وليس نزعي للحجاب مرة أخرى؟».

https://t.me/MktbtArab

أغمض عينيه. مرت سنوات على الأمر، أحيانًا يشعر أنه تجاوزه، لكن مجرد شعوره هذا كان يجعله أكثر تأزمًا. لكن أزمته هذه تمد وتجزر. لا تزال تسكن في مكان ما في رأسه، تطل أحيانًا عليه لتعكر مزاجه وهدوءه، وأحيانًا تمكث في هدوء دون ضجيج.

هز رأسه، لا. ليس هذا أيضًا.

سألته: «ماذا إذن؟».

التف إلى الجانب الآخر من السرير. قال: «لا شيء».

لم تقتنع. تعرف جيدًا هذا الجواب. لكن محمد لم يستطع أن يخبرها أنه يرى صورة تخرج الصف السادس أحمر في ساحة البيكاديلي أو المترو أو أنه يسمع صوت والده وهو يسخر منه. ستظن أنه جُن. هل جُن يا ترى؟ هل هذه أزمة منتصف العمر؟ متأخرة إذا كانت كذلك.

سألته مجددًا بحسم: «ما الأمر؟».

قال لها باختصار: «والدي».

- الله يرحمه. ما به؟

- حلمت به قبل يومين، ومن يومها وأنا أفكر فيه، أشعر أني مقصر معه.

قال أي شيء، فقط ليبرر اضطرابه. لم يكن لديه خيار آخر.

- مقصر في ماذا؟ لا أعرف أحدًا اعتنى بوالديه في كبرهما مثلك.

بل تعرف كثيرين. لكنها تريد أن ترفع معنوياته. اعتنى بهما كما يعتني الجميع بآبائهم.

- لا أعرف، لم يبدُ مرتاحًا في المنام.

- تريد أن أخرج صدقة؟

- نعم. يا ليت.

بعد صمت قصير: «أين؟».

- أين ماذا؟

- أين أخرج الصدقة؟ بغداد أو أي مكان لا فرق؟

- بغداد طبعًا.

صمت أطول.

ثم سألته مجددًا: «هل أنت متأكد أن هذا هو الأمر؟».

زفر زفرة طويلة. لا يمكنه أن يفلت من هالة. الحمد لله أنه ليس بالخائن أو صاحب العلاقات النسائية. كانت ستكشفه منذ أول سؤال.

- أحدهم شكل مجموعة على الفيس بوك، باسم الصف السادس أحمر 1979.

- ...هذا صفك؟ سنة تخرجك؟

- نعم سنة تخرجي، وفيها صورة التخرج.

- ولماذا يزعجك هذا؟

- الصورة مؤرخة بتاريخ ميلاد أخي أحمد. وفي ذلك اليوم حدثت مشكلة بينه وبين أبي، وضربه. تذكرت كل شيء مع الصورة.

جفلت هالة. قامت من استلقائها وتأملت في محمد.

ثم قالت: «رحمهما الله».

***

قبلت سوزان كاشاني دعوة الانضمام إلى المجموعة. كانت متوجسة. دخلت كمن يدخل بيتًا مهجورًا أشيع أن الأرواح والأشباح تسكنه. تأملت في أسماء أعضاء المجموعة. للحظات شعرت بالأشباح تتحرك. ذاكرتها كانت تقاوم الذكريات. عقلها الباطن استجمع كل قواه ليمنعها من تذكر أي شيء. للحظات بدت التجربة مؤلمة أكثر مما كانت تتوقع. قلبها يدق بشدة. تشعر أن الدم انسحب من جسدها كله. بالتحديد من رأسها. أعراض انخفاض الضغط واضحة. فكرت أن تخرج من المجموعة. لكن بدا الأمر أكثر صعوبة الآن بعد أن دخلت منزل الأشباح هذا.

تأملت الأسماء. تارا. نعم، تذكرها. سرمد؟ لا. لا تذكره. يعرب. طبعًا. لا يمكن لها أن تنساه. محمد. لا. ليست متأكدة.

ريم.

ريم مظفر.

يا الله يا ريم. كم فكرت فيها أول سنة بعد ما حدث. وثاني سنة. وثالث سنة. ثم كفت عن كل شيء. قالت ريم ستنسى. كلهم سينسون. كرهتهم. كرهتها.

https://t.me/MktbtArab

يا الله يا ريم. منذ أربعين عامًا لم تذكرها. أربعون مرت ولم تذكر اسمها ولم تذكر أنه كان لديها صديقة مقربة ذات عالم، ذات عمر آخر، تصورتا ببلاهة وسذاجة أن لا شيء سيفرقهما. أنهما ستبقيان في المدرسة نفسها، تدخلان الجامعة نفسها، تتزوجان بصديقين، يسكنان في الشارع نفسه ويصبح أولادهما أصدقاء أيضًا.

تذكرت الحوار الذي دار بينهما عن كل هذه الأمنيات. أن تبقيا معًا.

كم كانت بسيطة هذه الأمنيات! كم بدت لهما ممكنة وقابلة للتحقيق، رغم سذاجتها، ورغم أن أغلب الذين يتمنون أمنيات مشابهة تفرقهم الحياة في شتى الاتجاهات. إلا أنها تبقى ممكنة.

كانت أمنياتهما ممكنة.

ثم جاء الباص في تلك الليلة.

للمرة الأولى تنتبه إلى مفارقة اسم الباص. هذه الباصات كان اسمها باصات ريم. يا للسخرية. كيف لم تميز ذلك؟ الباص الذي أخرجها من حياتها كان يحمل اسم أعز صديقة لها في حياتها السابقة.

فكرت أن تدخل صفحة ريم لترسل لها رسالة، أو تطلب إضافتها كصديقة.

لكنها كانت أجبن من أن تفعل ذلك.

ماذا لو كانت نسيتها؟ ماذا لو أنها لا تذكر أي شيء من كل هذا الذي تذكره الآن؟ ستفقدها مجددًا. سيستيقظ كل الألم مجددًا. عاشت أيامًا طويلة وهي تحاول أن تتخيل مشاعر ومواقف الجميع تجاه ما حدث. كل من لم يركب الباص.

لا.

لن ترسل شيئًا.

الكرة في ملعب ريم. إن شاءت ترسل هي.

أغلقت صفحة المجموعة. تشعر أنها تريد أن تبكي ولكنها عاجزة عن ذلك.

سألها حسين: «هل هناك شيء؟ تبدين مضطربة».

قالت له: «تتذكر ملف الصور الذي أرسلته لك قبل أشهر؟ قلت لك احتفظ بها ولكن لا تريني شيئًا».

فكر للحظات: «صور بيتكم في بغداد؟».

https://t.me/MktbtArab

هزت رأسها، وسألته: «هل لا تزال محتفظًا بها؟».

صمت ثم قال: «لا بد أنها في مكان ما. إما في الكمبيوتر، وإما في الجيميل. لماذا؟».

قالت سوزان: «ابحث عنها وأرسلها إلي».

رفع حسين حاجبه مستغربًا: «ماذا حدث؟».

ردت بحسم: «الآن لو سمحت».

***

قال آلب: «فارس بيه، رسالتك للطفل الذي كنته مؤثرة جدًا. هل قرأتها بعد أن كتبتها؟».

رد وليد: «نعم، قرأتها مرة لكي أترجمها لك».

- قرأتها كفارس، أم كالطفل الذي كتبتها له؟

- قرأتها كوليد. فارس لا وجود له إلا بسبب قوانين السرية في المصحة.

قال «المصحة» بتوكيد على الكلمة كأنه يريد أن يميز بينها وبين أي مستشفى عادي.

- وليد الآن أم وليد الطفل الذي كان في الصورة؟

- وليد الذي في الصورة ضاع يا دكتور آلب، لا سبيل إلى العثور عليه، تفريغ مشاعري على الورق في رسالة أفترض أنها موجَّهة إليه لن يعيده إلى الوجود.

- لكنك قلت إنك محرج منه، إنك تخجل منه، لا أحد يحرَج أو يخجل من شخص لم يعد موجودًا تمامًا في حياته.

أطرق وليد برأسه مفكرًا. لعبة الكلمات هذه يجيدها الأطباء النفسيون. لم يقصد أن وليد الطفل قد ضاع حرفيًا، بالضبط كما لم تكن الرسالة موجهة له حرفيًّا.

- نعم. هو موجود في داخلي، لكنه مثل ظل يلازمني ولا يمكنني الحديث معه.

- بالضبط. هو مثل ظل، لكن من قال إنك لا يمكن أن تتحدث معه؟

https://t.me/MktbtArab

- لو رد علي، هل سيكون علينا أن نغير أدوية الاكتئاب إلى أدوية الشيزوفرينيا؟

ضحك الدكتور آلب بشدة.

- لا تقلق، لن يرد عليك بهذه الطريقة، لكنه قد يعاملك بشكل أفضل، على نحو يقلل من جرعة أدوية الاكتئاب.

- ماذا تقول؟ هل هذا الظل هو سبب مشكلاتي كلها؟ هذا الطفل كان يبدو كالملاك، على الأقل هذا كان رأي معلماته به (أكمل وليد بطريقة ساخرة).

- لعله لم يكن ذاك الملاك، لكن أؤكد لك: هو ليس بشيطان، والمشكلات التي تسأل إن كان السبب فيها، ربما نتجت لأنه يريد أن يقول لك شيئًا، يقول ليس بطريقة الشيزوفرينيا والهلاوس التي تسمَع في الدماغ، بل بطريقة الأحلام مثلًا، بطريقة ما بين السطور.

- بدأنا برسالة مني إليه، الآن هو يريد أن يقول شيئًا، هل سنصل لاحقًا إلى تحضير الأرواح؟

النكتة لم تعجب الدكتور آلب. لا تهرج يا فارس بيه. لم يقل ذلك بالضبط ولكنها كانت واضحة.

- فارس بيه، أنت طبيب وتعلم جيدًا تأثير اللاوعي على الصحة النفسية والعقلية، وأظنك تدرك أهمية تجارب الطفولة على كل ذلك.

قال وليد: «نعم. كل ذلك مهم فيما وصلت إليه. السؤال هو: هل هناك مخرج من هذا الذي وصلت إليه؟».

رد آلب: «دون تعاونك لن يكون هناك مخرج. مع الموقف اليائس الذي يسخر من كل شيء لن يحدث أي تغير في الواقع. أنت جربت الأدوية ومضادات الاكتئاب منذ سنوات طويلة. ساعدتك على التأقلم بلا شك، لكن في مرحلة ما، هناك مواجهات يجب أن تحدث، لا يوجد دواء سحري يمكنه أن يفعل ذلك بالنيابة عنك».

كانت كلمات آلب حاسمة وقالها بحزم يكاد يتراجع به عن ضحكته الشديدة قبل قليل.

قال وليد بصدق: «لا بد من المواجهات دكتور، أنا معك، أعتذر إن بدوت مشككًا أو ساخرًا».

- هل قبلت الانضمام إلى المجموعة فارس بيه.. مجموعة الفيس بوك؟

سكت وليد. حاول أن يتذكر إن كان قد أخبره أنه لم ينضم بعد أم أنه توقع ذلك. ذكي وماكر هذا الآلب العثماني.

قال: «لا، لم أنضم بعد إلى المجموعة».

- وماذا تنتظر؟

- لا أنتظر شيئًا، لم أقرر بعد إن كنت في وضع يسمح لي بالحديث أو الحوار مع زملاء الابتدائية.

- لماذا لا؟ واجهت وليد - طفل الصورة، وكتبت له رسالة، هل مواجهتهم أصعب؟

- في وضعي الحالي يا دكتور، أشفق عليهم أكثر مما أخاف منهم، لا أريد أن أصدمهم بما حدث لي.

- وتعتقد أنهم يعيشون حياة النجوم الخمس ولا مشكلات لديهم؟ ربما أكثر من مشكلاتك؟

- لا أعتقد أن أحدًا منهم في المصحة يا دكتور.

- المصحة ليست عنوانك الحالي يا فارس بيه، هي مجرد وضع مؤقت وعابر، ترانزيت لن يذكّر في نهاية الرحلة، إلا إذا أصررت على عدم المواجهة على هذا النحو، التهرب من الانضمام إلى المجموعة هو تهرب من المواجهة، وعليك أن تقرر فعليًا إذا كنت تنوي البقاء في الترانزيت بعدم المواجهة... أو الخروج منه. والانضمام إلى المجموعة هو أول خطوة في تصوري.

- كل هذا من أجل الانضمام إلى مجموعة على الفيس بوك؟

- ليست أي مجموعة فارس بيه، أنت تعلم ذلك.

- حاضر، سأنضم الآن.

فتح هاتفه وحرك أصابعه على الشاشة.

قال وليد: «تم».

خرج الدكتور آلب وهو يفتح هاتفه.

***

https://t.me/MktbtArab

صباحًا انتبه يعرب إلى الأسماء الجديدة في المجموعة. وليد خالد وسوزان كاشاني.

بعد قليل كتب منشورًا على جدار المجموعة.

«مرحبًا بالجميع، فرصة سعيدة بالنسبة لي أن ألتقيكم جميعًا على هذا الفضاء الأزرق، لكن من أنشأ هذه المجموعة بالضبط؟ من هو الذي يسمي نفسه «السادس أحمر»؟ أعتقد أننا قد نتعرض الآن إلى قرصنة أو شيء أخطر من هذا. بيننا شخص غريب، إيراني الاسم، لا علاقة له بصف السادس أحمر الذي كنا فيه، هذا يبدو لي غريبًا جدًّا ومثيرًا للشك، انتبهوا إلى اسمها، سوزان كاشاني، الاسم إيراني بوضوح، وكتبت أنها تعيش في سيدني أستراليا، غالبًا هذه شخصية مزيفة، والله أعلم ماذا تريد. لم نرَ خيرًا منهم قط. كوم حجار ولا هالجار».

وضع محمد عبد الجبار علامة إعجاب على منشور يعرب. تلاه سرمد بعلامة مماثلة.

ثم علق محمد: «نعم، انتبهت الآن. شيء غريب. مرحبًا بكم جميعًا على أي حال».

بعد ساعة تقريبًا، علقت سوزان: «مرحبًا يعرب. أنا سوسن مالك».

بعد دقائق، حذفت تعليقها.

كان يعرب قد قرأ تعليقها. فحذف منشوره هو أيضًا.

HTTPS://T.ME/MKTBTARAB

-7-

«مرحبًا وسلام للجميع. شكرًا لانضمامكم إلى المجموعة. هذه المجموعة أسِّست لغرض إعادة لم شمل طلاب الصف السادس أحمر لعام 1979ـ أغلب المنضمين تركوا العراق منذ سنوات طويلة وتفرق الجميع في بلدان مختلفة والكثيرون انقطعت أخبارهم، المجموعة هدفها إعادة التواصل بين طلاب الصف السادس أحمر ومشاركة ما يملكونه من صور أو ذكريات تخص المدرسة أو المعلمات أو زملاء آخرين لم توجه الدعوة لهم، شكرًا جزيلًا وأتمنى أن يكتب كل منكم في التعليقات أين هو الآن، وماذا يعمل ومتى آخر مرة زار العراق».

كتب حساب «السادس أحمر» هذا المنشور، بعد ساعات من انضمام وليد إلى المجموعة.

كان يعرب أول من كتب تعليقًا على المنشور.

«أعيش في عمَّان الأردن منذ بداية التسعينيات. أعمل مهندسًا مدنيًّا ولدي شركة مقاولات، أزور العراق باستمرار من أجل العمل، لم أنقطع عمليًّا عنه، ابنتي نور تزوجت قبل أشهر وسأصبح جدًّا في القريب العاجل. لدي ثلاث بنات. نور وشمس وقمر. هل سأكون أول جد في الصف؟»

وضع سرمد علامة إعجاب على تعليق يعرب وكتب تعليقه:

«أعيش في ميشيجان أمريكا منذ التسعينيات، طبيب جراح هضمية، بنت وولد، دانيا وفيصل، لكن لا أحد منهما متزوج حتى الآن. ولا حتى يفكر في

ذلك، الحمد لله، آخر مرة زرت العراق كان في 2003، عند وفاة والدي -رحمه الله-، للأسف لم ألحق الجنازة، فقط العزاء».

كتبت ريم بعد أن وضعت علامات إعجاب على التعليقين السابقين:

«هللو جميعًا. أعمل طبيبة أسنان في كاليفورنيا منذ التسعينيات ولم أزر العراق منذ أن خرجت في أول التسعينيات، لدي ديانا وعمر، لو عندكم عريس وعروسة لهما لا تقصروا، أريد أن أكون ثاني جدة في الصف ما دام يعرب قد حجز المركز الأول».

علق سرمد على تعليق ريم: «هذه المرة أسمح لك بكل سرور بأن تغلبيني يا ريم. بالمناسبة هذه هي المرة الوحيدة التي يستطيع يعرب أن يكون فيها في المركز الأول في أي شيء على الإطلاق».

فكرت ريم: آوج. يا له من لئيم. الله يعين زوجته.

كتب يعرب على تعليق سرمد: «هههه». ثلاثة أحرف فقط. كما لو أنه يقول: (بايخة).

ثم كتب: «ذاكرتك جيدة يا سرمد. لم تنسَ تنافسك مع ريم ولم تنسَ أيضًا أن الأمر لم يكن يعنيني».

كتبت ريم: «بالضبط. الله يعين زوجتك يا سرمد. الذاكرة القوية مشكلة».

انتهزها يعرب: «قصدك طليقاته. كم واحدة أصبحت يا سرمد؟».

جز سرمد على أسنانه غيظًا. تذكر الآن أن رند الكلبة تعرف زوجة يعرب أو تقربها من بعيد. لا بد أنها تنقل أخباره إلى الجميع بالطريقة التي تروقها.

كتب: «الحمد لله. اثنتان وأبحث عن الثالثة. حاليًا single and ready to mingle».

تشجعت ريم: «بالتوفيق يا سرمد. كل شيء قسمة ونصيب، أنا أيضًا انفصلت منذ أكثر من عشر سنوات. يبدو أن الزواج لا يناسب المتنافسين».

أضافت تارا تعليقًا على المنشور الأصلي: «مرحبًا يا جماعة. آسفة لغتي ربما ضعيفة لم أكتب بالعربية منذ عقود، كيف الجميع؟ أنا في السويد منذ ثلاثة وثلاثين عامًا، أعمل في جامعة أبسالا أستاذة للأدب الكردي. زرت أربيل عدة مرات، آخرها قبل عامين في مؤتمر في الجامعة، لكن لم أذهب إلى بغداد.

https://t.me/MktbtArab

عندي نوزاد فقط ولكن للأسف لا أعتقد أني سأصبح جدة في أي وقت من الأوقات».

ساد الصمت بعد هذا التعليق. فكر الجميع فيما كتبته تارا.

سرمد فكر في أن نوزاد ربما كان مثليًّا أو متحولًا أو شيئًا كهذا. مر في باله أن يكتب لها أن خيارات الجدة أصبحت موجودة حتى مع هذا الاحتمال لكنه تراجع عن الأمر. فكر مجددًا في اللقب الذي يجب أن يطلَق على هذا الجيل.

يعرب فكر في أن ملاحظة تارا أن لغتها العربية ضعيفة وأنها لم تكتب بالعربية منذ عقود هي ملاحظة مقصودة لأسباب مسيسة وأن لغتها تبدو جيدة لكنها تريد تسجيل موقف. ملاحظتها عن نوزاد فسرها يعرب بأن ابنها أخذ موقفًا ضد الزواج بسبب حبها للتحكم والسيطرة.

فكرت ريم: لا بد أن نوزاد مريض. أو أن تارا تبالغ.

قطعت تارا كل تلك الأفكار بتعليق ربطته بتعليقها الأول: «نوزاد يحضِّر الدكتوراه في الذكاء الصناعي، وهو مضرب تمامًا عن فكرة الزواج. متزوج تمامًا بالكمبيوتر».

لم يعلق أحد.

ثم كتبت ريم: «الله كريم يا تارا. كلهم يقولون هكذا ثم يتزوجون».

فكرت تارا وهي تقرأ التعليق: الله كريم؟ لعله يعاقبني لأني لا أومن به.

توالت تعليقات مماثلة من البقية.

ترك محمد عبد الجبار تعليقًا: «السلام عليكم جميعًا. انتقلت إلى لندن في بداية الألفينيات، لدي شركة تطوير عقاري في الإيست إند. آخر مرة زرت العراق كانت في 2013، حين بعنا منزل والدي -رحمه الله-، لدي بشار وعمار وسما، بشار طبيب يتخصص في طب العيون، وأظنه سيجعلني ثاني جد في الصف، عمار مهندس طاقة متجددة، وسما لا تزال في المدرسة».

كان هذا هو أول تعليق يتركه محمد عبد الجبار في المجموعة.

بينما رد يعرب وسرمد على تعليقه بالترحيب، اكتفت ريم وتارا بوضع علامتَي إعجاب.

https://t.me/MktbtArab

بعد أكثر من ساعة، وبعد أن بقي يفكر طويلًا في الأمر مع نفسه، ترك وليد تعليقًا على استحياء.

«سلام لجميع طلاب الصف السادس أحمر. أعمل طبيب تجميل في دبي. لدي خالد وغنى وعبَّاد. لا أعرف إن كنت سأصبح جدًّا في القريب العاجل. غنى مخطوبة لكن لا يزال أمامها الدرب طويلًا. تخرجت في كلية الطب جامعة الشارقة قبل عام. خالد أيضًا تخرج طبيبًا قبل عامين. لم أزر بغداد منذ أن خرجت منها في عام 2006، خطِف خالد في تلك السنة، كان في الثامنة، بعت بيتنا ودفعت الفدية، ثم خرجنا جميعًا إلى دبي».

وضع سرمد علامة إعجاب على تعليق وليد. أرسل له طلب صداقة على الفور. ثم ترك ردًّا على تعليق وليد:

«أهلًا أهلًا وليد، طالما سألت أين ذهب الأول المزمن على صف السادس أحمر، أخبارك انقطعت منذ زمن طويل، أنت في دبي؟ وطبيب تجميل؟ حياة سبع نجوم إذن!».

فكر وليد أن سرمد ربما كان يعرف كل شيء وأنه يتعمد الحديث عن «حياة سبع نجوم» وتذكيره بأنه كان «الأول المزمن» على الصف إمعانًا في التنكيل بوضعه الحالي، كنزيل مصحة في إسطنبول، ويعالَج من الإدمان والاكتئاب.

ثم فكر وليد أنه ربما يجب أن يعالَج من أعراض البارانويا أيضًا. وليد خالد الأول على صف السادس أحمر ليس في المصحة. فارس بيه هو الذي في المصحة، ولا أحد يعرف بالأمر سوى أشخاص معدودين لا يمكن تسرُّب أي معلومة منهم، ولا توجد أي صلة تربطهم بسرمد.

«أين تخصصت في الجراحة التجميلية يا وليد؟ أذكر أنك كنت تتخصص في الجلدية، دبلوم على ما أعتقد».

كتب سرمد.

تخيل وليد وجه سرمد وهو يكتب هذا التعليق. تذكر وجهه وهو يخبره أنه نسي سؤالًا كاملًا في امتحان الجغرافية. نظر إليه نظرة غير المصدِّق وقال له: «نسيته أم كتبت النقاط العشر التي لا علاقة لها بالسؤال؟».

هل يعقل أن يكون سرمد لا يزال محتفظًا بذاكرة التنافس القديم واللؤم المصاحب له؟

سؤاله عن التخصص كان مقصودًا. يريد أن يذكِّره أنه طبيب جلدية فحسب، وليس «جراحًا تجميليًّا». و«دبلوم» أيضًا. شهادة أقل من «البورد» أو «الزمالة».

كتب وليد: «قلت طبيب تجميل وليس جراح تجميل يا سرمد، لم أقل بلاستيك. كوزميتك».

يعرف تمامًا ماذا يقصد سرمد. أنت مجرد «دبلوم جلدية». كان يفترض أن تقضي حياتك المهنية وأنت تعطي المراهم وتعيش على وصفاتها، فيوسيدين وكالامين، أصبحت تقول إنك طبيب تجميل بسبب الزمن الذي جلب البوتوكس والفيلر وجنون التشاوف والسوشيال ميديا.

كان وليد على وشك أن يقول لسرمد إنه انتصر عليه منذ زمن طويل، وإنه لم يعد الأول على أي شيء منذ الصف السادس الابتدائي. لكنه أحجم عن ذلك. شعر بأنه أخطأ بقبول الانضمام إلى المجموعة. لم يكن بحاجة إلى سرمد كي يذكِّره بفشله.

كتبت ريم ردًّا على تعليقه: «هللو وليد. حمدًا لله على سلامة ابنك، أكيد مررتم جميعًا بظروف صعبة المهم سلامة الأولاد، سبق أن شاهدت لك فيديوهات على الإنستجرام عن عملك في دبي. ما شاء الله. جميل جدًّا».

كتبت ريم ذلك مجاملة فحسب. عندما شاهدت الفيديو أزعجها. صورة وليد في ذهنها وذاكرتها كانت أفضل بكثير من أن يصبح ما رأته في الفيديو. فنانة لم تسمع بها من قبل تقول إن الدكتور وليد أرجع إليها نضارتها وشبابها، لكن كل ما رأته كان شفتين منتفختين، وخدين متورمين. لم يكن هناك تجميل حقيقي فيما رأته. بل شيء آخر لم يناسب الطالب الذي كان متفوقًا جدًّا في الابتدائية.

شكر وليد ريم على ما كتبته وكتب لها شيئًا مجاملًا عن أولادها، لكنه كان يعرف تمامًا أن ريم تجامله فحسب وأنه كره مرحلة الإنستجرام في حياته إلى أقصى حد. بل لعلها المرحلة التي ساهمت في وصوله إلى المصحة.

وجد وليد نفسه مثقلًا بكل شيء. لم يكتب سوى سطرين لكنه استحضر خطف خالد، وبيع البيت، وهزيمته أمام سرمد والتجميل والجلدية والدبلوم والإنستجرام. كل ذلك خلال دقائق فحسب.

https://t.me/MktbtArab

لم يخبر دكتور آلب أن لديه مشكلاته أيضًا مع شهادة تخصصه التي ينظر إليها الزملاء أصحاب الشهادات الأعلى نظرة استعلاء. قال له أشياء كثيرة عن كراهيته لنفسه وخجله من أشياء كثيرة في حياته لكن لم يصل إلى الدبلوم.

حاول أن يصرف أفكاره عن كل شيء. دخن سيجارتين وشرب قدحي شاي وضع في كل منهما ظرفي شاي لكي يكون أقرب ما يمكن إلى الشاي العراقي.

عندما أنهى كل ذلك وجد منشورًا جديدًا في المجموعة.

***

HTTPS://T.ME/MKTBTARAB

-8-

"آخر مرة كنت في بغداد هي في التاسع عشر من نيسان عام 1980. لا أدري كم استغرق الوقت إلى أن أُخرجنا من العراق ووُضِعنا على الحدود مع إيران. لكن السبت، التاسع عشر من نيسان كان آخر يوم لي في حياتي الطبيعية. أو ربما اليوم الذي سبقه، لأن التاسع عشر من نيسان بدأ فجرًا. كل شيء تغير بعدها. وجدت نفسي مع أسرتي في الباص الذي وقف في مدخل شارعنا. باص ريم أبيض اللون لا أستطيع أن أنسى رائحته. بعدها وجدنا أنفسنا في مخيم للاجئين. ثم مخيم آخر. ثم آخر. تذكرون بيتنا في حي دراغ؟ على الأقل البنات يذكرونه في حفلات عيد ميلادي. كان فيه ثلاثة حمامات، وغرفتي كانت لي وحدي منذ أن كنت في الأول الابتدائي. لاحقًا، سكنا جميعًا في غرفة واحدة. أمي وأبي وإخوتي الأربعة في غرفة واحدة. وتشاركنا في حمام واحد مع ست عوائل، ست عوائل. أي تأخر في الحمام كان يعني صراخًا وضربًا على الباب. في مرة تأخر أبي. كان هناك ثلاثة ينتظرون على الباب. تأخر أكثر. أصبحوا ستة. صرخوا، ضربوا على الباب. لم يفتح أبي. أصبحوا عشرة. لم يفتح. ثم كسرنا الباب. وجدناه على الأرض. سقط مشلولًا بجلطة دماغية. مات بعد شهرين من الحادثة، وبعد ثمانية أشهر من التاسع عشر من نيسان 1980، بعد أربعة أشهر من بدء الحرب.

https://t.me/MktbtArab

أنا سوزان كاشاني. أعمل محامية هجرة في سيدني أستراليا. لدي جاسمين وكامران وحسين زوجي يقول إني أم أيضًا لثلاثة كلاب. جاسمين مضربة عن الزواج وتقول إنها لا تؤمن بمؤسسة الزواج ولا بإنجاب أطفال في هذا العالم البائس، ولكنها جمدت بويضاتها احتياطًا، وتتحدث عن تبني طفل إفريقي، هل سأكون جدة لو حدث ذلك؟ كامران لا مشكلة لديه مع مؤسسة الزواج والحمد لله. سيتزوج قريبًا في دبي حيث يعمل هناك مستشارًا لتطوير الأعمال. زوجته بريطانية من أصول هندية فارسية.

في عالم آخر، تشاركت معكم فيه، كان اسمي سوسن مالك وكنت طالبة في السادس أحمر. لا أعرف كيف وصل إليَّ مؤسس المجموعة وقد تغير اسمي وانقطعت كل هذه السنوات. لكنها فرصة جيدة بالنسبة لي. لم يكن سهلًا أن أكتب ما كتبت الآن. لسنوات طويلة تجاهلت كل ما حدث وفضَّلت ألا أتذكر. لكن ربما الآن هو الوقت المناسب لمواجهة كل شيء».

***

كانت ريم قد أنهت مريضًا للتو. ليام جرسيا. تابعته منذ أن كان طفلًا. اليوم تنهي تقويم أسنانه. في العادة تزيل المساعِدة الدعامات المعدنية. لكنها تحب أن تفعل ذلك بنفسها. تشعر بالإنجاز عند المقارنة بين «الما قبل» و«الما بعد». شعور جميل يضاهي أو يتفوق على الحصول على سبعة آلاف دولار -المبلغ الكامل تقريبًا- الذي تحصل عليه نظير العلاج الذي يستغرق قرابة العامين.

تأملت ريم بدقة في أسنان ليام، تستطيع أن تشعر بضجره بدقة تحسسها نفسها للماريجوانا في أنفاسه. منذ أن أصبحت الماريجوانا قانونية في كاليفورنيا عام 2016 ومعاناتها تزيد مع حاسة الشم الحادة التي ابتُليت بها. ربما عاد السرطان بسبب ذلك. ستبحث عن إمكانية حدوث ذلك لاحقًا. ليام لم يبلغ الواحد والعشرين -السن القانونية أصلًا لتعاطي السخام- لكن فتق «السماح القانوني» لا يمكن رتقه بسهولة. الحمد لله أنها متأكدة أن ديانا وعمر لم يتعاطيا، بل لم يجرباه أصلًا. لو حدث ذلك لاستنفر رادار أنفها وفتحت تحقيقات لا تنتهي. ورثت حدة حاسة الشم عن أمها، وكذلك حاسة التحقيق

وحاسة التحكم والسيطرة. حاولت أن تكبح حاستي التحقيق والتحكم وتمنع نفسها عن استعمالهما مع ديانا وعمر، طبعًا سيسقطان أرضًا من الضحك لو عرفا أنها تعتبر نفسها قد كبحت ذلك، لكن لو عرفا ما مرت به مع أمها لسجدا شكرًا كل يوم. لا تدري كيف أفلتت هي من العقد النفسية الناتجة عن عقد أمها. على فرض أنها أفلتت أصلًا. هذا الناب الأيمن العلوي كان يمكن أن يكون بوضع أفضل، أكثر تناظرًا مع شقيقه الأيسر. كيف لم تنتبه لذلك من قبل؟ ابتعدت قليلًا لكي ترى العلاقة بين النابين بصورة مختلفة. لا يزالان غير متناظرين. ليس كما تريد.

«إنهما متناظران تمامًا، دكتورة» قالت مساعدتها كيم بحزم. تبرعت تمامًا بالملاحظة دون أن تسألها. مجنونة سيطرة أخرى في العيادة. ربما كان هذا السبب في توظيفها أصلًا. تجد نفسها منجذبة إلى الأشخاص المتسلطين. لكن لن تسمح لها بالتقليل من أهمية التناظر.

- نادي ديانا لو سمحتِ، أحتاج إلى رأيها.

شعر ليام بأن ثمة شيئًا خطأ في أسنانه. طلب مرآة. كادت أن تقول له: اخرس أنت. لكنها ابتسمت وقالت له: «دقائق فقط».

خرجت كيم لتطلب من ديانا أن تأتي. نظرت ريم إلى هاتفها، ثمة إشعار على المجموعة بأن سوزان كاشاني قد نشرت شيئًا على مجموعة السادس أحمر. فكرت ريم: من هي سوزان كاشاني؟ لم يكن هناك معنا سوزان في الابتدائية. كان هناك سوزان لاحقًا في المتوسطة. سوزان حسن. هل يعقل أن تكون هي؟ لكنها لم تكن معنا في التأسيسية.

فتحت المنشور وقرأت. لم تفهم أولًا. قرأته كله بما فيه الجملة التي وضحت فيها سوزان أنها سوسن مالك. لكنها لم تفهم. لثوانٍ شعرت بأن دماغها قد توقف. انتبهت إلى صوت ديانا وهي تقول: «نسبة التناظر بين النابين لا تقل عن تسعين بالمائة. أكثر من النسبة المقبولة بكثير. عمل عظيم يا دكتورة».

ثم سمعتها تهمس: «أنت بخير يا أمي؟».

كان من الواضح أنها ليست كذلك.

***

https://t.me/MktbtArab

التاسع عشر من نيسان.

كان امتحان العلوم للفصل الأخير قبل الامتحان النهائي. غابت سوسن عن المدرسة على غير المعتاد منها. آخر مكالمة بينهما ليلة الجمعة كانت في التاسعة مساءً وكان كل شيء يبدو طبيعيًّا. عادت ريم إلى البيت وركضت إلى الهاتف لتتصل بسوسن. لم يرد أحد.

قالت لها أمها: «ربما والدها أو والدتها في المستشفى أو ربما مات جدها أو ربما الهاتف معطل لأي سبب. ستأتي غدًا بالتأكيد».

لم تأتِ. ذهبت إلى صف أختها بان. الصف الثالث ب. أين بان مالك؟ بان لم تأتِ اليوم ولا أمس.

عندما جاءت والدتها لتصحبها من (متوسطة القادسية) طلبت منها أن تمرًّا على بيت سوسن. ذهبتا بالفعل. السيارة موجودة في المرأب. سيارة بيجو بيضاء موديل 1975. شجرة الدفلة في مكانها. لكن لا أحد يفتح الباب.

بدا القلق على وجه والدتها كما لو كانت تربط بشيء ما.

بعد صمت طويل سألتها والدتها قبل أن تصلا إلى البيت: «لقب عائلة سوسن هو «الغلامي»... صحيح؟».

- نعم، صحيح.

لم تعلّق بشيء. لكن عندما حاولت لاحقًا الاتصال ببيت سوسن عبر الهاتف منعتها بحزم. لم تفهم لماذا.

بكت وصرخت وهددت بألا تذهب إلى الامتحان في يوم غد.

جاء والدها إلى غرفتها في المساء وتحدث معها. قال لها إن الانفجار الذي حدث قبل أسبوعين في الجامعة المستنصرية قد يكون له علاقة باختفاء سوسن. لم تفهم. ما علاقة سوسن بالانفجار؟ قال لها إن حزب الدعوة المسؤول عن الانفجار ينشط عند أشخاص من «التبعية».

التبعية؟ ما معنى التبعية؟ شرح لها المعنى ولم تفهم تمامًا، لكنها فهمت تقريبًا أن هناك أشخاصًا عراقيين لديهم أصول إيرانية.

ما علاقة سوسن بذلك أيضًا؟

قال لها: «ربما كانت عائلة سوسن من «التبعية الإيرانية»».

- وماذا يعني ذلك؟ هل عائلتها شاركت في التفجير؟ مستحيل. بابا مستحيل.

- أعرف أن ذلك مستحيل يا حبيبتي (واحتضنها).

سرت في جسدها رعشة دفء عندما تذكرت حضن والدها. كان دومًا المرفأ الوحيد الذي يمكن أن تلجأ إليه عندما تعجز عن التعامل مع متطلبات والدتها ومعاييرها.

- هل سوسن وعائلتها في السجن؟

سألته بهلع وهي تتوقع أن تسمع تطمينًا نافيًا. سيعدد لها احتمالات أن تكون قد ذهبت إلى بيت جدها أو عمها أو أقارب لهم في محافظة أخرى. لكنه سكت وشدد احتضانه لها.

ثم قال لها: «ربما ليسوا في السجن. ربما سافروا جميعًا».

فكت نفسها من حضنه وسألته: «سافروا كيف؟ المدرسة لم تنتهِ بعد. لدينا امتحان رياضيات يوم الخميس وتحتاج سوسن إلى أن تحافظ على درجة «الإعفاء»».

لم يرد لكن التأثر كان باديًا على وجهه. كان واثقًا من الأمر.

- بابا.. أين سافروا؟

- إيران.

- إيران؟ ماذا يفعلون في إيران؟

لم تكن ريم تعرف الكثير عن إيران، لكن ما سمعته من الأخبار كان غير مشجِّع على الإطلاق.

- مستحيل. بابا مستحيل أن تسافر سوسن دون أن تودعني، مستحيل.

كانت قد بدأت تبكي الآن، لكنها لم تشعر بذلك إلا عندما مد والدها يده ليمسح دموعها.

- لم يسافروا بإرادتهم يا ريم. الحكومة قامت بتسفيرهم.

كانت هذه أول مرة تسمع كلمة «تسفير». السفر عادة يعني المتعة والتسوق وجلب ملابس وبضائع ليست متوفرة في السوق التي تسيطر فيها الدولة على استيراد كل شيء. بالنسبة إليها كان السفر يعني الذهاب إلى لندن تحديدًا.

https://t.me/MktbtArab

لكن «التسفير»؟

لم تستوعب الأمر للحظات. لم تفهم كيف يحدث ذلك.

قالت لوالدها: «يسفِّرونهم لماذا؟ لأن أجدادهم كانوا إيرانيين قبل مائة سنة؟».

- العالم مليء بالظلم يا ريم.

صرخت ريم: «لا يهمني العالم، أريد سوسن». بكت بحرقة وهي تصرخ باسم صديقتها. لم تتخيل قط أن يحدث ذلك. ويحدث فجأة دون فرصة للوداع، دون تمهيد.

قال لها والدها وهو يحاول تهدئتها: «والدتك لا تريد أن تتصلي برقم منزل سوسن. ربما يكون الهاتف مراقَبًا. لا نريد أن نتورط في الأمر يا ريم. والدتك معها حق».

نامت وهي تبكي وتردد اسم سوسن. قاطعت والدتها لأسبوعين كما لو أنها المسؤولة عما حدث لصديقتها. كانت في بدايات المراهقة ولم تكن تعرف أين توجه غضبها. أخذت تتصل سرًّا ببيت سوسن باستمرار، كما لو كان ذلك تمردها ضد والدتها وضد الحكومة في آن واحد. بقيت تفعل ذلك لأشهر. يرن الهاتف دون أن يرد أحد إلى أن ينقطع. ثم انقطعت هي عن ذلك بالتدريج.

بعد عامين تقريبًا، وفي أثناء حدوث بعض المساعي لإنهاء الحرب مع إيران، دارت شائعات تقول إن المفاوضات تشمل «رجوع التبعية». أي عودة المسفَّرين. ساورها أمل بأن يكون الأمر قد حدث فعلًا. اتصلت مجددًا بالرقم، كانت تحفظه عن ظهر قلب. هذه المرة رد صوت غريب عليها. خفق قلب ريم بشدة وهي ترتجف وتقول بصوت لا يكاد يسمع: «سوسن موجودة؟».

جاء الصوت من الطرف الآخر باردًا محايدًا وهو لا يعرف من تكون سوسن: «الرقم خطأ «عيني»».

فهمت أن البيت قد صودر، وسكنته عائلة أخرى، عائلة مسؤول كبير في الأمن. وبعد أشهر مرت بالمصادفة من أمام البيت عندما كانوا في زيارة لبيت عمتها القريب، كانت العائلة الجديدة قد اقتلعت شجيرات الدفلة من أمام الباب. بدلًا عنها، كان هناك «كرفان» يسكن فيه رجال حماية المسؤول الأمني.

عندها فقط أدركت ريم أن سوسن لن تعود أبدًا.

https://t.me/MktbtArab

تسفير «التبعية الإيرانية»

أقرت معاهدة لوزان -1924- بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بين الحلفاء والإمبراطورية العثمانية، مصير رعايا الأراضي التي كانت تحت سيطرة العثمانيين. فنصت المادة 30 من تلك المعاهدة على «الرعايا المقيمين عادة في إقليم منسلخ عن تركيا بموجب هذه المعاهدة يصبحون من رعايا الدولة التي تنتقل إليها تلك الأرض وفق الشروط التي يضعها قانونها المحلي». ووفق ذلك صدر قانون الجنسية العراقي الأول المرقم 42 في عام 1924. وحسب الفقرة الثالثة من ذلك القانون «كل من كان في اليوم السادس من أب 1924 من الجنسية العثمانية وساكنًا في العراق عادة تزول عنه الجنسية العثمانية ويعد حائزًا الجنسية العراقية ابتداء من التاريخ المذكور». في فقرة من شهادة الجنسية تلك سُجِّلت تبعية مواطن الدولة العراقية المتكونة حديثًا واعتُبِر أصله أو تبعيته عثمانية مستندًا إلى نص معاهدة لوزان.

لكن لم يكن كل المقيمين في العراق يملكون تبعية عثمانية، فالبعض منهم كان يحمل الجنسية الإيرانية وهو خيار كان يمتلكه المقيمون في العراق، وهنا حدث الإجحاف، فقانون الجنسية أعلاه لم يأخذ بالاعتبار وجود شريحة من المجتمع مقيمة في العراق، المتكون حديثًا، لكنها تحمل الجنسية الإيرانية، وهو اختيار آخر للجنسية كان لمواطني العراق حق الحصول عليه آنذاك، بعض هؤلاء كان إيرانيًّا في الأصل والبعض الآخر كان عربيًّا لكنه فضَّل التسجيل كإيراني لتجنب الخدمة العسكرية العثمانية. مُنِح هؤلاء الجنسية العراقية، لكن سُجِّل أنهم «تبعية إيرانية» في شهادات الجنسية التي حصلوا عليها. وبقيت تلك الإشارة فعَّالة لتشمل أبناءهم وأبناء أبنائهم.

في الأول من نيسان 1980 تعرض طارق عزيز -نائب رئيس مجلس الوزراء العراقي آنذاك- إلى ما اعتُبر أنه محاولة لاغتياله في أثناء زيارته للجامعة المستنصرية، حيث أُلقيت قنبلتان على موكبه عند بوابة الجامعة. نجا طارق عزيز من محاولة الاغتيال ولكن قتِل ثلاثة أشخاص (طالب وطالبة والشخص الذي قيل إنه كان منفذ العملية والمنتمي إلى حزب الدعوة، ومن أصحاب «التبعية الإيرانية»).

في اليوم التالي زار الرئيس صدام حسين الجامعة المستنصرية وألقى خطابًا أقسم فيه على الانتقام لضحايا التفجير.

https://t.me/MktbtArab

لاحقًا، بعد أربعة أيام من الحادث الأول تعرض موكب تشييع الضحايا إلى هجوم بالقنابل اليدوية قيل إن مصدرها كان أبنية فارغة استُغِلت سابقًا كمدارس إيرانية.

تلت الحادثتين حملةٌ واسعةٌ لتسفير العوائل التي تصنَّف ضمن «التبعية الإيرانية»، ورغم أن قرار التسفير قد صدر رسميًّا من مجلس قيادة الثورة في 7 / 5/ 1980 (وشمل مصادرة كل أموالهم المنقولة وغير المنقولة) فإن التسفير بدأ فعليًّا قبل ذلك وخلال أيام فقط من حادثة الجامعة المستنصرية، كما أن بعض القرارات الرسمية التي استهدفت حصر «التبعية» والتضييق عليهم صدرت قبل الحادثة بشهر تقريبًا.

أول حادثة تسفير معروفة في تلك الفترة كانت بتاريخ السابع من نيسان 1980 (أي بعد ستة أيام من التفجير) واستهدفت مجموعة من كبار التجار الذين استُدعوا للقاء أحد المسؤولين في غرفة تجارة بغداد، ولكنهم جُمعوا في شاحنات ووُضِعوا على الحدود.

لا يوجد إحصاء دقيق وواضح يحدد عدد الذين سُفِّروا لهذا السبب، لكن العدد التقريبي يتراوح بين 200 ألف ومليون شخص.

***

قرأ وليد ما نشرته سوزان قبل أن يعلِّق عليه أي أحد. تذكر سوسن مالك. لم يكن يعرف قط أن عائلتها كانت «تبعية»، ولم يعرف أنها سفِّرت. عندما حدث ذلك كان الأولاد قد أصبحوا في مدارس للذكور فقط، وعادة تنقطع أخبار البنات تمامًا إلا إذا كان هناك صلة عائلية مشتركة أو أخت تربط بين العالمين.

لكنه يذكر تلك الأيام. خالة «سميرة» كانت صديقة حميمة مقربة لوالدته، عندما حدث ما حدث في بيت وليد، وقفت خالة سميرة مع أمه، باتت عندهم لأيام لتساعدها. كانتا صديقتين مقربتين منذ أيام المدرسة. عندما انتشرت الأخبار عن تسفير التبعية قالت أمه إنها «تعتقد» أن زوج الخالة سميرة، عمو «رضا» قد يكون مشمولًا بالقرار. اتصلت بها على الفور، لكن الخالة سميرة لم ترد. ذهبت لها إلى البيت، وعادت بعينين محمرتين من البكاء. عمو رضا مشمول بالقرار فعلًا، وكذلك أولاد سميرة بطبيعة الحال. أما سميرة فيمكنها

https://t.me/MktbtArab

أن تبقى إذا طلبت الطلاق من زوجها، وستعوِّضها الدولة بمبلغ عشرة آلاف دينار مقابل ذلك.

بكت أمه بحرقة، وبكت شقيقاته أيضًا، الكبيرة رنا كانت صديقة لتمارا -ابنة الخالة سميرة- وشقيقته الوسطى رغد كانت مع ابن الخالة سميرة «محمد». قالت أمه وهي تبكي إن الخالة سميرة أخبرتها أنها همت بأن تبصق على وجه رجل الأمن الذي أخبرها بخيار ترك زوجها وأولادها لولا تدخل عمو رضا. قالت أيضًا إنهم جميعًا ينتظرون «دقة الباب» في أي لحظة، وإن عليهم أن يخرجوا بثيابهم «حرفيًّا»، وأن يتركوا كل شيء في البيت كما هو، لذا تركت بعض الحاجيات مع والدته، على أمل أن تعود وتستردها فيما لو تغيرت الأوضاع ذات يوم.

أكثر جملة موجِعة قالتها كانت إن الأولاد لم يعودوا يذهبون إلى المدارس خوفًا أن يحدث التسفير في أثناء وجودهم فيها، يرجعون من المدرسة إلى البيت فيجدون التسفير قد حدث في غيابهم.

بكى وليد في فراشه تلك الليلة، كان قد بدأ يكتشف أن إظهار الدموع لم يعد مناسبًا لرجولته، عالم الرجولة الذي دخله منذ أن غادر الابتدائية كان عالمًا قاسيًا موحشًا، وأي إظهار للضعف من قِبله سيزيد من أموره -الصعبة أصلًا- صعوبة وتعسيرًا.

في تلك الفترة بدأت أمه بالتدخين. بدأت بسيجارة واحدة مع فنجان القهوة في الصباح. ثم بدأ العدد يزيد.

في الفترة نفسها بدأ طقس آخر. شعيرة يومية انتظمت أمه على أدائها. تلك الشعيرة كانت «سب صدَّام».

***

محمد عبد الجبار تذكر أنه سمع بخبر تسفير سوسن، أو توقعه على الأقل. أقاربها كانوا جيرانًا لبيت جده في الجادرية، وكانت الزوجة مقربة من جدته. الرجل قريب سوسن كان تاجرًا مهمًّا، وكيلًا لشركة سيارات نسيها الآن، فيات أو رينو، ربما بيجو. الزوجة طلبت من جدته أن تحتفظ بكل الوثائق الخاصة بالجنسية العراقية للعائلة، هويات أحوال مدنية وشهادات الجنسية. كانت قد علمت أن هذه الوثائق تصادَر عندما تُرحَّل العائلة فتركتها احتياطًا عند جدته. أمانة الله ورسوله. كان بيتهم فخمًا يليق بتاجر كبير، فأسكنت فيه الحكومة

رئيسًا سوريًّا سبق أن لجأ إلى العراق بعد أن أطاح به انقلاب عسكري في سوريا. بعد 23 عامًا من كل ذلك سقط النظام وعرف الرئيس السوري السابق أن لا مكان له في هذا البيت أو البلد، فغادره فورًا، بعد يومين جاءت العائلة المسفَّرة. جدته كانت قد ماتت قبل هذا بسنوات، لكن عمته كانت محتفظة بالوثائق في الظرف الورقي الأسمر نفسه، أخرجته لهم مع دخولهم إلى البيت بعد غياب ثلاثة وعشرين عامًا. الأب كان قد توفي منذ سنوات طويلة، الأم كانت لا تزال بصحة جيدة، أخرجت الوثائق –وهي لا تزال على عتبة الباب، في الشارع– أخذت تبكي وتقول للمارة: «انظروا. اقرؤوا المكتوب هنا. نحن عراقيون. والله نحن عراقيون. هذه وثائق عراقية. لماذا فعلوا هذا بنا؟».

فرح أن أمور سوسن تبدو جيدة الآن. لم يكن يعرفها جيدًا. لا يعتقد أنه تبادل معها كلمة واحدة. لم يكن من الأولاد الذين يتحدثون مع البنات بسهولة. تارا جلست على مقعده نفسه في الصف الثالث، وكانا يتحدثان أحيانًا. لكن لا يتذكر أنه تحدث مع سوسن. على أي حال، ما حدث كان ظلمًا كبيرًا، يذكر لاحقًا أن والدته قالت إن للمسفرين «حوبة» سيدفع الجميع ثمنها. لم يكن يعرف معنى هذه الكلمة، فسألها عن معناها، فقالت له إن الظلم يرتد على الظالم وكل من ساعده في ظلمه أو سكت عنه. أحيانًا يفكر إن كان كل ما حدث للعراق هو حوبة المسفَّرين، ثم يتذكر أن قائمة «الحوبات» طويلة ولا تقتصر على المسفَّرين فقط. قبل أيام استخدمت هالة الكلمة أمام سما، فسألتها عن المعنى، تدخل هو ليشرح لها الأمر كما شرحته له أمه، الظلم يرتد على الظالم وكل من ساعده في ظلمه أو سكت عنه، بإرادة الله. لم تقتنع. لماذا وكيف ومتى ومجموعة أخرى من الأسئلة. تدخلت هالة في الوقت المناسب. قالت: «الحوبة هي «إسلاميك كارما»». حسِم الموقف فورًا.

قالت سما: «واو» كما لو أن إضافة كلمة واحدة إلى الموضوع تجعله مقبولًا بالنسبة إليها بعد أن كانت تجادل وتناقش في الموضوع نفسه.

***

يعرب كان حائرًا في تحديد موقفه. عرف سابقًا أن سوزان هي سوسن من تعليقها الذي ردت به عليه ثم مسحته بعد دقائق. لم يكن يعرف سوسن جيدًا، لكنه شعر أنهما بطريقة ما أصبحا في خانة واحدة، رغم أن مقدمات دخولهما إلى هذه الخانة كانت مختلفة. يعرب كان قد رضع شعارات «القومية العربية»

https://t.me/MktbtArab

في طفولته، مهما حدث لاحقًا ما كان يمكن أن يرتد عنها، حتى لو لم يعد يؤمن بها كما آمن والده «المناضل» بها، لكنها بقيت تغذي مشاعره وعواطفه على نحو لا يمكن التراجع عنه. لم تكن القومية التي رضعها قائمة على الاعتزاز بالعروبة فقط، بل كانت تتضمن أيضًا كراهية مزدوجة للقوميتين الجارتين: الفرس والترك. الفرس أكثر من الترك بسبب أن نظام الشاه بينما كان في حالة عداء مستمرة مع العراق، انكفأت تركيا إلى مشكلاتها الداخلية لسنوات طويلة. نظريًا كان يعتقد بصواب فكرة أن «التبعية الإيرانية» يمكن أن تكون ثغرة تسهّل المؤامرات على العراق من قِبل أي نظام إيراني، الشاه أو الخميني، لكن عمليًا، عندما تحول ذلك إلى «تسفير»، لا يمكنه إلا أن يتوقف في الأمر، ويقول في نفسه: هذا كثير. كان يمكن التشديد في مراقبتهم للتأكد من عدم تورطهم مع إيران.. لكن التسفير؟

ثم إنه في النهاية أصبح في خانة سوسن نفسها. بدرجة ما. بطريقة ما.

***

كان سرمد هو أول المعلِّقين على منشور سوسن. انتهى توًّا من جدول العمليات في المركز الجراحي التابع لمستشفى بومونت. بينما ألقى نظرة على هاتفه بعد أن أنهى التعقيم وهو يرتدي ملابسه.

ألقى بالتحية على سوسن وعبَّر عن أسفه لكل ما مرت به. قال لها إنه كان قد استعار منها شريطًا لديميس روسيس وبقي عنده لسنوات، وربما كان لا يزال موجودًا في أغراضه في بغداد. ثم علق قائلًا بأن وزراء العهد الملكي في العراق كان فيهم من يحملون أصولًا إيرانية دون أي مشكلة، كل شيء بدأ من سقوط الملكية وتحكم «الرعاع». هكذا كتب، ثم أعقبها «وانظري إلى أين وصلنا».

لم يحتمل يعرب تعليق سرمد فلم يمرِّره دون رد. كان في سهرته في مقهى زوكا كالعادة. قدح الشاي الرابع أو الخامس، وأركيلة بمعسل التفاحتين والمجموعة نفسها من الأصدقاء الذين يراهم كل يوم. أي حديث ضد الانقلاب على العهد الملكي كان يمسه بشكل شخصي، فوالده كان مؤيدًا للانقلاب، وإن لم يشارك فيه بشكل مباشر، لكن هذا الحكم الملكي كان عميلًا للاستعمار، كانت هذه عبارة شبه مقدسة عند يعرب. لم يفكر مرة أن يراجعها أو يعيد النظر فيها. اللاحقون من حاملي الشعارات الوطنية كانوا أسوأ دون شك، هذه

https://t.me/MktbtArab

لن يناقشها ولا يعارضها، لكن هذا لا يعني أن الحكم الملكي كان حكمًا راشدًا كما يحاول أمثال سرمد التلميح.

كتب: «ما علاقة الحكم الملكي وزواله بالقصة؟ بقي الإخوة من الأصول الإيرانية معززين مكرمين في بلدهم إلى أن جاء صدام. لماذا تخلط القصص يا سرمد؟».

لم يكن ما قاله يعرب دقيقًا، وكان يعرف ذلك، لكنه كان يعوِّل على أن سرمد لا يعرف تفاصيل ما يتحدث عنه.

في الحقيقة لم يكن هذا هو التسفير الأول الذي لحق بالعراقيين من أصول إيرانية، فقد سبق ذلك موجة تسفير أولى في بداية السبعينيات، لكنها كانت أصغر حجمًا من الثانية التي رحلت فيها سوسن وعائلتها.

«صحيح أن الأمر تحقق مع وصول صدام إلى السلطة، لكن كل الشعارات القومية والعروبية كانت تقود إلى ذلك بالتدريج، لا يمكن إنكار ذلك» كتب سرمد، ووضعت تارا علامة إعجاب على تعليقه، كانت تتابع بصمت.

لم يرد يعرب. ما قاله سرمد كان صحيحًا. بالإضافة إلى أنه لا يزال متعاطفًا مع الشعارات القومية والعروبية. ما رضعته في الصغر لا يمكنك أن تتخلص منه بسهولة.

كتبت تارا تعليقًا على منشور سوسن:

«حبيبتي سوسن، أنا آسفة جدًّا لكل ما مررت به. الحمد لله أنك بخير الآن، رحمة الله على الوالد. ما مررتم به مر به الأكراد قبل وبعد، وأكثر أيضًا. بل إن تسفير «التبعية الإيرانية» بدأ بالأكراد العراقيين الذين لديهم تبعية إيرانية، وهم الأكراد (الفيلية)، في بداية السبعينيات، قبل أي أحد آخر. عدا التهجير اللاحق في الثمانينيات والكيمياوي في حلبجة. على العموم، مرة أخرى أنا آسفة لكل شيء وسعيدة أنك بوضع جيد الآن، مبارك مقدمًا زواج كامران».

أرادت تارا أن تكتب أكثر عن تسفير الأكراد في السبعينيات لكنها لم تشأ أن تحول الأمر إلى «محاضرة للعرب كما لو كانوا جميعًا مجرمين أو شركاء في الجريمة» كما يقول لها سالار دائمًا كلما «ضبطها» متلبسة في حوار مشابه. لا، ليس دائمًا. لم يكن سالار هكذا دائمًا. كان متحمسًا أكثر منها، لكن مع مرور الوقت تغير، تغير تجاه كل شيء تقريبًا، تجاهها وتجاه القضية وتجاه الدين أيضًا. لقد صام رمضان الماضي. أخفى الأمر عنها. لم تنتبه في

البداية. تصورت أنه يقوم بحمية يفوِّت فيها بعض الوجبات. ثم ربطت الأمر: الأوقات التي يتناول فيها وجباته. شعرت كما لو أن الأمر خيانة شخصية لها. زوجها يصوم؟! واجهته. لم ينكر. ماذا تريدين مني؟ لم أكن ملحدًا مثلك في أي يوم من الأيام. لم أكن متدينًا أو مهتمًّا كثيرًا بالأمر. لكني لم أكن ملحدًا مثلك. الآن وصلت إلى العمر الذي قد يتغير فيه ذلك. «وربما يجب أن تغيري ذلك أيضًا». قال لها ذلك بالحرف. قال لها ما يعني أن عليه أن تغير موقفها من الإيمان رغم أنه يعرف أنها تربت عليه. أرادت أن تصرخ به وتعايره بأن جده «الملا» في القرية هو الذي يتحدث بلسانه وليس سالار مهندس الطاقة المتجددة. لكنها لم تفعل. نوزاد يضطرب جدًّا من الصوت المرتفع والكلام الحاد. تركته يصوم دون أن تفتح الموضوع مرة ثانية. بل إنها أخذت تعد له الطعام في مواعيد تتوافق مع صومه وإفطاره.

وضعت تارا روابط لأفلام وثائقية عما تعرَّض له الأكراد من مظالم في العراق، تعويضًا عن محاضرة كانت تتمنى لو ألقتها على أبناء صفها في الابتدائية.

تقريبًا ترك الجميع علامات إعجاب على تعليقها والروابط التي تركتها، لكن لم يعلِّق أي أحد منهم على شيء.

***

وجدت ريم نفسها في وضع لا يسمح بأي تعليق على ما كتبته سوسن. كانت أضعف من أن تعلِّق. قرأت منشور سوسن عدة مرات. تخيلت كل ما قالته سوسن كما لو كانت قد عاشته معها. حاولت تخيل ماذا كانت تفعل هي في أثناء ما مرت به سوسن. نعم، شعرت بالألم لفقدان صديقتها، بقيت مجروحة لفترة طويلة، لكن حياتها سارت على أي حال. سارت حسب الخطة التي وضعتها لها أمها. وجدت صديقات أخريات، ذهبت إلى أعياد ميلادهن، استمعت إلى الأغاني الجديدة وارتدت ثيابًا على الموضة، درست وحرصت على أن تكون الأولى، أحرزت معدلًا عاليًا في الثانوية، كانت تريد أن تدرس الهندسة المعمارية، لكن أمها أصرت أن تدخل كلية طب الأسنان، «طريقها أقصر، ساعات دوامها أفضل، وتكونين دكتورة أيضًا». ثم أجبرتها ترغيبًا وترهيبًا على القبول بزواج (مناسب بمعاييرها) بطبيب والده مسؤول ومن الأقارب البعيدين للرئيس والعائلة الحاكمة. المجد من جهتين. الدراسة

https://t.me/MktbtArab

والمنصب. لا بأس أن يتخذ الرجال طريق الطب الطويل، هذا أكثر ربحًا ووجاهة، لكن الأسنان أنسب للبنات.

خلال ذلك نسيت أي شيء تقريبًا عن سوسن. اللهم إلا إذا جاءت سيرة الابتدائية أو ذكر أحدهم موضوع التبعية.

الآن تكتشف أنها لم تنس قط، وأن جزءًا منها لا يزال ينتحب كما فعلت تلك الليلة عندما أخبرها والدها بكل شيء عن «تسفير» عائلة سوسن. كما لو أن تلك الطفلة لا تزال تعيش في مكان ما منها. وأيقظها منشور سوسن. سوزان الآن. ليست متأكدة إن كان هذا الوهن الذي تشعر به هو نتيجة لاستيقاظ الطفلة المنتحبة فيها، أم أنه السرطان الذي عاد من جديد يحرز نقطة أخرى في المعركة ضدها.

في اليوم التالي كانت لديها الجلسة الأولى من العلاج الكيميائي. لم ترغب في أن تتحدث مع سوسن قبل ذلك. لديها ما يكفي من التجارب مع الكيميائي في جولتها الأولى مع السرطان. تعرف أن اليومين التاليين سيكونان مرهقين للغاية، لذا أجلت أي حوار مع سوسن. ستنتظر إلى أن تخف أعراض الغثيان والقيء والصداع، ثم تتحدث معها.

قبل أن تبدأ الجلسة، وبعد أن قرأت الفاتحة والمعوذتين وقل هو الله أحد والشهادة، فتحت هاتفها وقرأت منشور سوسن ربما للمرة العاشرة.

ثم ضغطت على زر طلب الصداقة.

https://t.me/MktbtArab

-9-

كان وليد في انتظار الدكتور آلب عندما وصل إليه رد من شقيقته رنا على سؤال تركه لها قبل ساعات.

سألها: «ماذا كان اسم القاعة التي غنى فيها ديميس روسوس في بغداد؟».

تعليق سرمد على منشور سوزان ذكّره بالأمر. هذا الشريط الذي استعاره من سوسن كان يعود إلى وليد. في الحقيقة كان يعود إلى رنا شقيقته التي كانت معجبة جدًّا بديميس روسوس. هو كان يحب آبا وبي جيز وبوني أم. الفرق الرائجة آنذاك. رنا كانت تحب ديميس روسوس وداليدا وديانا روس وفريق الأوزموندز وفيروز. وكعادة الأخ الكبير أو الأخت الكبرى كان تأثيرها على الجميع واضحًا، وعندما جاء ديميس روسوس إلى بغداد عام 1976 أصرت رنا على حضور حفلته، وذهب الجميع إلى الحفلة، بما فيهم وليد الذي كان يبلغ التاسعة من عمره.

كتبت رنا: «لم تكن قاعة. كان مطعم الطاحونة الحمراء. المولان روج. ما الذي ذكَّرك بالأمر؟».

«المولان روج؟ أليس هذا ملهى؟ كيف دخلنا ونحن دون الثامنة عشرة؟».

ردت رنا: «ملهى أو مطعم أو نادٍ ليلي. شيء كهذا. ربما لم يكن هناك قانون يمنع دخول القاصرين آنذاك. لست متأكدة، ما الذي ذكَّرك؟».

سألها وليد: «تذكرين شريط ديميس روسوس الذي جلبه بابا من أثينا؟ الذي ضاع منك واتهمتِني بتضييعه؟».

https://t.me/MktbtArab

«نعم. ذا ديميس روسوس ماجيك. أذكره طبعًا. حزنت لضياعه. وجدته؟».

«تقريبًا. الحقيقة أني كنت قد أعرته لفتاة معي في الصف السادس، سوسن مالك، والآن اكتشفت أن سوسن مالك قد سفِّرت أيام تسفير التبعية، وأنها أعارت الشريط إلى سرمد صلاح الدين، تذكرينه أعتقد».

«أذكر سرمد. لكن كيف قادكم الحديث إلى التبعية وشريط ديميس روسوس؟».

«قصة طويلة. لكن لسبب ما تصورت أن حفلة ديميس روسوس كانت في قاعة الخلد».

«لا. فيروز هي التي كانت في قاعة الخلد. في السنة نفسها».

«آه صحيح، تذكرت الآن، شكرًا على الرد السريع، علي أن أذهب الآن».

دخل الدكتور آلب وهو يعتذر عن تأخره، مبتسمًا بتحفظ مهني كعادته، مع نظارة طبية بإطار جديد جعله يبدو أكثر جدية. لم تمنع الجدية وليد من التعليق: «مبارك. جميل هذا الإطار الجديد».

لم يستطع آلب أن يمنع الفرحة من الظهور على وجهه وهو يشكر « فارس بيه» على ملاحظته. فكر وليد: مهما كبرنا أو كبرت ألقابنا العلمية ومناصبنا، تكفي مجاملة صغيرة لجعلنا كأطفال فرحين بالعيدية.

- فارس بيه. كيف هي الأمور في المجموعة على الفيس بوك؟

سأل آلب بعد أن طرح الأسئلة المعتادة على وليد: كيف تشعر اليوم، كيف تشعر الآن تحديدًا، كم تعطي لنفسك علامة من عشرة؟

- لا أعرف كيف أصف ما يحدث. لكن يخيل إلي أنها بدأت تتحول إلى مكب للذكريات. إحدى الزميلات روت ما حدث لها بطريقة مؤثرة جدًا.

- هل هذا جيد أم سيئ؟

- جيد، مؤلم أيضًا، لكن جيد، على ما أعتقد.

- ما الذي تراه مؤلمًا بالضبط؟

- إحدى الزميلات روت ما حدث لها بعد سنة من تخرجنا في الابتدائية، رُحِّلت هي وعائلتها من العراق بعد مصادرة كل شيء منهم، مروا بظروف صعبة جدًّا، لكنها الآن في وضع جيد، تعمل محامية في أستراليا ولديها عائلة مستقرة.

https://t.me/MktbtArab

- لماذا رُحِّلوا؟

- جزء من سياسة الدولة في أثناء التمهيد للحرب مع إيران.

- ماذا أيضًا؟

- هناك زميل يبدو أنه طلَّق مرتين... لم يتحدث الآخرون بعد.

- هذا هو المؤلم. فما هو الجيد؟

- بصراحة. شعرت أن ما حدث مع سوسن أكبر بكثير مما حدث معي ولي. شعرت أنها أقوى مني، وأني لو مررت بما مرت به لما نجوت كما فعلتْ.

- هذا ما يحدث عادة في مجموعات الدعم، أحيانًا تكون مجموعات دعم متخصصة يتشارك فيها ناس يعانون مشكلات متشابهة، وأحيانًا يكون التشابه أقل، لكن غرضها واحد.. هل تعتقد أن مجموعة الفيس بوك هذه أصبحت مثل مجموعة دعم؟

- لا، ليس بعد، بدأت كمجموعة للم شمل، لكنها على وشك أن تتحول لتكون مجموعة فضفضة، على الأقل هذا ما فعلته سوسن، شعرت أنها تملك الكثير لتقوله، كما لو كان في داخلها لوم كبير لنا أيضًا، نحن الذين لم نفعل شيئًا لوقف ما حدث لها ولأسرتها.

- هل أنت مستعد لتشارك فضفضتك الشخصية؟

- لا. بالتأكيد لا. ليس بعد على الأقل، لا أزال محتفظًا بوجه وليد خالد، الأول على الصف، من الصعب أن أظهر لهم بوجهي الحالي.

- لكن وليد خالد يا فارس بيه يجب أن يكون أهم من وجهه عندهم. المهم هو ما تراه في المرآة وليس ما يرونه هم.

- الأمر معقد يا دكتور. لقد بنيت رؤيتي لنفسي على رؤية الآخرين لي، هذا خطأ بالتأكيد، لكن هذا الذي حدث معي في طفولتي، كان هذا أساسًا بنيت عليه شخصيتي، انتبهت لاحقًا إلى خطورة الأمر لكن من الصعب جدًّا تصحيح الخطأ عندما يكون في الأساسات.

- التصحيح يكون صعبًا إذا كنت تستخدم كلمات كهذه، مثل أساسات، وتقتنع بها أيضًا، القناعة هذه توهمك أن الأمر مثل محاولة تبديل قواعد

https://t.me/MktbtArab

وأساسات بناء عملاق، وهذا صعب عمليًّا بالفعل، ولكن لو اعتقدت أن الأمر مثل عملية زرع كلية أو كبد، فهو أمر ممكن ويحدث باستمرار.

فكر وليد أن الدكتور آلب جيد في اللعب بالكلمات كما يليق بطبيب نفسي أن يكون. في النهاية يبدو أن هذا مفيد. تتشكل المفاهيم بالكلمات، تبدو مقنعة كلما كانت الكلمات متقنة أكثر، ومن ثم تبدأ هذه المفاهيم بالتسرب إلى العقل، وتحل محل المفاهيم السابقة.

- أحتاج إلى زراعة ماضٍ إذن. هل هذا متاح؟

- لا للأسف. لا يمكن زراعة الماضي أو استبداله، ولكن يمكن فهمه من جديد، أو على الأقل التصالح معه، فارس بيه.

قال آلب ذلك مبتسمًا بلهجة منتصرة كما لو أنه يحسم النقاش.

هز وليد رأسه موافقًا. عندما يقدم الأمر هكذا، إعادة فهم الماضي، أو التصالح معه، هذا أمر مستطاع نظريًّا. هل يستطيعه -هو- عمليًّا؟ هذا شأن آخر.

- خبِّرني عن تواصلك مع عائلتك، فارس بيه، كيف هي الأمور؟

- هناك تواصل يومي. لكني لا أعده تواصلًا حقيقيًّا. صباح الخير، صباح النور، كيف الجميع، كيفك أنت... إلخ، لا يوجد حوار حقيقي إلا مع زوجتي تقريبًا.

- هل حواركم عبر الوتس آب أم عبر تواصل هاتفي؟

- مكتوب غالبًا. عبر مجموعة للعائلة، وفي أحيان نادرة عبر الهاتف مكالمات صوتية، مع زوجتي خصوصًا.

- هل يعرف كل أفراد الأسرة طبيعة المشكلة التي من أجلها أنت هنا؟

- نعم، يعرفون.

قالها وليد وهو يطأطئ رأسه، كما لو أن سؤاله يستحضرهم جميعًا أمامه الآن.

- وابنك؟ اسمه خالد صحيح؟ هل بينكما تواصل خاص؟

- خالد، نعم، هناك تواصل، لكنه صعب، صعب علينا نحن الاثنين على ما أظن.

- لماذا تعتقد أنه صعب عليك أنت؟

https://t.me/MktbtArab

- أشعر بالخجل منه. أشعر بأني خذلته. أشعر أيضًا أني ظلمته كثيرًا.

- تشعر بأنك خذلته كما تشعر بأنك خذلت نفسك عندما كنت في عمر الصورة؟

- أكثر.

- كم عمره الآن؟

- سيبلغ الخامسة والعشرين في الشهر المقبل، أكمل دراسة الطب منذ عامين، جامعة الشارقة، سيبدأ تدريبه التخصصي في جامعة جونز هوبكنز خلال العام القادم.

تغيرت لهجة وليد عندما قال الجملة الأخيرة على نحو انتبه له هو شخصيًّا. لو كان للفخر صوت لكان هذا الذي تلبَّسه في هذه الجملة. كان على وشك أن يخبر الدكتور آلب بالمعدل التراكمي الذي تخرج به: 3.6، وبنتائج اختبار المعادلة الأمريكي اليو إس إم إل إي الجزء الثاني الذي حصل فيه خالد على درجة 259 من 270 مما يضعه في نسبة العشرة الأوائل بين المتقدمين، لكنه أحجم عن ذلك.

- فارس بيه، هل تعرف أن وجهك وصوتك تغيَّرا عندما تحدثت عنه؟

لم يرد وليد. نعم كان يعرف. كانت روحه ساحة صراع بين الفخر به والخجل منه.

- صحيح، في رسالتك لنسختك في صورة التخرج قلتِ شيئًا عن أن كل شيء سيتغير بعد أسبوع من هذا اليوم، ماذا كنت تقصد؟

- كنت أقصد أن كل شيء سيتغير بعد أسبوع من هذا اليوم.

- حسنًا. ما رأيك أن تكتب رسالة أخرى له، لك، حدِّثه عما سيحدُث، حذِّره، ربما تكون هذه فرصة له لكي يتقبل التغيير الذي سيحدث على نحو أفضل.

ردد وليد: «رسالة أخرى؟».

- نعم، وسنناقشها معًا في الجلسة القادمة.

قال ذلك وهو ينهض ويتجه إلى الباب.

قبل أن يصل إلى الباب التفت وسأل: «فارس بيه، في ماذا سيتخصص خالد؟».

https://t.me/MktbtArab

عاد الفخر إلى صوت وليد: «جراحة الدماغ والجملة العصبية». قالها كما كان يقال اسم التخصص في العراق وليس مختصرًا «الجراحة العصبية» كما هو اليوم.

هز آلب رأسه بإعجاب ثم قال: «هل كان هذا تخصص الوالد أيضًا؟».

انكمش وليد كما لو أن آلب قد ألقى القبض عليه متلبسًا بجريمة.

قال: «نعم، كان هذا تخصصه. من أدنبرة».

هم آلب أن يفتح الباب. ثم التفت مرة أخرى وسأل: «وكان اسم الوالد خالد أيضًا؟».

ازداد انكماش وليد: «نعم. خالد. كان اسمه خالد».

ابتسم آلب ابتسامة صغيرة وهز رأسه كما لو أنه يقول: توقعت.

وخرج.

***

دون أي سابق إنذار أو رسالة تمهِّد اتصلت ريم بسوسن عبر الماسنجر في اللحظة التي وصل إليها إشعار أن سوزان كاشاني قد قبلت الطلب.

لم تحاول أن تحسب فارق التوقيت بين كاليفورنيا وسيدني. ما دامت قبلت الطلب الآن فالوقت مناسب لها. لم تحضِّر أي شيء لتقوله. سمعت دقات قلبها مع دقات الاتصال. ثلاث دقات. كل دقة تمر كما لو أنها دهر. ثلاثة دهور مرت قبل أن ترد سوسن.

صاحت سوسن فورًا: «ريمونة».

ردت ريم دون شعور: «سنسونة».

منذ ثلاثة وأربعين عامًا لم تسمع أي منهما من يناديها بهذا الاسم. ريم كانت تسمي سوسن سنسونة، وسوسن كانت تسميها ريمونة، اسمان حصريان اخترعته كل منهما للأخرى منذ أن كانتا معًا في الصف التمهيدي، ثم جاء الباص، واختفت سوسن، ولم تسمع أي منهما اسمها هذا.

وفجأة، ريمونة وسنسونة، تلقائيًا، كما لو أن أربعين عامًا لم تمضِ على آخر حوار بينهما.

لكن لدقائق، لم يحدث أي حوار. فقط نشيج. بكاء مر يصدر من عمق جروح وهموم لم تتنفَّس منذ أربعين عامًا.

كان صوت البكاء مسموعًا، متناغمًا، كما لو أنهما تتحاوران عبر الدموع، كما لو أن كلًّا منهما كانت تحكي للأخرى ما لا يمكن للكلمات أن تقوله. ريم كانت بكَّاءة، منذ الابتدائية، تبكي بسهولة، أي خطأ في الامتحان أو علامة ناقصة يمكن أن تسيل دموعها، بقيت كذلك طيلة حياتها، حتى بعد جولتها مع السرطان وما مرت به، تبكي على فيلم مؤثر أو مقطع على الإنستجرام أو وهي تسمع أغنية لإلهام المدفعي أو ياس خضر أو حميد منصور. سوسن كانت عصية الدمع، متمنعة، دمعتها عزيزة وغالية ولا تسيل بسهولة. عندما حدث ما حدث منذ أن جاء الباص، لم تبكِ لأشهر، إلا عندما سقط والدها مشلولًا، ثم عندما توفي. لكن اليوم، كما لو أنها كانت تختزن الدموع لخمسين عامًا، بركان وانفجر.

بعد أن هدأ حوار الدموع، بدأت الكلمات.

اختصرت كل منهما الأعوام الأربعين الماضية بكلمات مثل برقية عاجلة. قالت ريم: «تخرجت في طب الأسنان. تزوجت وتطلقت. عندي ديانا وعمر. أعيش في أمريكا. وأصِبت بالسرطان قبل عشر سنوات. أزلت الثديين».

ردت سوسن بعفوية: «الحمد لله على سلامتك حبيبتي ريمونة. ألف عافية».

أكملت ريم كما لو أنها تذكرت: «لكنه عاد. نسيت ذلك. انتشر. درجة رابعة. انتهى. سأموت خلال عامين يا سنسونة».

قالتها كما لو كانت تقول خبرًا آخر مثل خبر تخرجها أو طلاقها.

قالت سوسن: «لا يا حبيبتي، لا تقولي ذلك، أنت أقوى وستنتصرين».

قالت سوسن أخبارها: ركبَت القوارب إلى أستراليا مع شقيقها لؤي وشقيقتها بان، كان ذلك في 1995، وكانت قد أكملت دراسة القانون في إيران، درست مرة أخرى في أستراليا، تزوجت بعراقي «تبعية» مثلها جاء إلى أستراليا في السنة نفسها. لديها جاسمين وكامران.

قالت سوسن: «كيف خالة وعمو؟».

- الله يرحمهم. بابا مات في 1998، بعد سنة من سفري، لم أحضر العزاء، ماما التحقت بي وعاشت معي في كاليفورنيا. توفيت قبل خمس سنوات».

https://t.me/MktbtArab

- هبوش وتوفي؟

سألت سوسن عنهما كما لو كانا لا يزالان الطفلين، شقيقي صديقتها المقربة.

- هبة معمارية في هيوستن، ومصطفى طبيب أسنان أيضًا، في فرجينيا، كيف خالة وبان ولؤي ورشيد

- أمي ماتت قبل عشرين عامًا تقريبًا، في 2002. بان تزوجت في السويد، لؤي هنا في أستراليا، تزوج بعراقية «تبعية» مثلنا، لديه سلسلة مطاعم ناجحة (سكتت قليلًا ثم قالت) رشيد مات في إيران في ثاني سنة من ذهابنا.

- تعرفين؟ أول أيام تسفيرنا، كنت أقول بإلحاح لأمي إني يجب أن أرجع مجلات ريم لها لأنها استعارتها من بنت خالتها، تذكرينها؟ عددين من pink وmates. لم أتوقف عن ذلك إلا عندما أخذت أمي تلطم وتصيح: نحن بأي حال وأنت تريدين إرجاع المجلات لريم؟

سكتت ريم. أمها منعتها من أن تذكر اسم سوسن أو ما حدث لها أمام أي أحد. لا تريد أن يتذكر أي أحد أن ابنتها كانت صديقة لفتاة من «التبعية»، وبخاصة أنها كانت مقربة من زوجات وزراء ومسؤولين. بل إنها كانت تقرعها وتلومها على صداقتها بسوسن وتقول لها: «جلبتِ لنا الشبهات».

- ما أخبار البنات؟ هل تتواصلين مع أي أحد؟

- أتواصل أحيانًا مع دعد ياسين في لندن، زوجها كان صديقًا لدريد، طليقي، تارا معنا في المجموعة وهي في السويد، سارة في هولندا أو بلجيكا، لا أستطيع التمييز بينهما، عبير في دبي.

- وياسمين علي؟ هل لا تزال جميلة؟ تمنيت أن تكون ابنتي جاسمين في ربع جمالها.

سكتت ريم قليلًا ثم قالت: «الله يرحمها».

شهقت سوسن، كل ما سمعته من كوارث لم يجعلها تشهق، لكن عبارة «الله يرحمها» عن جميلة الصف كانت عبارة صادمة.

- كيف؟

- ماتت في ملجأ العامرية. حرب الكويت. الله يرحمها.

ياسمين علي

لم تكن ياسمين علي جميلة الصف السادس أحمر فقط، بل كانت جميلة مدرسة المنصور التأسيسية وكل المدارس التي دخلتها لاحقًا، متوسطة القادسية وثانوية بغداد للبنات، ثم كانت جميلة الجامعة التكنولوجية، وليس فقط قسم هندسة السيطرة والنظم حيث قبِلت هناك. في سنتها الأولى في الجامعة، انتشر خبر جمالها بين الأقسام كلها، فكان الطلاب يأتون من كل الأقسام فقط ليلقوا نظرة عليها. ومن ثم أصبح الأمر معروفًا على مستوى الجامعات الأخرى أيضًا في وقت لم يكن فيه للسوشيال ميديا وجود. كان طلاب الطب والأسنان والهندسة والإدارة والاقتصاد يتحينون الفرص للذهاب إلى أصدقائهم في الجامعة التكنولوجية، فقط لكي يشاهدوا ياسمين علي من بعيد، ومن ثم يعبرون الشارع من البوابة الرئيسية للجامعة إلى حيث مطعم spinach الذي يقدم الكص بالصمون الفرنسي، أو يتجهون إلى مطعم زرياب من البوابة الأقرب لقسم السيطرة والنظم، وهناك يتناولون لحمًا بعجين سيظلون يقولون إنه الأطيب في العالم حتى بعد سنوات طويلة.

خلطة جينات ياسمين علي تضمنت أفضل ما يمكن أخذه من جينات سلالتَي أمها وأبيها. بيضاء، شقراء، عينان واسعتان عسليتان، حُسن ساحق ماحق وطول شاهق مثل نخلة برحية في بيت الجد، وابتسامة عريضة مع غمازتين تضع ابتسامة على وجوه الجميع. كانت مزيجًا غريبًا من أودري هيبورن وبروك شيلدز وسعاد حسني وقد خِلطن جميعًا في شامة حسناء كالقمر. من أين جاءت هذه الجينات؟ القدر وحده يفسِّر الأمر. لا أصل غير عراقي معلوم لعائلتها من الجهتين، إلا جدة شامية لأمها، لا يمكن وحدها أن تفسر كل هذا الجمال.

لكن تحت هذا الجمال المثير للشهقة وتلك الابتسامة العريضة بغمازتين كانت هناك مشكلات كبيرة بين والديها انتهت بالانفصال –دون الطلاق الرسمي– ودون أن يعرف أحد بالأمر. أيامها كان الطلاق سرًّا يتكتم عليه الجميع، وكذلك الانفصال. عيب. ماذا يقول الناس؟ أمها مطلَّقة. لا. كل شيء بخير. وخلف الأبواب لدى الجدران ما تقوله، لو كانت تتحدث.

ياسمين كانت يتقدم لها الخاطبون باستمرار، تقريبًا كل طلاب الجامعة التكنولوجية أحبوها في مرحلة ما. تقدم لها العشرات دون مبالغة. عدد من تقدم لها رسميًّا تجاوز الأربعين. أساتذة في الجامعة وأطباء ومهندسون من مختلف الأعمار. صديقاتها كن يتندرن: «ياسمين علي بابا والأربعين حرامي».

https://t.me/MktbtArab

لكن ياسمين أحبت شخصًا لا يبدو من مواصفاته الخارجية أنه قادر على منافسة أربعين حرامي. مصطفى علي ثابت. زميلها في قسم البناء والإنشاءات. والده محاسب في جامعة بغداد، ووالدته معلمة ابتدائية في مدرسة الخندق. أحبته وأحبها. خطبها عندما كانا في السنة الثالثة. أمها كانت ترى أن ياسمين لديها فرصة أفضل. لكن ياسمين أصرت وهددت وبكت وامتنعت عن الطعام، وكان مصطفى رجلًا بحق في عين أبيها، فوافق على الخطوبة، وقبلت أمها على مضض أولًا، ثم أحبت مصطفى وأسرته وأزالت تحفظاتها.

تزوجا بعد تخرجهما بسنة، حفل زفاف بسيط في نادي المنصور، الزفة بسيارة أولدزموبيل تعود إلى صديق مصطفى، سكنت ياسمين في «مشتمل»، دار صغير ملحق بدار أهل زوجها.

عندما اندلعت حرب الكويت في يناير 1991 كان مصطفى يؤدي الخدمة العسكرية الإلزامية في وحدة عسكرية قرب الرضوانية غرب بغداد، منطقة خطرة تعرضت للقصف كثيرًا. كان يتصل بها ليطمئنها في الأيام الأولى، ثم انقطعت الاتصالات بسبب قصف مراكز الاتصالات. ياسمين كانت حاملًا آنذاك في شهرها الخامس. ذهبت إلى بيت أهلها في الحارثية، لكن البيت كان خطرًا لوقوعه بالقرب من مبنى المخابرات، قرروا الذهاب جميعًا إلى بيت خالتها في العامرية، وهناك سمعوا عن أن الملجأ القريب فيه كهرباء وأجهزة تلفاز ووسائل راحة لم تعد متوفرة في البيوت العادية بسبب انقطاع الكهرباء، والأهم بالنسبة إلى ياسمين: في الملجأ لا أصوات قصف كتلك التي تسمعها طوال الليل في البيت، مع كل قنبلة أو صاروخ يسقط كانت تفكر في مصطفى وتحاول أن تحدد اتجاه الصوت لتعرف إن كان الانفجار قريبًا من الرضوانية أو في الاتجاه المعاكس. ذهبت ياسمين مع خالتها إلى الملجأ لتجربا المبيت فيه ليلة واحدة فقط. كانت تلك هي ليلة الثالث عشر من شباط فبراير. قبل الفجر، في الرابعة والنصف صباحًا، قصفت الطائرات الأمريكية الملجأ بقنابل ذكية اخترقت جدران الملجأ وأشعلت فيه النيران. لسبب ما لم يتمكن أحد من فتح أبواب الملجأ الحديدية العملاقة، ومات كل من في الملجأ حرقًا واختناقًا.

كانت أم ياسمين ضمن الأهالي الذين وقفوا على أبواب الملجأ صباحًا ليعرفوا ما حل بأقاربهم. جاء وزير الإعلام لطيف نصيف جاسم ليتفقد الموقع، هجمت عليه أم ياسمين وبصقت في وجهه وهي تصرخ: «*تجيدون إطلاق الصواريخ على إسرائيل لكن باب الملجأ لا تعرفون كيف تفتحونه*».

https://t.me/MktbtArab

لم يرد عليها بشيء. مشي دون أن يمسح البصقة عن وجهه.

قُضي في على الحادث 408 ضحية، منهم مائة وإحدى وستون امرأة، واثنان وخمسون طفلًا رضيعًا. جنين ياسمين لم يحسَب بين الضحايا.

مصطفى لم يتزوج مرة أخرى إلا بعد عشرين عامًا. أنجب طفلة واحدة، أسماها ياسمين وأصبح يناديها: ياسة... كما كان ينادي زوجته ياسمين علي. جميلة صف السادس أحمر.

الهجمات الصاروخية على إسرائيل

في الثامن عشر من كانون الثاني يناير 1991، وبعد يوم واحد فقط من بدء العمليات العسكرية لقوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة ضد العراق لإخراج الجيش العراقي من الكويت، شن العراق أول هجماته الصاروخية عبر صواريخ «سكود» على مدن «إسرائيل اللقيطة» حسب تعبير البيان العسكري العراقي. وكان صدَّام قد حذر سابقًا بأنه لو تعرض العراق إلى ضربة عسكرية فإن الضربة الثانية ستكون موجهة لإسرائيل. وكان هدف هذه الهجمات كسر التحالف الدولي ضده، باعتبار أن الدول العربية ستكون محرجة من البقاء في هذا التحالف لو أن إسرائيل ردت على الضربات الصاروخية العراقية. لم تنجح هذه الخطة لأن الولايات المتحدة ضغطت على إسرائيل لعدم الرد وجهزتها بمنظومة باتريوت الدفاعية ضد الصواريخ. رغم ذلك قوبلت هذه الهجمات بفرح واسع على المستوى الشعبي باعتبار أن هذه هي أول مرة يضرَب فيها عمق الأراضي المحتلة، ويروى أن الجنود في الجيوش العربية المشاركة في التحالف الدولي ضد العراق كانوا يحتفلون بإطلاق العراق لصواريخ على إسرائيل.

أطلق العراق 43 صاروخًا في تسعة عشر هجومًا صاروخيًّا على مناطق مختلفة في الأراضي الفلسطينية المحتلة وبخاصة تل أبيب وحيفا.

لم تنشَر تفاصيل دقيقة عن الخسائر التي سببتها هذه الصواريخ إلا بعد ثلاثين عامًا من وقوع الهجمات، حيث كشف الأرشيف العسكري عن وقوع 14 قتيلًا و229 جريحًا نتيجة الهجمات الصاروخية، وهو رقم عُتِّم عليه لثلاثين عامًا.

أثارت الصواريخ موجة من الهلع والذعر في إسرائيل وبخاصة بسبب الخوف من أن تحمل الصواريخ رؤوسًا كيميائية. وهو ما لم يحدث.

https://t.me/MktbtArab

-10-

نشر حساب السادس أحمر مجموعة من الصور في منشور واحد. توقيت النشر كان بعد منتصف الليل في اسطنبول وعمّان. التوقيت نفسه الذي وصل فيه إشعار المجموعة الأول.

كانت الصور من سنوات مختلفة لتلاميذ شعبة السادس أحمر قبل أن يصلوا إلى الصف السادس، صورتان من صف الثالث أحمر، في اليوم المفتوح الذي يزور فيه أولياء الأمور المدرسة ليدخلوا إلى صفوف أبنائهم في أثناء الدروس ويشاهدوا بأنفسهم تفاعل أبنائهم مع الشرح وأسئلة المعلمات.

واحدة من الصور كانت لدرس «التربية الإسلامية»، المدرسة كانت الست سعاد القصاب تظهر من بعيد، الصورة مأخوذة من نهاية الصف، خمسة طلاب يصلون أمام الصف. وليد، وسرمد، ويعرب، ورغد، وتارا. الأمهات يقفن على جانبي الصف. أم يعرب أكثرهن وضوحًا، وتقف بجانبها أم ريم، وخلفها أم سرمد وأمهات أخريات أقل وضوحًا. الصورة الأخرى من صور اليوم المفتوح كانت لمدرسة الإنجليزي الست آمال وهي تشرح درسًا على السبورة، وتظهِر الصورة التلاميذ الجالسين في الصفوف الأولى: تارا ودنيا جمال وسارة عماد وعبد الله مزاحم.

صورة أخرى لمدرسة اللغة الإنجليزية الست مارثا وهي تقف مع مدرسة الاجتماعيات الست فائزة العاني والست فائزة الصفّار وبجانبهن سرمد صلاح الدين ووليد خالد وليث محسن. كانت الست فائزة العاني تشبه الست فائزة الصفَّار على نحو ما، وكانتا صديقتين حميمتين.

https://t.me/MktbtArab

صورة ثالثة تجمع بين ريم مظفر وسوسن مالك وياسمين علي مع مدرسة الرياضة الست نهى.

وصورة أخرى لمدرسة الصف الأول أحمر، الست كريمة الجزراوي، وهي تقف مع ستة من تلامذتها لكن بعد أن أصبحوا في الصف الخامس أو السادس. سرمد ووليد ومحمد عبد الجبار وليث صبيح وعبد الله مزاحم وعلي محمود.

***

وضع يعرب علامات إعجاب على كل الصور ثم أخذ يتأمل في كل صورة على حدة. حسه الأمني أخذ يتحرك لمحاولة معرفة مصدر هذه الصور. كوَّن فكرة سريعة عن الأمر، ثم أعاد قراءة المنشورات التي نشرها حساب «السادس أحمر» منذ البداية. فعل ذلك وهو في السرير بعد أن عاد من جلسته اليومية في «زوكا». فتحت زوجته عينها وتمتمت بعبارات فهم منها أنها تتذمر كعادتها من علاقته بالهاتف. كف عن التعليق عن الأمر منذ زمن طويل. عليها أن تشكر ربها ليل نهار لأنه لا يتحدث مع «الفتيات» على الهاتف أو عبر أي وسيلة أخرى. هي تعرف ذلك جيدًا، تعرفه أكثر مما يجب. شخص في إمكانياته المادية وفي عمره يمكنه أن يكون «شوجر دادي» بسهولة، وهي الموجة الدارجة الآن. تعرض للتحرش والغزل من قِبل الفتيات بعد أن بلغ الأربعين أكثر بكثير من أي ما تعرض له في شبابه. يحاول أن يقنع نفسه أنه أصبح أكثر وسامة بعد أن نضج، وأن «طلائع الشعر الأبيض» على صدغيه هي التي جعلته جذابًا في أعين الفتيات وليس سيارة المارسيدس أو البي أم دبليو التي يركبها، على أي حال هو يعرف طبعًا أن المارسيدس وما تعنيه من إمكانيات مادية أكثر جاذبية من الشعر الأبيض، لكنه يضع نسبة سبعين إلى ثلاثين، لصالح المارسيدس، ويقول لنفسه: الثلاثون ليست قليلة.

كان يمكنه أن يفعل الكثير كـ «شوجر دادي»، لكنه لم يقترب من الحرام منذ أن تزوج. لم يكن متدينًا، عدا فترة التسعينيات من حياته، الآن يصلي حين يتذكر فقط، في رمضان ينتظم أكثر ويصليّ التراويح في مسجد «الروضة المباركة» القريب حيث يتألق صوت أحد القراء، كما يحرص أن يصلي الفجر حاضرًا في مسجد «مصعب بن عمير» الأقرب لمنزله. يدعو الله في كل رمضان أن يثبته وأن ينتظم أكثر على الصلاة بعد رمضان، لكن همته تفتر

https://t.me/MktbtArab

بعد صلاة العيد فورًا. على هذه الحال منذ عشرين عامًا. لكنه لم يفعل الحرام قط. يتحرى الشرع في كل معاملاته المالية. يستفتي إمام مسجد «ضرار بن الأزور» تحديدًا لأنه يثق به، وأحيانًا يضطر إلى أن يبحث في جوجل عن فتاوى مخالفة عندما يجد أن الجواب قد أوصد في وجهه باب منفعة كبيرة. لكن بالعموم يلتزم بوجود وجه شرعي في أغلب معاملاته. ويدفع زكاته حتى الفلس الأحمر أول كل شهر رمضان من كل عام. يطلب من محاسب الشركة أن يعد كل شيء قبل شهر على الأقل.

زوجته تتذمر من الهاتف بحكم العادة لا أكثر، كما تفعل مع بناتهما، إلا عندما تكون هي من يستخدم الهاتف، لكن هي تعرف أن لا شيء يحدث في الهاتف مما يمكن أن يغضبها أو يعكر ثقتها به.

في الغالب هي لا تهتم بذلك أصلًا. هذا ما يعتقده يعرب. عندما كان هناك شيء ما على وشك الحدوث، قبل أعوام مضت، لم تنتبه ولم تشك ولم تر كل الأعلام الحمراء التي كانت ترفرف حوله مثل إمبراطور في أثناء عودته منتصرًا من الحرب. زوجته لم تنتبه ولم تكتشف. والدته فعلت كل شيء نيابة عنها. هي التي شكَّت وراقبت وأجرت تحقيقاتها وتحققت ثم واجهته. لا يعرف كيف وصلت إلى ما وصلت إليه لكنها وصلت. طلبت منه أن يزورها بحسم وبطريقة شعر بأن هناك مصيبة قادمة. تخيل أن زوج رنا قد عاد إلى سيرته الأولى في الشرب، أو أن رشا لديها مشكلات مالية مجددًا. ذهب إلى بيتها في عبدون فورًا، وعندما رأى ملامح وجهها جامدة وجادة دون أي ترحيب عرف أن الأمر أكبر من المعتاد، سألها: «هل رنا بخير؟ هل تحتاج رشا إلى شيء؟»، لكنها وبخته فورًا: «هذه المرة أنت يا فرحتي وخيبتي وفشلي. ألف «وسفه» عليك».

حصرته في الزاوية مثل كلب سائب ضل طريقه فدخل المسجد. شتمت السكرتيرة الساقطة «نيران» ونعتتها بألفاظ لم يتعود على سماعها منها. أخرجت تاريخًا كاملًا لأمها وشقيقاتها بالأسماء وبنعوت مشابهة لا يمكن إلا أن تحذَف فيما لو كان كلامها مذاعًا في أي برنامج تلفزيوني.

قال لها إنه يريد أن يتزوجها على سنة الله ورسوله. شتمته هو هذه المرة، لكن بألفاظ أخف تعود عليها منها طيلة تربيتها له. يا حمار يا كلب يا حقير. تريد أن تتزوج على زوجتك. نال زوجته هي الأخرى من طيب الشتائم نصيب. لكن بدرجة أخف أيضًا. الغبية المغفلة الباردة. قالت له بوضوح إنه ليس ابنها ولن تعرفه أو تتحدث معه مطلقًا لو تزوج على زوجته. ليس لأن زوجته هي

https://t.me/MktbtArab

ابنة شقيقها، وليس لأن هذا الشقيق هو الذي احتواه وكفله وجعله ما هو عليه اليوم من مركز ومكانة. أصرت أنها لا تريد أن تذكِّره بأفضال خاله عليه بينما هي تعددها واحدة تلو الأخرى. لكن هذا ليس سبب موقفها. بل لأن والده في قبره سيتعذب لو عرف أن ابنه سيتزوج على زوجته. لأنه كان ضد «التعدد».

جديدة هذه. فكر مع نفسه. كل البعثيين ضد تعدد «الأحزاب» بالضرورة. هناك حزب واحد فقط يقود الأمة -ولو إلى حتفها- وهو حزب البعث العربي الاشتراكي. لكن أن يكون والده القيادي البعثي ضد تعدد الزوجات؟

سألها وهو مصدوم: «أبي كان ضد تعدد الزوجات؟».

قالت بحدة: «نعم، وكان يسعى لمنعه بالقانون. دفع باتجاه إجراء تغييرات في قانون الأحوال الشخصية العراقي ولولا أن حدث ما حدث لكان تحقق ذلك».

- لم أسمع بذلك من قبل.

قال ذلك وهو يفكر في أن الأمر -لو صح- كان سيجعل البعض يترحم على والده، والبعض الآخر يلعنه. اللاعنون أكثر، غالبًا. ثم فكر أن القانون المفترض كان سيلغى لاحقًا بكل الأحوال بعد 2003.

- وماذا تعرف أنت؟ كنت طفلًا بحفاضة عندما مات والدك، لن تعرف هذا الأمر بالتأكيد.

طفل بحفاضة؟ كان في الثانية عشرة عندما مات. لكنه في الغالب لا يزال بالنسبة إليها لا يزال طفلًا بحفاضة عندما يتطلب الأمر ذلك.

- لم تقولي لي شيئًا عن هذا من قبل. فجأة والدي كان ضد تعدد الزوجات؟

- هل سألتني عن الأمر من قبل؟ لم تأت مناسبة ولم أفكر أنك ستكون حمارًا لهذه الدرجة بحيث تفكر في أن تتزوج على ابنة أخي وأم أولادك التي تحملتك وتحملت دخانك وكرشك كل هذه السنين. هل تعتقد أن علي أن أخبرك بكل شيء؟ وهل تظنني سأكذب عليك في أمر كهذا؟ من تظن نفسك؟ هل أنت صدام؟ هل لدينا صدام في البيت؟

سيل منهمر من الأسئلة والشتائم والاتهامات. لكن السؤال الأخير كان منطقيًا جدًّا وطالما طرحه على نفسه عندما كان في مواقف مشابهة. هل لدينا صدام في البيت؟ لكن سؤاله كان يشير إليها هي، وليس هو.

https://t.me/MktbtArab

قالت له بصوت قاطع: «اذهب وتوضأ أولًا -الله أعلم ماذا فعلت في المكتب- ثم اجلب القرآن من الستاند».

القرآن الكبير الذي تضعه على الحامل المخصص لذلك، حيث تقف أمامه وتصلي وهي تقرأ منه. تريد منه أن يقسم على المصحف الذي تستخدمه في صلاتها دون غيره.

ذهب خانعًا وهو يجر رجليه جرًّا. توضأ. لم يكن قد فعل أي شيء في المكتب لا اليوم ولا أي يوم آخر لكنه أراد أن ينهي الأمر.

- ضع يدك على المصحف واحلف أنك ستطرد السكرتيرة الساقطة نيران ولن تتصل بها مجددًا أبدًا ولن تفكر في الزواج على مها من جديد.

نفذ الأمر ولكنه حذف كلمة «الساقطة». لم تطلب منه إعادة القسم مع ذكر الكلمة. الحمد لله، لكنها طلبت منه ما هو أسوأ.

قالت: «قل «ولا أقول بقلبي كذب»».

صرخ: «أمي. لست في الثامنة».

- لا، لست في الثامنة. عندما تفكر في الزواج على زوجتك أنت أصغر من ذلك. أنت في السادسة. قلها.

قالها مكملًا القسم: «ولا أقول بقلبي كذب».

نظرت إليه بحدة ثم قالت: «الآن أقسم «بروح أبيك» إنك لن تفكر في الزواج بثانية، حتى بعد وفاتي».

أرجوك كفي عن ذلك. قال في نفسه. تعرف كم يؤلمه هذا القسم.

قالت بحدة: «أقسم».

فعل بسرعة لكي لا تكرر كلمة «روح أبيك».

وانتهى الأمر تمامًا، ولم تعرف زوجته بكل ما حدث. كان على وشك الزواج بنيران بالفعل. والدته هي من حسمت المعركة نيابة عن ابنة شقيقها التي نعتتها بالمغفلة الغبية الباردة لأنها لم تنتبه لما يحدث خلف ظهرها.

ترك السرير وجلس على الكنبة وأخرج السيجارة الإلكترونية. مسموح أن يستخدمها في البيت وفي غرفة النوم كما يحلو له لأن رائحتها ليست مثل السجائر الاعتيادية. فضل ونعمة. تساءل مع نفسه لماذا تذكر كل هذا الآن. هل للصور التي نشِرت في المجموعة علاقة بذلك. هل ذكرته طفولته بأن

أمه لا تزال تعامله كطفل؟ لكن هذا ظلم لها. منذ أن حدث ما حدث وهي تعامله كرجل البيت. لكن في اللحظة التي يخطئ فيها فهي ترجِعه طفلًا يتلقى التأنيب والعتب واللوم وكل أساليب التربية البغدادية التقليدية. إلى حد بعيد نجحت خطتها. أو هكذا يظن. وكذلك تظن هي. وربما يظن الجميع. لكن الأمر ترك بالتأكيد جروحًا لا تندمل. بفارق أنها جروح لا يعرف أحد بها سواه. أمام الجميع هو رجل الأعمال والمقاول الناجح الذي لديه سمعة كالألماس الحر في السوق. لكن أمامها يمكن أن يرجع طفلًا مات والده للتو وهي تؤنبه وتهزه بعنف كي لا يبكي.

كيف وصل تداعي الذكريات إلى هنا؟ صور المجموعة اللعينة. من خلف هذه الصور يا ترى؟ لا بد أن يكون أحد أعضاء المجموعة. لماذا لا يعلن أو تعلن عن هويته أو هويتها؟ لماذا لا يشك الجميع بما يحدث؟ هل يعرفون جميعًا من يكون مؤسس المجموعة باستثنائه؟ هل أعلن صاحب الحساب عن نفسه في منشور وفاتته قراءته؟ راجع المنشورات بسرعة. لا شيء. ثم راجع الصور الأخيرة. سرمد ووليد يتكرران في أغلبها. بالتحديد فيها كلها عدا واحدة فقط تظهر فيها البنات فقط. في الغالب يقف سرمد أو وليد خلف المجموعة. سرمد أم وليد؟ وليد محتمل أكثر. سرمد يبدو أقل جفافًا من أن يفعل ذلك. وليد كان عاطفيًا وأخرق بدرجة ما. ثم إنه تأخر في الانضمام إلى المجموعة كما لو أنه يرغب في عدم لفت الانتباه له. لكن لماذا يفعل ذلك؟

دخل على حساب «السادس أحمر»، الحساب فارغ تمامًا. لا معلومة واضحة عنه. لا تاريخ أو مكان للولادة. لا شيء عن دراسته أو مكان معيشته. لا أصدقاء. حساب مجهول تمامًا.

أرسل له رسالة: «من أنت؟».

رأى فورًا أن الرسالة قُرِئت في لحظة إرسالها.

صاحب الحساب على الخط. انتظر أن يرد. أراد أن يكتب له مجددًا. أن يسأله: ماذا تريد من كل هذا؟

أرسل إشارة استفهام فقط.

انتظر لدقائق وهو ينفخ الدخان في هواء الغرفة.

بقيت الإشارة دون قراءة.

هرب الجبان. أغلق الهاتف، وعاد إلى السرير، ثم فتحه مجددًا.

https://t.me/MktbtArab

لم يقرأها بعد. الجبان.

***

تصفح محمد عبد الجبار الصور بسرعة. كان قد خرج من عشاء عمل مع مستثمر عقاري عراقي من الواضح أنه واجهة لغسيل أموال جهة سياسية ما في العراق. مر عليه كثيرون من هؤلاء. كان مترددًا في البداية. هذه الأموال التي يريدون تبييضها حرام أكيد. لكن هل ما يفعله حرام؟ رفض بحدة في البداية، ثم أخذ يعتذر مترددًا. بعدها أخذ يسأل هنا وهناك عن حرمة ما يفعله. وجد نفسه وهو يقترب أكثر من الأجوبة التي تشترط أن يتأكد قبل الرفض. هل هو متأكد أن هذه الأموال مصدرها حرام؟ هو متأكد بحكم التوقعات عن الوضع في العراق فحسب، لكن من يدري؟ ربما هو سوء الظن فحسب. ربما مصدرها حلال كأي حلال آخر. كيف يمكن له أن يتأكد؟ عليه أن يسأل من يأتي بها. لكن هل سيرد بصدق؟ ما عليه. الخطيئة برقبته. كان يشترط أولًا أن «يقسم» المستثمر إن المال حلال وإنه ليس غسيلًا للأموال. لمح التردد في أعين البعض، لكنهم أقسموا. ثم كف عن هذا الطلب. علينا بالظاهر. لكن في نفسه شيئًا. لم يمت هذا الشيء تمامًا. يستيقظ بين الحين والآخر. صور الصلاة في الصف الثالث لم توقظ هذا الشيء فحسب، بل أشعلته. تعلم الصلاة في المدرسة، ليس من البيت. لم يكن أحد يصلي في البيت غير جدته التي توفيت عندما كان في الصف الثاني. الست سعاد القصاب شرحت أركان الصلاة مع صور توضيحية. قالت لهم أن يسأل كل منهم أهله إن كان عليه أن يضع يديه على بطنه أو ينزلهما. واحدة من الفتيات رفعت يدها بثقة وقالت إن الفتيات يصلين وأيديهن نازلة والأولاد يصلون وأيديهم على بطونهم. أسكتتها الست سعاد وهي تكتم ضحكتها. أغلبهم لم يفهم السؤال. هو أيضًا لم يفهم. البعض جاء بجواب مربك. أمي قالت أنزل يدي وأبي قال على البطن. أولئك الذين نسوا أن يسألوا كان وضعهم مربكًا أكثر. مرة على البطن ومرة نزولًا. ذهبت إلى ليث صبيح وهي تهز رأسها وقالت له: «أنت تحديدًا يجب أن تضع يديك هكذا». وصلحت له الوضعية.

بعض الأهالي أجابوا باختصار. بطن أو على الجانبين. آخرون أجابوا بقليل من التوضيح. سنة وشيعة. كانت هذه أول مرة يسمع فيها هاتين الكلمتين. أغلبهم كان هذا تعارفهم الأول مع الكلمتين. لم يخطر ببالهم قط

https://t.me/MktbtArab

أن هاتين الكلمتين ستحددان مصير البعض منهم، وأن أشخاصًا من الطرفين سيقتلون، فقط لأنهم ولِدوا على الجهة الأخرى.

عندما تعلم الصلاة في درس الإسلامية في ذلك اليوم، عاد إلى البيت كأنه يحمل اكتشافًا جديدًا. بحث عن سجادة جدته ووضعها على الأرض وأعاد القيام بوضعيات الصلاة التي شرحتها الست سعاد. والدته لم تكن تصلي لكنها فرحت بفرحه بالصلاة. والده لم يكترث وغالبًا لم يهتم. لم ينتظم وقتها على الصلاة، لكنه بقي مهتمًا بها. اكتشف بعد مدة طويلة وبالمصادفة أن اتجاه القبلة كان خاطئًا. جاءت عمة أبيه وطلبت أن تصلي وسألت عن اتجاه القبلة. حدث ارتباك واضح بين أمه وأبيه ولم يعرفا كيف يحددان القبلة. جاء هو ووضع السجادة بالاتجاه الذي يضعه دائمًا، لكن عمة أبيه لم تقتنع. سألت عن اتجاه شروق الشمس وغروبها وحددت القبلة وهي تتمتم بكلمات غالبًا كانت تشتمهم فيها.

بينما هو يركب قطار الأنفاق راجعًا إلى المنزل حاول أن يتذكر إن كان قد شاهد فيلم الرسالة في السنة نفسها. نعم. السنة نفسها، لكن في نهايتها. كان قد أصبح في الصف الرابع. ثاني أيام عيد الأضحى في سينما بابل. ذهب مع والده وشقيقه أحمد، والدته بقيت مع شقيقته دنيا التي كانت صغيرة ولا يمكن أن تصبر على فيلم يتجاوز ثلاث ساعات. سلب الفيلم لبه. قفز وهو يشاهد حمزة وهو يصفع أبا جهل، وصفق مع الجمهور عندما ظهر سيف علي بن أبي طالب على الشاشة، انفطر قلبه عندما أصاب رمح وحشي قلب حمزة، هز والده وهو يسأله: «هل سيموت؟ هل سيموت؟»، كان يريد جوابًا مطمئنًا بالنفي، لكن والده رد بجواب بارد: «أعتقد نعم».

مع تحطم الأصنام في نهاية الفيلم، شعر بأنه يحلق في سماء قاعة السينما. حمل المشهد معه وتخيله كثيرًا وهو يشارك شقيقه أحمد في تحطيم الأصنام.

مع الوقت تغيرت النظرة، أصبح أحمد هو «هُبَل» –كبير الأصنام– الذي يريد تحطيمه. ثم أصبح شعوره بالذنب تجاه أحمد. شعوره أنه هو الذي تسبب فيما حدث له. يحمل هذا الشعور معه كصنم لا ينفع معه معول المنطق ولا معول التقادم. أضيفت إليه نسخ كثيرة هذا الـ (هُبَل). أحيانًا أصبح رمزًا لشهواته وعاداته وكسله. وأحيانًا أصبح خصمه في السوق أو موظف مكتب الهجرة في غرب لندن. وفي كل مرة كان يحمل معوله ليهدمه كما في نهاية

https://t.me/MktbtArab

فيلم الرسالة. ينجح مرة ويفشل مرات. بعض النسخ منه مزمنة. مثل نسخة شعوره بالذنب تجاه أحمد. شعوره أن كل شيء حدث بسبب دعاء مستجاب في تلك الليلة.

قام من مقعده لسيدة ترتدي الحجاب. يشعر بمزيج من الضيق والغيرة والإعجاب كلما رأى سيدة حافظت على حجابها -أو ارتدته- في لندن. هالة فشلت في ذلك. يشعر أن الفشل فشله هو شخصيًا. عندما تقدم لخطبتها لم تكن محجبة. لكنه اشترط ذلك منذ البداية. كانت التسعينيات وبدأ الحجاب ينتشر بالتدريج في المجتمع العراقي. ليس الحجاب وحده، بل التدين وكل شعائره ومظاهره ومضامينه. بالنسبة إليه التزم بالصلاة منذ تلك الليلة التي استجاب الله فيها دعاءه ونصره على شقيقه أحمد. أغلب أصدقائه كانوا بعيدين عن الأمر، بالتدريج رأى البعض منهم يقترب كما رأى البعض منهم يبتعد، ولكن في التسعينيات كان الاقتراب واضحًا ولافتًا. حتى زملاء الكلية الذين كانوا يشربون الخمر ولديهم كبائر أخرى أخذوا يحضرون صلاة التراويح في جامع الخضيري مع الشيخ عمر الكبيسي أو جامع القدس مع الشيخ محمد ناصر.

كان تفسير ذلك آنذاك مختلفًا بين «العودة إلى الله» والتوبة إليه بعد أهوال وكوارث الحروب وما جرته أو أن ضغط الحصار الاقتصادي هو المفسر للأمر، أو أن الحكومة سمحت بالتوجه نحو الدين وأطلقت ما أسمته «الحملة الإيمانية» بعد عقود من محاربة ذلك أو ذاك الإحباط الذي أصاب الناس من التجارب التي حكمتها أحزاب أعلنت مواقف مضادة للدين، أو ربما مزيج من كل ذلك. أيًا كان السبب، انتشر الحجاب بالتدريج، وزادت صفوف المصلين في المساجد، محمد عبد الجبار كان شاهدًا على ذلك، في الثمانينيات كان المراهق الوحيد في المسجد بين مجموعة كبار سن ومتقاعدين، بالكاد كان هناك صف واحد للصلاة في صلاة العشاء، ونصف صف أو أقل في صلاة الفجر، في التسعينيات امتلأت المساجد بالشباب والمراهقين وأصبح كبار السن أقلية تدافع عن حقها في «التسبيح» بصوت مرتفع، الذي يعتبره الجيل الجديد بدعة في النار. محمد عبد الجبار كان فرحًا في بداية الأمر، وبخاصة وهو يتابع أخبار ارتداء بنات دفعته في كلية الإدارة والاقتصاد الحجاب، أغلبهن كن منغمسات جدًا في اتباع الموضة وقت الجامعة، وفجأة: فلانة انخطبت وتحجبت، فلانة تزوجت وتحجبت، فلانة تحجبت ومن ثم خطِبت.

https://t.me/MktbtArab

كان فرحًا في داخله لهن، شيء في نفسه كان يقول: لقد سبقتكم. لكن أخطر ما كان ينغص عليه سروره هو إحساسه المتزايد بأن ثمة تركيزًا على المظاهر في كل ما يدور، وأن «انتشار التدين» لم يصاحبه ارتفاع في القيم والأخلاق. عندما تقدم لخطبة هالة، وكانت معه في الجامعة ولكن تصغره بعامين، كان واضحًا تمامًا في طلبه شبه المشروط، لا بد من الحجاب، وكان هذا الشرط قد أصبح شائعًا، كما أصبح هذا المشهد مألوفًا: البنت المخطوبة محجبة بينما أمها وأم العريس سافرتان. حدثت مفاوضات بين الأسرتين انتهت إلى أن ارتداء الحجاب سيكون بعد شهر من الزواج. كانت هالة قد أكدت لمحمد أنها مقتنعة بالحجاب لكنها تريد أن ترتدي ثوب الزفاف وتصفف شعرها كما كانت تحلم بذلك، وهذا لن يتوافق مع الحجاب.

التزمت هالة بالحجاب لأكثر من عشرين عامًا في بغداد. بعد انتقالهم إلى لندن بعامين قررت أن تخلعه. مرت بمراحل طبعًا. غطاء الرأس الذي يكشف خصلات من هنا وهناك. التوربون الكاشف للرقبة. ومن ثم القبعة. وأخيرًا، لا شيء.

حدث كل شيء معه بالتدريج بحيث تبلدت مشاعره تجاه ما يحدث. كانت هالة تتحدث له أحيانًا عن مضايقات تتعرض لها بسبب الحجاب. لم يكن الأمر مقنعًا جدًّا لأن هالة لم تعمل ونادرًا ما تضطر إلى النزول إلى حيث يمكن أن تتعرض إلى مضايقات، عدا عن وجود عدد كبير من المحجبات في لندن دون وجود شكاوى كثيرة من تعرضهن للمضايقات. لكن ما تعرضت له من مضايقات فعلية كان في الحقيقة من داخل «شلة» الصديقات العراقيات في لندن اللائي لم يحببن انضمام سيدة محجبة إليهن. هالة شخصية قوية، لكنها غالبًا تستمد قوتها من وجودها داخل مجموعة. الوحدة تجعلها ضعيفة، هشة، سريعة العطب، بينما الوجود ضمن مجموعة يجعلها تتألق. بطريقة ما، ووسط تعقيدات الاضطرار إلى مغادرة العراق، وصعوبات التأقلم في لندن، جاء قرار ترك الحجاب تدريجيًّا، تسلل إلى عقل وقلب هالة على غفلة من محمد. وعندما نفذت القرار كان الأمر قد صار محض تحصيل حاصل. وضعته أمام الأمر الواقع. كان منكسرًا متخبطًا هو الآخر، يبدأ حياته من شبه الصفر وهو في الأربعين في بلد جديد وفي ظروف صعبة. استسلم لقرارها بعد مقاومة ضعيفة. لكنه بقي يعتبر الأمر دلالة على هزيمته. بقي شعرها أمام العالم يُعَد إعلانًا أنه قد خسر معركته القديمة. شرطه الوحيد عندما تقدم

https://t.me/MktbtArab

للزواج بها. عندما أخبرها ذلك في لحظة صفاء قالت له إن الله غفور رحيم وإن عليه أن يركز في صحيفة أعماله أكثر من تركيزه في شعرها. كانت تلمِّح إلى أنه تغير هو أيضًا لكن هذا لا يظهر عليه لأنه لا يحمل «مقياسًا» لإيمانه فوق رأسه، كما يعامل البعض الحجاب. كانت محقة، لكنه لم يكن يجد فرقًا كبيرًا بين صحيفة أعماله وصحيفة أعمالها. كانتا متداخلتين في النهاية. ربما لو لم يتغير هو، لما تغيرت هي. كذلك الأمر معها. لو أنها كانت أقوى، لربما كان هو أقوى أيضًا. الله غفور رحيم كما قالت. لكنه، في مرحلة مضت من حياته كان يجد جوابه جاهزًا لمن يستخدم الـ «غفور رحيم» هذه كمبرر لضعفه وتهاونه. كان يقول له بحزم «لكنه شديد الحساب أيضًا»، اليوم يجد نفسه وهو يستخدم التبرير نفسه: الله غفور رحيم. ويجد صوتًا قادمًا من أعماق نسخته القديمة وهو يصرخ فيه: لكنه شديد الحساب أيضًا.

لذا، ورغم كل هزيمته، حاول أن يتمسك بالإقرار بأنه على خطأ. عندما حاولت هالة في مرحلة لاحقة تمرير فكرة أن هناك «تفسيرات جديدة لآية الحجاب» تخلى عن استسلامه وصرخ بها محذرًا: «لا شحرور ولا زرزور. الاعتراف بالخطأ أفضل من محاولات تبريره. تقولين إن الله غفور رحيم أقول لك آمين. تقولين إنه لم يفرض الحجاب تكونين قد وضعت نفسك في خانة أخرى». لم تكرر المحاولة. غفور رحيم والله يهدينا ويثبتنا أجمعين. آمين آمين.

بقي يقلب في الصور التي نشِرت في المجموعة. ركز في الصورة التي تجمع بنات الصف مع الست جنان. في خلفية الصورة رآها من بعيد. الست سميرة قادر. مدرسة الإسلامية في الصف الخامس والسادس. لسبب ما كانت تدرس اللغة الإنجليزية في القسم الأجنبي من المدرسة. أو على الأقل هذا ما يتذكره. ربما كان لديها أكثر من تخصص. كانت مثقفة جدًّا، كثيرة القراءة، واسعة الاطلاع، باهرة في موسوعيتها، يمكنها أن تتحدث في كل شيء، تاريخ، ودين، وعلوم. لعلها ساهمت دون أن تدري –ودون أن يدري هو أيضًا- في توجهه نحو الدين. فكر فيها بمودة. أين هي يا ترى؟ آخر ما عرفه عنها أنها أصبحت مديرة لمدرسة أخرى.

وصل إلى البيت وألقى التحية فلم يرد عليه أحد. هالة نامت مبكرًا وسما تضع السماعات في أذنيها وتعيش في عالم آخر.

https://t.me/MktbtArab

فتح اليوتيوب وبحث عن فيلم الرسالة. سرَّع الفيلم إلى نهايته تقريبًا. مشاهد فتح مكة. السحر المتدفق من موسيقى ميشيل جار وكاميرا مصطفى العقاد لا يذبل أبدًا. هزه مشهد سقوط الأصنام كما يفعل دومًا.

تساءل: من هو –أو ما هو– هُبَل بالنسبة إليه الآن. وكم هُبَل لا يزال شاخصًا أمامه؟

كيف وصل إلى هنا تحديدًا؟ كان يفترض أن يراجع رسائل البريد الإلكتروني الخاص بالشركة. لكن هذه المجموعة وصورها أخذته إلى كل تلك الذكريات.

فتح المجموعة، ذهب إلى حساب السادس أحمر، وأرسل له رسالة.

«من أنت؟».

***

أنهت تارا تدريبات الليلة متأخرة.

كان التدريب يتضمن عرضًا لأسطورة «شاميران». الأسطورة الكردية التي قررت أن تكون المحور الذي تدور حوله الأمسية عبر عرض تمثيلي وأغانٍ وموسيقى كردية مصاحبة له، إضافة إلى شرح تحليلي للعناصر الأساسية للأسطورة. رئيس القسم كان قد طلب منها أن تستغني عن شاميران وتقدم شيئًا أقل سوداوية. قال لها إن الرسالة المتضمنة في العرض سلبية جدًّا وربما لن تنال إعجاب الجمهور، لكن لماذا على الرسالة المتضمنة في عرض لأسطورة كردية أن تعجب الجمهور؟ هذه ليست مسرحية تجارية يطلب منها أن تضرب في شباك التذاكر. هذا عرض ثقافي يهدف إلى معرفة الحاضرين بالثقافة الكردية. بالنسبة إليها، أسطورة شاميران خط أحمر. واستها في أزماتها الأولى، وتحولت مع الوقت إلى قصة من قصصها الشخصية. صارت ترى نفسها في شاميران وحكايتها منذ أن وجدت نفسها وحيدة مع أبيها.

الفتاة التي تقوم بدور شاميران صغيرة الحجم ورقيقة. تشبهها قليلًا عندما كانت في عمرها. لكنها كانت أجمل. لا تزال أجمل. عدا رقتها وصغر حجمها فهي تبتسم ابتسامة جميلة جدًّا لكنها تبدو بلهاء لأنها لا تناسب الجو العام للعرض. طلبت منها عدة مرات أن تقلِّص من ابتسامتها أو تخفف منها. تلتزم لخمس دقائق فقط، ثم تعود ابتسامتها كما لو كانت في إعلان عن معجون أسنان. أسنانها جميلة فعلًا، لكن ذلك لا يقدم أي إضافة للعرض.

https://t.me/MktbtArab

حاولت أن تجد ممثلة بديلة لها من بين الطالبات لكنها لم تفلح، جربت أن تسمعها كلامًا قاسيًا قبل أداء التدريبات، فنجحت الخطة في إزالة الابتسامة لوقت أطول. لن تستهلك الأمر وتجربه أكثر من مرة حتى لا تتأقلم وتفقد الكلمات القاسية قدرتها على إزالة الابتسامة. ستنغص عليها مزاجها قبل بدء العرض الأصلي، وتأمل أن يكفي ذلك لمدة العرض التي تتجاوز نصف الساعة.

عادت إلى البيت بعد أن مرت لشراء الحاجيات من متجر (فودورا) الذي يتأخر في الإغلاق. أسعاره مرتفعة أكثر من بقية المتاجر لكنها نسيت أن تطلب من سالار أن يتسوق، وتحتاج هي إلى أن تعد لنوزاد طعامه الخاص صباحًا قبل أن تخرج إلى الجامعة. في طابور الانتظار استرقت النظر إلى هاتفها. وجدت الصور، قلبتها سريعًا. وجدت تارا صورتها وهي ترتدي ثوب الصلاة وتقف على السجادة أمام الصف. من التقط هذه الصورة يومها يا ترى؟ كيف نجت هذه الصورة بعد كل هذه السنين؟ ربما كانت هذه هي المرة الأخيرة التي صلت فيها. فكرت تارا أنه لو صح ما يقولون عن يوم القيامة فربما تستطيع أن تحاجج بأنها على الأقل صلت لمرة واحدة. لكن هل هذه محسوبة أصلًا؟! لا تزال تذكر ذلك اليوم. يوم شرحت لهم الست سعاد عن «حركات الصلاة» وقالت لهم أن يسألوا أهلهم عن وضع اليدين. كان الأمر لغزًا بالنسبة إليها. بالتأكيد لا تعرف أي شيء عن الصلاة. والداها أخبراها بوضوح منذ الصف الأول الابتدائي أن تحفظ ما يعطى لها في درس التربية الإسلامية فقط. تحفظه فقط دون أن تحاول أن تفكر فيه أو تسأل عنه. لم تفكر فيه ولم تسأل عنه. فهمت بالتدريج أن أغلب البيوت الأخرى فيها شيء لا يوجد عندهم. شيء لم تفهمه ولم تره ولكنه بطريقة ما هناك. سألت أمها فأجابتها بحزم أن هذه «خرافات»، وقالت عبارة أخرى لم تفهمها أيضًا ولكنها بقيت في ذاكرتها. أفيون. سألت أمها عن معنى كلمة «خرافات». فأجابت أنها تعني قصة خيالية كاذبة لم تحدث في الحقيقة. مثل قطر الندى والأقزام السبعة.

صدِمت تارا يومها. قصة قطر الندى والأقزام السبعة لم تحدث؟

نعم، لم تحدث.

إذن أين ذهبت قطر الندى عندما كانت في الغابة؟

كان الجواب صادمًا أكثر. لا توجد قطر الندى أصلًا. كل هذه التفاصيل كذب.

https://t.me/MktbtArab

لماذا يحكيها الناس ويصدقونها إذن؟

لأنهم يحتاجون إلى الأفيون لكي يتحملوا الظلم والاستغلال الطبقي الذي يعيشون تحته.

الظلم الطبقي؟ ما هذا أيضًا؟ كلمات كثيرة جديدة مرة واحدة.

«هو استغلال الأغنياء للفقراء وظلمهم لهم».

«ألسنا أغنياء يا أمي؟»، هكذا كانت تارا تصنف عائلتها. هكذا كان يبدو لها دون تفاصيل. لديهم بيت وسيارة ولديها ملابس جديدة دومًا ويسافرون في الصيف إلى لندن ويأتون بحقائب محملة بالهدايا.

ردت أمها بجملة طويلة لم تفهم منها شيئًا عن الفرد والنظام والمجتمع. وتكررت فيها الكلمة التي تسمعها كثيرًا في البيت. الشيوعي. تحديدًا «الحزب الشيوعي».

عندما سألت تارا أمها عن الوضعية التي يجب أن تكون بها يداها في الصلاة، كما طلبت الست سعاد منهم أن يسألوا، أجابت أمها باختصار أن تضعهما على بطنها. في اليوم التالي، سمعت تارا من صديقاتها: «الشيعيون» ينزلون أيديهم، بينما «السنيون» يضعونها على البطن. كانت تارا متأكدة أن صديقاتها فهمن خطأ. الشيعيون يضعون أيديهم على البطن. هكذا فهمت من أمها. ذهبت إلى الست سعاد لكي تفصل في الأمر وتنتصر لها في النقاش. قالت لها: «ست، أمي في الحزب الشيعي وقالت لي أن أضع يدي على بطني».

تغير لون وجه الست سعاد وقد فهمت مكمن الخطأ، قالت لتارا بحسم: «لا تكرري هذا الكلام وعودي إلى مقعدك».

لم تفهم تارا سبب تشنج الست سعاد. كانت متأكدة أن والدتها قالت لها أن تضع يدها على بطنها. كما أنها متأكدة أن والدتها في «الحزب الشيعي». أين المشكلة؟

عندما جاء والدها ليأخذها من المدرسة شرحت له ما حدث. الست سعاد حتمًا على خطأ. ضرب والده يده على جبهته وسألها: «قلت إن أمك في الحزب «الشيعي»؟».

- نعم بالطبع. أليست هي في الحزب الشيعي بالفعل؟

https://t.me/MktbtArab

شرح لها أبوها الفرق بين «الشيعي» و «الشيوعي». كان الأمر مربكًا جدًّا. الكلمتان متشابهتان جدًّا. كيف لها أن تعرف؟ لكن مع كل ذلك، لماذا هذا الارتباك والخوف من هذه الغلطة؟

شرح لها باختصار أن بعض أجزاء الحزب الشيوعي معارضة للسلطة الحاكمة، وهناك جزء آخر من الحزب دخل في اتفاق مع الحكومة وكون تحالفًا معها (فهمت هي من كلمة تحالف أن هذا الجزء من الحزب قد «حلف» للحكومة أن يكون جيدًا معها).

- وماما مع أي جزء؟

- أمك مع الجزء الذي دخل في التحالف. لكن الكثيرين من أصدقائها في الجزء الآخر. والحكومة تشك بالجميع بكل الأحوال. يجب ألا تتحدثي لأحد عن أن أمك في الحزب الشيوعي.

شعرت بالخوف من خطئها. هل ستكون أمها بخير؟ هل يمكن أن تبلغ الست سعاد عنها؟ لا يمكن. الست سعاد طيبة جدًّا.

- بابا، أنت من أي جزء من الحزب الشيعي؟

- الشيوعي، الشيوعي يا تارا.

- نعم، الشيوعي، من أي جزء أنت؟ من الذي أحلف أم من الذي لم يحلف؟

- كنت سابقًا في الحزب الشيوعي. تركته منذ زمن بعيد.

ثم سمعته يقول كما لو كان يتحدث مع نفسه: «وأصبحت خ** بعثي».

كانت متأكدة أنه قال ذلك. قال هذه الكلمة عن نفسه.

ستعرف بالتدريج أن هذه الجملة الأخيرة هي السبب في كل خلافات أمها وأبيها. أنها السبب وراء الصمت. ووراء الصراخ أيضًا. وراء اتهامات الخيانة.

ستفهم لاحقًا أن كلمة خيانة لا ترتبط بالضرورة بالمعنى الموجود في الأفلام والمسلسلات.

وجدت نفسها وقد وصلت إلى البيت. لا تدري كيف دفعت الحساب. كيف قادت السيارة. كل شيء كان يعود أمام عينها بسبب تلك الصور اللعينة. بقيت تحارب طويلًا كي تنسى كل ما يتعلق بأمها. وهكذا، صورة واحدة، تجدها أمامها كما لو أن كل شيء حدث ظهيرة يوم أمس الأول.

صور لعينة بالفعل. ومجموعة لعينة أيضًا. فكرت وهي تفرش أسنانها استعدادًا للنوم.

قبل أن تأوي إلى الفراش، فتحت حساب السادس أحمر وأرسلت له رسالة.

«من أنت؟».

***

دخلت ديانا على أمها غرفة العلاج فور أن أنهت مريضها.

- ماما، هل أنت بخير؟

- نعم، الحمد لله حتى الآن، شكرًا لسؤالك. لم أرك منذ يومين تقريبًا.

- غير صحيح. تعشينا معًا أمس.

- لكنك لم تنطقي بكلمة واحدة. لا يمكن أن يحتسب هذا العشاء.

رفعت ديانا عينيها إلى الأعلى وقالت: «حاضر. لا يحتسب. لكن هل أنت بخير؟ هل هناك دواء جديد يمكن أن تكون له أعراض جانبية؟».

- لا. أنا بخير. أعني أنا مريضة سرطان لكني بخير حتى الآن، ماذا حدث؟

- كيم قالت لي إنك سألت أسئلة غريبة جدًّا في مقابلة العمل التي أجريتِها اليوم صباحًا.

- كيم الثرثارة.

- بربك يا ماما. هل حقًّا سألتِه إن كان مثليًّا؟! وإن كان مرتبطًا؟ وماذا يعمل والده؟ هل فعلت ذلك حقًّا.

- وإن يكن؟ ألا يحق لي أن أعرف من سأوظف في عيادتي؟

- أمي! تسألينه إن كان مثليًّا؟! هذا قد يعتبر نوعًا من التمييز الجنسي الذي نحاسب عليه حسب قوانين الولاية. لم هذه الأسئلة؟

- لم أقل إني لن أوظفه إن كان مثليًّا. بل ربما العكس، من قال إني لا أريد أن أشجع التنوع في العيادة عبر توظيف مختلفي الميول. دايفرستي.

- بربك.

- ماذا تريدين يا ديانا؟

- هل أنت بخير؟ لم هذه الأسئلة الشخصية في مقابلة عمل؟

- عادي، لا شيء محدد. الحوار قادنا إلى هذه التفاصيل.

https://t.me/MktbtArab

- الحوار قادك إلى أن تسأليه إن كان مثليًّا أو مرتبطًا أو ماذا يعمل والده؟ ماذا سألته أيضًا؟ أزواج شقيقاته أيضًا؟

- ليس بالتفاصيل، لكن نعم.

- أمي، ألم تكوني وعدتني أن تكفي عن البحث عن عريس لي؟

- نعم، لكن الوضع تغير الآن.

- ما الذي تغير؟ كبرت وفاتني القطار؟

- لا. القطار هذه المرة هو قطاري أنا.

- كفي بالله عليك.

- أريد أن أطمئن عليك قبل أن أموت. قبل أن يقف قطاري في محطته الأخيرة.

- لا تقولي هذا يا أمي. ستقاتلين وتنتصرين.

- لا أحد ينتصر على السرطان في درجته الرابعة. النصر الممكن هو فقط إطالة لمدة المعركة.

احتضنتها ديانا بقوة وهي تتمتم: «لا تقولي هذا. ستبقين معي. لا يمكنني أن أفكر في خيار آخر. لا أريد أن أفكر أنه عاد».

- اسمعي يا ديانا. أنا لا أفعل غير أني أوظف شخصًا قد يكون مناسبًا لك. لا أقول لك أن تتزوجيه في الأسبوع القادم أو حتى أن تفكري في ذلك. هو ابن ناس. إن لم يكن عريسًا مناسبًا فمن الممكن أن يكون إضافة جيدة للعيادة. السي في الذي جلبه جيد فعلًا. كنت أفضِّل أن يكون عراقيًّا، ولكن كل الناس خير وبركة كما يقول السوريون.

- ماما. لن أتزوج بهذه الطريقة. لن يحدث.

هزت ريم رأسها: «والله هو لطيف. امنحيه فرصة فقط. لطيف جدًّا. لذلك سألته إن كان مثليًّا. أحببت التأكد».

- لن يحدث. آسفة. لن يحدث.

قالت ريم: «امنحيه فرصة فقط ودعيني أستعد للخروج».

احتضنتها ديانا بقوة وهي تقول: «أرجوك كفي عن هذا. لست بصدد الزواج الآن وبالتأكيد ليس بهذه الطريقة».

عندما أفلتت يديها شاهدت خصلات من شعر أمها فيها.

تبادلا النظرات.

قالت ريم: «أريد أن أذهب إلى ميسيز لشراء إيشاربات. استعدادًا للوضع الذي سيحل قريبًا، ريثما تصل الحجابات التي اشتريتها من النت.

***

في الجولة الأولى من السرطان، ارتدت ريم شعرًا مستعارًا عندما بدأ شعرها بالتساقط. أمها حذرتها من مغبة الظهور بغطاء الشعر، قالت: «دريد سيطلقك». سمعت كلام أمها كما فعلت في كل شيء في حياتها تقريبًا. رغم ذلك تطلقت. لكن ليس دريد هو الذي طلقها، هي من طلبت الطلاق. الشعر المستعار يمكنه أن يزيف الشعر، لكنه أقل نجاحًا في تزييف حياة زوجية انتهت مدة صلاحيتها على الأقل بعد عملية السرطان.

هذه المرة قررت أن ترتدي الحجاب. تقنيات الشعر المستعار تطورت وأصبح يبدو طبيعيًّا أكثر من الشعر الطبيعي هذه الأيام. لكنها قررت أن كفى، الحجاب هذه المرة. تذكرت معركة ابنة خالتها مي من أجل الحجاب. كانت أول فتاة في العائلة ترتدي الحجاب. سبع خالات لكل منهن بنتان أو أكثر. وهي الأولى التي قررت أن ترتدي الحجاب. الخالات قاطعنها جميعًا؛ قيادة المقاطعة كانت بيد أمها التي حذرتها من الاختلاط مع مي. «من يدري ماذا يدفعها للحجاب؟ ربما هي مرتبطة بشخص من طبقة أدنى. أهله «شعبيون»». لم تقطع علاقتها بمي لكنها لم تدعمها أيضًا. كانت تعرف تمامًا أن حجابها ليس له علاقة بارتباطها بأي شخص، أهله شعبيون أو «باشوات» أو أي شيء آخر. لكنها أيضًا لم تفهم سبب الحجاب. كانت الكلمات التي تستخدمها مي في شرح الأمر تنتمي إلى لغة مختلفة بأبجدية غير مفهومة بالنسبة إليها. لكنها حرة تفعل ما تريد.

مع الوقت خفت مقاطعة العائلة لمي لكنها بقيت متحفظة تجاه الحجاب. عندما قرر شقيق مي أن يخطب فتاة محجبة معه في الجامعة جن جنون الخالات. المرض بدأ ينتشر في العائلة. في النهاية تمكنَّ من إفشال الخطبة. لكنه خطب واحدة أخرى، محجبة أيضًا. ظل الموقف العائلي موحدًا ضد الحجاب رغم أنه انتشر بالتدريج في أماكن قريبة من العائلة كانت تبدو أكثر حصانة ضده. ماذا كانت ستفعل أمها لو علمت أنها سترتديه الآن بسبب

https://t.me/MktbtArab

الجولة الثانية مع السرطان؟ كانت ستقول إنها محسودة. لا بسبب السرطان فحسب. بل أيضًا بسبب ارتدائها الحجاب.

منذ أن تحدثت مع سوسن وهي تشعر بمشاعر غريبة تجتاحها. تشعر أن كل ما مر بها كان نعمة كبيرة مقارنة بما مرت به سوسن. كل مصاعبها، حتى في مقارعة السرطان، في الأجزاء التي استطاع أن يستأصلها من جسدها، في طلاقها، في عودة السرطان بدرجته النهائية، كل ذلك، بدا كما لو كان نزهة لطيفة مقارنة بما مرت به سوسن. خلال الأيام التي تلت المحادثة، بدأت ترى كل شيء بعين مختلفة. كل ما مرت به، وكل ما ستمر به، بدأت تشعر كما لو أنها مستعدة للتصالح معه. التصالح. لا الهدنة.

هذه المرة، ولأنها تعرف النتائج الحتمية للمعركة فهي ترغب في السلام. لا في الحرب. ترغب في أن ترفع الراية البيضاء. تستسلم لما كتب لها، لأنه ببساطة مكتوب. الآن تعرف يقينًا أن لا مفر. لا مفر من المكتوب.

أول خصلة كبيرة من شعرها سقطت في أثناء وصولها إلى شعور الاستسلام ورفع الراية البيضاء. وجدت أن في ذلك إشارة. لو كانت ترى العالم كما كانت تراه قبل عشرة أعوام -وقت السرطان الأول- لكانت ذهبت إلى ذا دريم إيفيكت واشترت شعرًا مستعارًا مناسبًا. لكن اليوم، الآن، بعد ما سمعته من سوسن، بعدما عرفت ما عرفته، ستذهب إلى ميسيز لشراء الإيشاربات التي ستغطي بها رأسها.

لم تستطع ريم أن تقاوم شراء حاجيات أخرى لم تكن بحاجة إليها. ابتاعت قميصين لديانا ومفرشًا لمائدة الطعام وطقم أكواب أعجبتها ألوانه رغم غلاء سعره. قبل أن تصل إلى البيت كان ضميرها قد بدأ بتأنيبها بسبب إسرافها في شراء ما لا حاجة إليه. عليها أن تمسك يدها لتسدد ما عليها من أقساط للبيت. لن تورِّث ديونًا لديانا وعمر. رغم أن هذا عادي ومقبول في أمريكا، لكنها لا تزال عراقية في القلب، أو فيما تبقى من حطامه. ستورثهما ما يجعلهما يترحمان عليها. لكن هل يجب أن تورثهما إرثًا جيدًا لكي يترحما عليها؟ ملأت أمها رأسها بفكرة أنها أم سيئة مقصرة. رغم أنها تعتبر نفسها أمًّا جيدة، وأفضل من أمها أيضًا. لم تجرؤ على قول ذلك لها. لكنها حرصت على ألا تكون نسخة من أمها مع أولادها. أمها كتمت على أنفاسها لمدة طويلة جدًّا. حرمتها من أشياء وفرضت عليها أشياء. الله يرحمها. مسامحة في كل شيء. تتمنى السماح من ولديها أيضًا. الشيء الوحيد الذي تعتقد أنها ربما قصرت

https://t.me/MktbtArab

فيه معهما هو طلبها الطلاق من أبيهما. لكنها لم تحتمل ولم يكن بإمكانها الاستمرار. ولا هو أيضًا. لكنه انتظر القرار منها لاعتبارات اجتماعية. تقريبًا جعلها تتحدث أمام الجالية بأسرها أنها هي التي تطلب الطلاق منه. الجالية قالت إن دريد ليس نذلًا لكي يترك زوجته بعد السرطان. بل هي التي أصيبت بالاكتئاب وجُنت وطلبت الطلاق. حصل على التعاطف المناسب لرجل أجبرته زوجته على الطلاق. لا بأس. تقريبًا هذا ما حدث. طلاقهما كان وديًّا تقريبًا. لم تطلب منه شيئًا سوى أن يساهم في نفقات جامعات ديانا وعمر بنسبة أكبر منها. دخله أكبر من دخلها. حاول أن يقترح مسألة القروض الدراسية. لكن الجزء العراقي من قلبها (كان لا يزال بحطام أقل) رفض أن يربط دراسة الأولاد بديون تُسدَّد لاحقًا. أذعن دريد. لم يكن أبًا سيئًا على الإطلاق، لكن مقاييس الزواج شيء آخر.

في طريق العودة اتصلت بها هبة. تتصل كل يوم منذ أن أخبرتها عن عودة السرطان. تحاولان معًا ترتيب لقاء يجمعهما بمصطفى. الثلاثة في بلد واحد ومنذ أن ماتت أمهم لم يجتمعوا معًا. توزعوا في شرق وغرب ووسط أمريكا بحيث إن لكل منهم منطقة توقيت مختلفة عن الآخر. مصطفى هو الأبعد جغرافيًّا عنها، في الساحل الشرقي للقارة، وهو الأقل بالتالي لقاءً بشقيقتيه.. لكنه الأكثر حنانًا وكان الأكثر تأثرًا يوم أبلغته بعودة الزائر اللعين.. سكت أول الأمر ثم اتصل في منتصف الليل وهو يجهش بالبكاء. أخبرها أنه بحث عن علاجات لا تزال تحت التجربة وطلب منها أن تفتح روابط أرسلها إليها. توسل لها أن تجرب. لا يزال مستمرًّا في التوسل وإرسال الاقتراحات. بل إنه بدأ يقترح عليها الدجالين بمنتهى الجدية. طاقة وريكي وخزعبلات مماثلة. أصبحت محرجة من الرفض، وعدته أن تفتح الروابط وترى إن كان هناك مركز قريب منها. كانت تتمنى أن تتمكن من إخباره أنها تستعد للرحيل، وأنها متقبلة للأمر. تريد فقط أن تطمئن على ديانا وعمر وترتب بعض الأمور لهما قبل أن يحدث ذلك. لكنها كانت تعلم أنه لن يتقبل الأمر وأنه سيدخل في نوبة من البكاء التي لا تريد أن تواجهها على الهاتف لأنها لا تعرف كيف تتعامل معها. سابقًا، في طفولتهما، كانت تستطيع أن تهدئه، كان يلجأ إليها عندما تعنفه والدته، وكانت تستطيع احتضانه واحتواءه وتهدئته. الآن، وهو في الخمسين، وعلى الهاتف، الأمر مربك جدًّا.

https://t.me/MktbtArab

أخبرت هبة عن طريقة تعامل مصطفى مع الأمر. قالت لها إنه ورث حنان أبيهم مضاعفًا في عشرة، ولم يرث شيئًا من قوة أمهم. سكتت هبة ولم تعلق بشيء كما لو أنها لم تتفق مع ما قالته ريم. ثم قالت إنها ستتصل بها بعد قليل. علامة أخرى أن الكلام لم يرقها. ونادرًا ما تتصل بعد قليل.

وصلت ريم إلى البيت وحضرت العشاء ثم رتبت مشترياتها بحيث تراها ديانا فور وصولها. في أثناء انتظارها لديانا فتحت مجموعة السادس أحمر وتفرجت على الصور. تتذكر هذا الثوب الذي ترتديه أمها. اشترته من هارودز. كانوا يسمونه (كوستم). أي ثوب نسائي من قطعتين كان يطلق عليه كوستم في بغداد. تتذكر حتى يوم شرائه. اشترت منه ثلاث قطع كل قطعة بلون. أزرق وأخضر وبني. يومها اشترت ما مجموعه تسع قطع لها وحدها. اعترض أبوها وقال إن الأموال التي سحبها من الترافلر تشيك تكاد أن تنتهي. لم ترد عليه أمها. لكن، عندما عادوا جميعًا إلى الفندق، وكان هو يحمل كل المشتريات، أخذت الأكياس منه عند باب الغرفة، ثم طلبت منه أن يبحث عن مكان آخر لينام فيه. منعته من دخول الغرفة وهددته بأن تصرخ وتتهمه بالتعدي عليها لو حاول أن يدخل. ريم وهبة بكتا وحاولتا أن تفتحا الباب لأبيهما. ضربتهما فورًا. مصطفى كان أصغر من أن يفهم ما يحدث لكنه أخذ يبكي أيضًا. يئس الأب بعد قليل وذهب لينام في فندق آخر. عاد في اليوم الثاني على الإفطار في الفندق وتصرف كما لو أن شيئًا لم يكن.

تأملت في الصورة. لم تكن الصلاة حاضرة بقوة في البيت عندهم. كانت جدتها تصلي، لكن ليس أيٌّ من والديها. والدها أخذ يصلي بعد تقاعده، لكنها كانت تزوجت وتركت البيت، فلم تلاحظ تغييرًا كبيرًا. في العموم والدها كان يتحدث عن مخافة الله والحساب أكثر. والدتها كانت تتحدث عن الحسد. إيمانها بالحسد كان أوضح من إيمانها بالله. أو إيمانها بالله كان جزءًا من إيمانها بالحسد. كل الناس تبدأ حفظ القرآن بالفاتحة. أمها اكتفت بتحفيظهم سورة الفلق. وربما كانت لا تحفظ هي شيئًا آخر.

كل مشكلة تحدث سببها حسد إحداهن أو أحدهم، بما في ذلك شقيقاتها، وصديقاتها، وشقيقات زوجها من باب أولى. تتأخر الطائرة بسبب الحسد. يهطل المطر وتتأجل السفرة بسبب الحسد. يطير «الخطيب المحتمَل» بسبب الحسد، كل أنواع الأمراض –من الرشح إلى السرطان– تحدث بسبب الحسد.

تأملت في الصورة التي جمعتها وصديقاتها مع الست نهى. الله لو تعرف الست نهى كم كانت قصة حبها وزواجها بالأستاذ إياد مصدر إلهام لكل البنات في المنصور التأسيسية. المدرسة كانت شاهدة على ذلك الحب. مدرس ومدرسة الرياضة يحبان بعضهما ويتمشيان معًا وتنتثر حولهما القلوب الحمراء الخارجة من أعين الفتيات الصغيرات اللواتي لا يعرفن شيئًا عن الحب لكنهن يعرفن أنه جميل ويتمنين لو أن تتكرر القصة معهن.

لم تحظ هي بتحقق هذه الأمنية. حدث أن أعجبت بوسام مصطفى، زميلها في شعبتها نفسها في الأسنان، كان واضحًا أيضًا أنه معجب بها. أخفت الإعجاب في انتظار الضوء الأخضر من أمها. لكن الضوء الأخضر لم يأت، بل جاءت بدلًا عنه عشرة أضواء حمراء. لن يحدث. هذا لن يحدث. لن ترتبطي بهذا الشخص بأي حال من الأحوال. حكم قاطع غير قابل للاستئناف أو التمييز. لماذا؟ لأنه لا أحد. وأبوه لا أحد. وأمه لا أحد. عائلته كلها لا أحد. تعريف الـ «أحد» بالنسبة إليها هو أن يكون اسمًا مرموقًا يمكن أن تفتخر به في جلساتها مع صديقاتها وعدواتها. كأن يكون ابن طبيب مشهور، أو ثري كبير، أو مسؤول حكومي، أو أن يكون من العوائل القديمة الموشكة على الانقراض ويملك ما يمكّنه من أن يكون ثريًا في الزمن الجديد. أسامة كان ابن أستاذ جامعيٍ في كلية القانون والسياسة، وأمه كانت محامية. اسم عائلته كان عاديًا مثل أغلب الأسر، لكنه بمقاييس أمها كان لا أحد. تكرر الأمر مع آخرين. يبدون إعجابهم أو يعبّرون عنه لها. تنتظر الضوء الأخضر، لكن الأضواء الحمراء تأتي فورًا بعد التدقيق السطحي بمهنة الأب واسم العائلة.

ثم أخبرتها صديقتها مينة، نقلًا عن لؤي فؤاد أن دريد بن عبد الواحد علوان، الطالب في السنة الأخيرة من كلية الطب، قد أخبر صديقه زياد حسن، الطالب في السنة الأخيرة من طب الأسنان، أنه معجب بريم مظفر- وزياد ذكر ذلك -عرضًا وبالمصادفة المحضة التي لا سبب لها- للؤي -الذي يعرف عادة أنه ينقل أخبارًا مماثلة لجس النبض.

كانت ريم لا تطيق لؤي ولا أساليبه في التنسيق بين الرؤوس سواء أدى ذلك إلى حلال أو حرام، لذلك لم تلتفت بجدية إلى كلامه. لكنها أخبرت أمها التي لم يستغرق الأمر معها سوى ثوانٍ معدودة لكي تهددها بأنها لن تتحدث معها ولن تكون ابنتها لو ضيعت هذه الفرصة من يدها. أمر زواجها حسِم في ثوانٍ معدودة.

https://t.me/MktbtArab

«ماذا تريدين أكثر من ذلك يا غبية؟ هل صدقت نفسك؟ هل صدقت أن ينظر إليك ابن عبد الواحد علوان؟ مائة ألف بنت أفضل منك تتمنى أن ينظر إليها فقط. من أنت؟ من أنت حتى تفكري أصلًا في الموضوع؟ وطبيب. سيحصل على التخصص الذي يرغب فيه. مستقبله مضمون. ليس هذا فقط. بل سيغنيك عن التعيين في الأرياف. وربما والده سيعيِّنك معيدة في الكلية، وتأخذين التخصص الذي تريدين أيضًا. عدا عن البساتين وقطع الأراضي التي كافأت الدولة بها والده نظير خدماته، عدا ذلك وأهم شيء في القصة كلها: هو من أقارب الرئيس. ليست قرابة مباشرة. لكنه من أبناء العمومة أو الخؤولة... وأمه... أمه صديقتي، التقيتها كذا مرة، في منتهى الأناقة والذوق. هذا النسب الذي يشرف. يا غبية، يا غبية».

كانت أمها حانقة عليها ضمنًا لأن خبر دريد جاء عن طريقها هي، وليس عن طريق والدته. كانت تعتبر نفسها هي السبب في أن دريد فكر فيها. لكنه للأسف ذهب ليخبر صديقه بدلًا من أن يخبر أمه. رغم ذلك، فضل تفكير دريد فيها يعود إلى أمها وليس إلى أي سبب آخر. ليس شكلها. وليس أدبها. ولا أناقتها. ولا كليتها. بل لأنها أمها.

وهكذا حسِم أمر زواجها بدريد، على وقع كلمات التحقير. لم يكن قد خطب بعد. مجرد تسريب لخبر إعجاب. ربما لا تكون نيته صافية أصلًا. لكن والدتها حسمت الأمر وتعاملت معه على أنه واقع حال. وهكذا كان. رتبت أكثر من لقاء مع أمه ونفَّذ الأمر.

تحقق كل ما قالته أمها. لم تحتج إلى أن تتعين في الأرياف مثل أغلب زميلاتها. بل أخذت إجازة مفتوحة لحين نقلت أوراقها من وزارة الصحة إلى وزارة التعليم العالي. وكان هذا النقل شبه معجزة حسب التوجيهات والقوانين المعمول بها، لكن قرابة عبد الواحد علوان من الرئيس وعلاقاته كانت كافية لحدوث المعجزة. قضت سنة واحدة معيدة في قسم العلوم الأساسية. ثم قبِلت في الدراسات العليا، قسم تقويم الأسنان. دريد حصل على قبول في البورد العربي والعراقي- جراحة العظام. وكل جمعة كانوا يتناولون الغداء في بستان العائلة في الكريعات، على دجلة مباشرة.

كل شيء تحقق كما قالت أمها. عدا الحب الذي كانت تحلم به منذ أن أحبت الست نهى الأستاذ إياد في ممرات المنصور التأسيسية. هذا لم يأتِ. ولم تذكره أمها أصلًا.

https://t.me/MktbtArab

لكن العالم لا يمكن أن يسير حسب خطة أمها أيضًا. فجأة، ومن دون سابق إنذار، وكما يحدث دومًا مع المسؤولين المقربين من صدام، انتقل عبد الواحد علوان من خانة المسؤولين المدللين الذين لهم كلمتهم، إلى خانة المغضوب عليهم. ليس المغضوب عليهم جدًّا، لأن هذا يعني إعدامهم، ولكن «غير المرضي عنهم». لا أحد يعرف ماذا حدث، ولا عبد الواحد علوان نفسه. فجأة أعفاه صدام من كل مناصبه وأحاله إلى التقاعد. يقال إنه أغضب عدي دون أن يعرف، أو إن أحدهم قد قال لصدام إن عبد الواحد يمتلك بيتًا في عمَّان. وإنه اعتبر ذلك تمهيدًا للهروب والتخلي عن القيادة في وقت الأزمة، كما فعل أقرب الأقرباء مع الرئيس. لكن البيت كان قد ورثه عبد الواحد من شقيقه الذي لم يتزوج، وله شركاء وشريكات في هذا البيت.

أيًّا كان. فجأة وجد عبد الواحد علوان نفسه وقد تسلم خرطوم رش الحديقة. هكذا وصف الناس الأمر. لم يعد لديه ما يفعله غير رش الحديقة.

كانت أمها قد ربطت نفسها جدًّا بأم دريد. الخروجات والقبولات الصباحية والمباركات المشتركة. كل شيء أصبح مع أم دريد وصديقاتها من زوجات المسؤولين والوزراء. وفجأة أم دريد أصبحت خارج هذه المجموعة. ولحقت هي بها أيضًا. رفضنها وتعاملن معها كما لو أنها لم تكن يومًا صديقتهن التي تخرج معهن وتتبادل معهن المجاملات. حاولت العودة إلى مجموعتها القديمة، لكنها كانت قد تشاوفت عليهن بما يكفي بأم دريد، بحيث لم يتقبلن عودتها بسهولة.

بالتأكيد كان الحسد هو الذي أحال عبد الواحد علوان إلى التقاعد. الحسد الموجه إلى أمها شخصيًّا وليس إلى عبد الواحد أو زوجته وأولاده.

لكن كان هناك سبب آخر غير الحسد. إنه «وجهك النحس يا ريم». كل ما حدث لنا كان بسببك وبسبب زواجك الأغبر بدريد. هذا ما قالته له أمها وهي تودعها ليلة سفرها إلى الأردن. كانت في طريقها إلى أمريكا.

بعد أن أنهت ريم وديانا تناول العشاء، جلستا معًا أمام التلفاز دون أن تركزا في مشاهدته. تحدثا عن المشتريات وعن وسام الطبيب واحتمالية توظيفه وعن عمر واحتمالية أن يكون مرتبطًا بصديقة مغربية وضع لهما صورة معًا على الإنستجرام. كانت ديانا تجلس بالقرب منها وقد وضعت رأسها على كتف أمها. رن الهاتف. كانت هبة هي المتصلة. ثاني اتصال هذا اليوم. هذا غير معتاد.

كان صوت هبة متهدجًا كما لو أنها كانت تبكي.

- ما الأمر يا هبة؟ أنت بخير؟
- نعم. أنا بخير. لكن أريد أن أقول لك شيئًا منعت نفسي من قوله لسنوات.
- لسنوات؟ ماذا تقصدين؟
- قلتِ في المكالمة السابقة إن مصطفى لم يرث شيئًا من قوة أمي.
- نعم، وورث حنان أبي مضاعفًا عشر مرات. ما الأمر؟
- أردت أن أقول لك، ماما ليست قوية. لم تكن قوية. ماما كانت مصابة باضطراب الشخصية النرجسية. لكنها لم تكن قوية ولا صلبة. كانت ببساطة مضطربة نفسيًا.

قالت هذا وانفجرت بالبكاء.

مضطربة نفسيًا؟ اضطراب الشخصية النرجسية؟ هذا كثير. يمكن أن تتقبل أن توصف أمها بالتحكم وبحب السيطرة، بل بهوس السيطرة. لكن اضطراب الشخصية النرجسية هذا يبدو مبالغة.

- عم تتحدثين يا هبة؟ من قال لك هذا؟ كيف عرفت وتوصلت إلى هذا؟
- المعالجة أخبرتني منذ سنوات. وكذلك معالجة مصطفى أخبرته بالشيء ذاته. كلتاهما قالتا التشخيص ذاته. نحن نحاول النجاة من أمي منذ سنوات.
- مصطفى لديه معالجة أيضًا؟
- ماذا تظنين إذن؟ نحن كلنا ضحاياها.
- أنا لم آخذ علاجًا نفسيًا إلا بعد السرطان. المهدئات الكل يتناولها الآن. ليست محسوبة.
- لأنها كانت تعيش معك وكنت تحت سيطرتها تمامًا. كانت تتحكم بك. توهمك بأنك بخير ما دمت تسمعين كلامها. لقد حطمت حياتنا جميعًا. منعتك من الزواج بمن أردت وزوجتك لمن تصورت أنه مناسب لصورتها الاجتماعية. فعلت الشيء ذاته معي. حطمت مصطفى تمامًا. كانت تعايره دومًا أنه لم يستطع دخول كلية الطب كما كانت تريد. طب الأسنان لا يكفيها. قالت له يوم تخرجه: لقد خذلتني يا فاشل، وكان من العشرة الأوائل. أجبرته أن يحاول الاختصاص في تخصص لا يحبه

https://t.me/MktbtArab

فقط لأنه يقربه من الطب. جراحة الوجه والفكين. منعته من الزواج مرتين بمن اختار. حاربت كل أصدقائه إلى أن أصبح وحيدًا تمامًا. وها هو الآن، في الخمسين لم يتزوج، ويجهش بالبكاء لأن شقيقته التي كانت تحميه من بطش أمه ستموت.

سكتت ريم سكوتًا مطولًا بحيث إن ديانا التفتت إليها وسألتها: «هل كل شيء على ما يرام؟».

سمعت صوت هبة وهي تبكي.

ثم قالت: «منذ سنوات ونحن نريد أن نخبرك يا ريم. أنا ومصطفى. لكن لم نستطع. اليوم بدأت أخشى أن يفوت الوقت».

- وما فائدة هذا الآن؟ لماذا تخبرينني الآن؟

- لأنها أقنعتك دومًا بأنك لا تستحقين أي شيء جيد. بأنك أقل من الجميع. بأنك من دونها لا شيء. بأنك لا تستحقين دريد ولا عائلته ولا أن ينظر إليك أحد. بأنك قبيحة وفاشلة وكان يمكن أن تكوني أنجح بكثير. وبأنك أم فاشلة مقصرة وأبناؤك يكرهونك. وأنا أريد منك أن تعرفي أنك شخص رائع يا ريم، وأن ظفرك بدريد وبأهله كلهم. وأنك أم ناجحة وطبيبة أسنان عظيمة، وقبل كل هذا أنت أخت رائعة يا ريم.

أخذت ريم تبكي بهدوء. انتبهت ديانا وقامت بسرعة لتجلب لها منديلًا.

قالت ريم بصوت حاولت أن يبدو طبيعيًّا: «علي أن أذهب الآن، سأتصل بك لاحقًا».

لم تتحدث كثيرًا لديانا عما قالته خالتها. لكنها قرأت مقالات عن صفات اضطراب الشخصية النرجسية.

فتحت الصور من جديد. جاء أمامها كوستم هارودز الأخضر. تذكرت ما حدث بعدها.

أغلقت الضوء، لكنها لم تنم. بقيت تحدق إلى الظلام. كانت ترى أفضل.

***

كان سرمد ينتظر دانيا في مطعم جيوفاني في ديترويت. رفضت قبلها ثلاثة مطاعم، وقبلت بالرابع والحمد لله. لم يعد الأمر مرتبطًا بمستوى التقييم وعدد النجوم وهل هناك خيارات نباتية أو فيجان أو لا كما كان الأمر سابقًا.

https://t.me/MktbtArab

لقد وصلنا الآن إلى مرحلة إن كان المطعم يتعامل مع شركات عالمية تجيز استغلال عمالة الأطفال أو لا. يفضل هذا الجيل أن يموت الأطفال جوعًا على أن يعملوا. يعتقدون بالفعل أنهم يساعدون هؤلاء الأطفال. لو عرف هؤلاء الأطفال بأن هناك من يريد أن يخرجهم من سوق العمل التي يقاتلون لكي يكونوا فيها سيظنون أن هؤلاء يريدون أن يحلوا محلهم فيها. أو ربما يجلبون مجموعة أخرى للعمل. الأطفال سيعتبرونهم أشرارًا أكثر من الشركات الاحتكارية الرأسمالية التي تستغل طفولتهم التي لم يعرفوا بوجودها أصلًا. العالم ظالم فعلًا، والشركات تستغل الجميع، لكن هذا الجيل غبي ولا يصلح لشيء، تحديدًا لا يصلح لتغيير العالم. كل ما يفعله عبر وقفاته ومطالباته ومقاطعاته هو أنه يخلق فرص أرباح جديدة للشركات ذاتها أو لفروع منها أو لشركات جديدة مملوكة للشركات الأصلية. جيل فاشل. أهدافه هلامية وقضاياه مطاطة. على الأقل جيلنا كانت له قضية أوضح، كان سرمد يفكر ويقول لنفسه وهو يقارن بين جيل أبنائه وجيله، جيلنا كان يريد أن يحقق ذاته. أن يربح. أن يمتلك بيتًا كبيرًا وسيارتين ومن ثم بيت آخر وسيارة ثالثة ومزرعة ومن ثم أن يملك استثمارات عقارية أو في البورصة أو في أي شيء يزيد ثروته. هذه أهداف مشروعة تمامًا، وقابلة للتحقيق أيضًا، وتفيد المجتمع لأنها تدير عجلة الاستهلاك، رغم أن هذا أقل أهمية مما سبق لكنه يحدث، ويبقى كل ذلك أهم وأكثر نفعًا من هراء الجيل الجديد الذي جومل أكثر مما يجب عندما قيل عنه «ندف الثلج». يتحدثون عن تغيير العالم والرفق بالدجاج وعدم أكل السمكة الأم لأن عندها أطفال ينتظرونها، لكنهم يعاملون آباءهم بطريقة ليست أفضل بكثير من معاملة البشر للدجاج والسمك. يريدون أن يستنفذوا كل ما لديهم من أموال مقابل ماذا؟ لا شيء تقريبًا. عدد قليل من الردود على الرسائل وعدد أقل من الاتصالات الحقيقية، وعدد لا يذكّر من مرات اللقاء، إن وجِدت أصلًا.

دانيا نموذج مثالي للجيل. درست تخصص العمل المجتمعي. لم يكن يعرف أصلًا أن هناك تخصصًا بهذا الاسم إلا عندما فاتحته بالأمر. عمل مجتمعي؟ يعرف أن يؤدي الناس عملًا مجتمعيًّا كنوع من العقوبة المعروفة في القضاء الأمريكي. كما يحدث أن يحكّم على المشاهير بعقوبة تنظيف الشوارع. لكن أن يقضي أي شخص عاقل أربع سنوات ليدرسه كتخصص؟ بل أن يدفع عشرين ألف دولار -على الأقل- سنويًّا لكي يحصل على شهادة

https://t.me/MktbtArab

في ذلك، هذا جنون. لم تبدأ دراستها بهذا التخصص وإلا كان حاربه بشدة، لكنها بدأت بعلم النفس. قال سرمد في نفسه لم لا. قد يتطور هذا لدراسة علم النفس العلاجي وقد تجد علاجًا لنرجسية أمها كما قد يكون جزءًا من متطلبات دراسة القانون لاحقًا. لكن هذا الجيل لا يثبت على قرار. يبحث عن شغفه، عن نفسه، عن ذاته، ضائع وفخور بضياعه. انتقلنا من علم النفس إلى علم الاجتماع بعد فصلين فقط. لا يزال خيار القانون قائمًا على أي حال، ثم بعد فصلين آخرين، قررت أن تتوقف عن الدراسة لتفكر فيما تريده «حقًا»، لكي تقرر ما هو هدفها في الحياة. هناك اسم لهذا الجنون. سنة الفجوة. Gap year. جيل ضائع ومدلل. لو فكر هو أو أي من أبناء جيله في العراق أن يأخذوا «سنة الفجوة» لوجدوا أنفسهم فورًا في خندق على جبهة الحرب مع إيران. سنة فجوة! يا للنكتة. بعد سنة الفجوة هذه قررت أن تتحول إلى تخصص العمل المجتمعي. هناك تخصص كهذا فعلًا؟ ماذا يدرسون فيه؟ ماذا ستعملين بعد التخرج؟ سألها جادًّا هذه الأسئلة عندما أخبرته بقرارها. عليه أن يشكرها على أي حال لأنها أخبرته -أمانةً منها- ما دام هو من يدفع. أفضل وأكثر أمانة من الحمار الآخر الذي وضعه في موقف كارثي يوم التخرج. أجوبتها كانت مباشرة. تريد أن تعمل في مجال «المنظمات غير الربحية». يا الله. ما الهدف من العمل في منظمة تضع فشلها كهدف في عنوانها؟ نحن فاشلون. لا نريد أن نربح. قال لها هذا بالفعل. أجابته: «لن تفهم. جيلكم عاجز عن فهم هذا». أجابها فورًا: «لكنه ليس عاجزًا عن دفع نفقات دراستكم هذه».

أكمل أسئلته: «ماذا ستفعلين بهذه الشهادة؟ هل ستحصلين على جائزة نوبل للسلام؟».

رفعت عينها إلى الأعلى وقالت: «إن جاءت أهلًا وسهلًا. لكن لن أسعى لها».

جيل فاشل. فقد الدافع في أي تحقيق لأي جزء من الذات. هذا تحديدًا أصبح هدفهم. أي شعار من أجل تبرير الفشل والكسل وإلقاء اللوم على الشركات الكبرى أو جيل الآباء أو الدين أو أي شيء.

في النهاية دفع نفقات تخصص الفشل، بل إنه دفع أيضًا نفقات دراسة الماجستير فيه أيضًا. موضوع دراستها كان عن العلاقة بين استهلاك اللحوم ومعدلات الجريمة في مجتمع ما. ما علاقة هذا بالعمل المجتمعي؟ يجب أن يكون له علاقة بالتغذية أو بعلم الجريمة أو علم النفس. لكن العمل المجتمعي؟ لقد جُن الجميع. يفكر أن يحضر لها مفاجأة عند وفاته. سيحول

https://t.me/MktbtArab

كل ما ترثه منه إلى أسهم في شركة ماكدونالدز. فلتصبح بطلة حينها. لعلها تستحق جائزة نوبل.

هي من طلبت هذا اللقاء الليلة. لا بد أن هناك شيئًا مهمًّا ستخبره به. يرجو ألا يكون خبرًا سيئًا أو كارثة. كأن تخبره أنها حبلى أو على وشك الزواج بمكسيكي كما فعلت الكلبة أمها. أو أن تعلن له أنها سحاقية. أو أنها أصبحت تعرف نفسها بأنها رجل. كل هذا وارد مع جيل بول البعير. سحاقية أو رجل أفضل من الحمل دون زواج أو الزواج بمكسيكي. لكن سحاقية في السر. في الدولاب كما يقولون هنا. هذا أنسب له. وأفضل مائة مرة من زواج غير مناسب. اسم العائلة وتاريخها لن يتأثر بشيء أغلق عليه الدولاب.

قبل أن تتحدث هي عن سبب اللقاء أخرج لها هاتفه وفتح الصور المنشورة على مجموعة السادس أحمر. انزلقت عيناه إلى الصور المنشورة مؤخرًا. استوقفته واحدة منها تظهر فيها والدته تقف في الصف في اليوم المفتوح وهي تنظر شزرًا إلى أم يعرب. رباه. كل مشاعرها كانت في عينها. لا تعرف كيف تخفي أي شيء.

كبَّر صورة التخرج وأعطى هاتفه إلى دانيا وطلب منها أن تعرف أين هو من بين مجموع الطلاب. تركت الجميع وأشارت إلى خصمه وليد وقالت بثقة: «هذا أنت». غبية كأمها. لا يلوم إلا نفسه. هو من نزل بمستوى السلالة كلها عندما أدخل عائلة رند إلى خزان الجينات. عائلة معروفة في العهد الملكي، ولكن ما أصلها؟ «كولمند». قالتها له أمه بوضوح عندما فاتحها برغبته في الزواج برند. «كولمند». كان قد سمع بالكلمة كثيرًا وهي تقال في سياق انتقاص، لكنه لا يعرف معناها بالضبط. قالت له ببساطة: «تعني أنهم أصلًا كانوا مماليك. شركس أو ألبان. جلبهم العثمانيون معهم ثم أعتقوهم». كان شابًّا وغبيًّا آنذاك. قال لها إن هذا النسب أفضل من نسب الفلاحين والعُربان الذين سادوا لاحقًا. وجهة نظر لم تعلق أمه عليها.

قالت له: «سمعة أبيها وجدها جيدة. لا غبار عليهم. لكن أحببت أن أوضح لك: هذا أصلهم». لاحقًا دفع ثمن اختياراته. هزيمة منكرة لم يكن يتخيل أنه سيمنَّى بها. رند كانت جميلة جدًّا ـ غالبًا بسبب أصلها الشركس أو الألباني، ورغم أنها اصطادته، فإنها كانت محط أنظار الكثيرين، كانت لديها خيارات كثيرة لكنها خططت لتأخذه، وبطريقة ما كان يعتبر هذا كله انتصارًا له، من ضمن انتصاراته الأخرى التي حققها في الفترة نفسها. تخرج الرابع

https://t.me/MktbtArab

على الكلية. واجتاز كل امتحانات المعادلة الأمريكية من أول مرة وبنسبة عالية. تخصص في جراحة الجهاز الهضمي في مستشفى مايو كلينك، أهم مستشفى للجراحات الهضمية في العالم.

بطريقة ما انتصر على كل منافسيه. كان بارًّا بوعده لأمه. يوم قالت له إنهم أخذوا كل شيء منا وعلينا أن ننتصر بطريقة أخرى، رسمت له خريطة طريق لحياته بأسرها. لا بد أن ينتصر على الجميع. أين وليد خالد اليوم؟ أين ريم مظفر؟ حتى الثلاثة الذين تقدموه في تخرجه، انتصر عليهم لاحقًا بما حققه، يتابع أخبارهم سرًّا لكي يتأكد من ذلك. واحدة اختارت تخصصًا هامشيًّا لتكون أكثر تفرغًا لبيتها وأولادها. والاثنان الآخران أكملا تخصصهما في العراق ثم ذهب أحدهما للعمل في الإمارات والآخر في سلطنة عمان. انتصر على كل من نافسه.

لكن عندما يسمع أن أولاد وليد أصبحوا أطباء، وكذلك أولاد رغد، يشعر أنه هزِم في هذه المعركة. لقد التفوا وهاجموه من الخلف. طعنوه في الظهر بينما هو منهمك في انتصاراته على الجبهة الأمامية. هل هذا انتقام رند منه؟ هل أدركت أنه غير واع لرخاوة جبهته الخلفية فأخذت تؤكد على هزيمته فيها؟ إن كان هذا صحيحًا فهي أحقر مما توقع.

نظر إلى دانيا شزرًا وقال: «لا. بالتأكيد لست هذا. لا شبه بيني وبينه على الإطلاق». ثم أشار لها إلى صورته. هزت رأسها هي وكأنها ترى الشبه. ثم قالت شيئًا أشد غباءً: «كلهم ينتعلون الأحذية في أقدامهم».

- ماذا؟ ماذا تقصدين؟

- أقصد أنكم في المدرسة كنتم تنتعلون الأحذية جميعًا. بل وملابس لطيفة، والمدرسات لا يغطين شعورهن.

- هٰذه الصورة التُقطت في عام 1979 وليس في 1079، وأؤكد لك، بغداد في 1079 كان أهلها ينتعلون الأحذية أيضًا. ثم إنك رأيت صور جداتك من كل الجهات، من جهتي ومن جهة أمك، رأيت صورهن وهن يرتدين الملابس على أحدث طراز في الستينيات والسبعينيات وهن يكشفن شعورهن بل وجزءًا من أفخاذهن، فلماذا تستغربين من شعر المدرسات في صورة تخرج في المدرسة؟

https://t.me/MktbtArab

- لا أعرف. الصورة النمطية للعراق هكذا، مدارس رديئة وأطفال حفاة ونساء محجبات.

- الصورة النمطية هذه حجة لصديقاتك ماديسون وهانا وإيما، وليس لك، أمك وأبوك من العراق، وشرحت لك ألف مرة أن أجدادي ساهموا في بناء العراق الحديث في العهد الملكي. الملكي. كيف تنسين هذا وتعلّقين؟ واو. كنتم تنتعلون الأحذية؟

- حسنًا لقد تسرعت.

تراجعها هذا يدل أن ثمة شيئًا مهمًّا تريد أن تخبره به، وإلا كانت جادلته لتقنعه أن الأحذية كانت نادرة في المجتمع العراقي وأن صورة التخرج تلك لا تمثل إلا نسبة صغيرة من المجتمع، كلام صحيح جزئيًّا لكنه يتجاهل حجم الطبقة الوسطى العراقية وتأثيرها.

- أبي، أردت أن أحدثك عن فيصل.

منذ قرابة خمسة أعوام لم يسمع بهذا الاسم. طلب منها تحديدًا ألا تذكره أمامه. حاول تجنب ذكره حتى في نفسه ومع نفسه. فشل في ذلك. هو هزيمته الكبرى وفشله الكاسح.

حاول تغيير الموضوع فورًا رغم أنه أدرك أن اللقاء كله قد رتِّب من أجل ما تريد الحديث عنه.

- ما أخبار رسالة الماجستير؟ هل تحدد موعد لمناقشتها؟

- نعم، أخبرتك بالموعد قبل شهر. أبي، لا تحاول تغيير الموضوع.

لا يريد أن يسمع باسمه. يوم ولِد، اختار له هذا الاسم رغم عدم سهولته في الولايات المتحدة. حذره أصدقاؤه أن الأمريكيين سيلفظونه «فيزل»، وحدث ذلك بالفعل لسبب لم يفهمه حتى الآن. لماذا الـ «ز» بدلًا عن الـ «س»؟ لا يفهم الأمر. لكن هذه أقل مشكلاته مع فيصل.

اختار له هذا الاسم تيمنًا بالملك فيصل الأول، مؤسس العراق الحديث. العراق الذي ساهمت أسرته في بنائه وكان لها مكانة كبيرة في عهده وعهد سلالته الذي دام قرابة أربعة عقود. كان اختيار الاسم بالنسبة إليه علامة هوية وانتماء إلى عراق أفضل لم يعش فيه ولكنه عاش ذكرياته عبر حنين الأسرة إلى ذلك الماضي «الملكي» الذي ساهم سوء العهود «الجمهورية» التالية في تبييض صفحته وتقديمه كما لو كان بلا أخطاء. فتح عينه ووعيه على حكومة

https://t.me/MktbtArab

«الحزب والثورة» وإعلام رسمي يذكر منجزاتهما ليل نهار، تاريخيًّا هو ينتمي بولادته إلى ما كان يسمى «جيل الثورة»، ثورة السابع عشر –الثلاثين من تموز المجيدة المباركة. لكن وعيه الذي تكوَّن عبر أسرته كان يجعله في خانة مختلفة تمامًا. كل منجزات «الثورة» التي تتغنى بها كتب المدرسة كانت تنفيذًا سيئًا لخطط «مجلس الإعمار» في العهد الملكي. قالت له أمه ذلك وكررته حتى صار جزءًا من بديهيات وعيه ولم يفكر في مراجعته أو التأكد منه. كل مشكلات العراق بدأت حسب أمه في منتصف تموز 1958 عندما انقلبت مجموعة من «ضباط الريف» –حسب وصف أمه– على الملك والأسرة المالكة وقتلوهم بطريقة بشعة في مجزرة قصر الرحاب. كل ما حدث للعراق لاحقًا كان كرامة للملك الشاب القتيل في صبيحة الرابع عشر من تموز. عندما اندلعت الحرب العراقية الإيرانية، بعد اثنين وعشرين عامًا من مقتل الملك، قالت أمه بثقة: «هذه حوبة «فيصل» المظلوم و«العائلة المالكة»». قالتها بالطريقة نفسها التي كانت تنظر بها إلى أم يعرب في الصورة التي مرت عليه قبل قليل.

كانت أمه تردد دومًا حكاية بدت له دومًا مثل الأساطير: ربما لم تكن حقيقية ولكنها تبقى مؤثرة وقوية جدًا. تقول الحكاية إن الملكة نفيسة (جدة الملك فيصل) في أثناء خروجهم من القصر كانت خرجت تحمل المصحف بيدها، وعندما أطلِقت النار على الجميع سقطت عليه وتلطخت صفحاته بدمها. يقال إن هذه النسخة من المصحف انتشلت وتناقلتها الأيدي وهي ملطخة بالدم. قيل يومها: سترون ما سيحدث.

مع وصول قوافل الشهداء في الحرب الإيرانية، وتكاثر قطع النعي السوداء في الشوارع كانت أمه تردد الحكاية الأسطورة حتى صارت جزءًا من فهمه لما حدث في العراق، وما قاده إلى الهروب من السفينة قبل أن تغرق تمامًا.

«فيصل» إذن، كان اختيارًا للعراق الذي لم يعش فيه، بالضبط مثل تشجيعه الساذج لعودة الملكية إلى العراق بعد سقوط النظام في 2003، تشجيع لمشروع لا فرصة له في التحقق، لكنه كان يعبِّر فيه عن انتمائه لذلك العهد الذي يؤمن هو –وكثيرون سواه– بأنه كان الأفضل في تاريخ العراق المعاصر.

لكن فيصل اختار مصيرًا يجعله أقرب إلى «فيصل الثاني» منه إلى «فيصل الأول» الملك المؤسِّس.

https://t.me/MktbtArab

- فيصل بحاجة إلى المساعدة يا أبي.
- مساعدة؟ بالتأكيد. الآن يتذكر أن له أبًا يمكن أن يساعده. لست سوى حساب مصرفي بالنسبة إليكم. والآن ماذا يريد مني؟ دعيني أخمن. شهادته الجامعية في تخصصه العظيم لم توفر له وظيفة مناسبة. والآن يريد المساعدة مني.

دخل جامعة نورث ويسترن في شيكاجو قبل سنوات لكي يدرس واحدًا من الاختصاصات التي تؤهله لدخول الطب. الكيمياء تحديدًا. دفع عن طيب خاطر أكثر من سبعين ألف دولار سنويًّا لأربع سنوات. ليس عن طيب خاطر «جدًّا» لكنه دفع على أي حال. هذا انتصار له أيضًا. ذهب إلى حفل التخرج وهو سعيد بأن فيصل سيلتحق بدراسة الطب ويريد أن يسأله عن الجامعات التي قدم عليها بالإضافة إلى جامعة نورث ويسترن. لا بد من وضع خطط بديلة. انتظر أن ينادى اسم فيصل مع خريجي قسم الكيمياء، لكنه لم يسمع الاسم ولم ير فيصل على المسرح. التفت سرمد إلى ابنته دانيا. ما الذي يحدث؟ لِم لَم يعلَن اسمه مع الخريجين؟ حتى لو كان متأخرًا في بعض المواد، المعتاد أن يعلَن تخرجه مع زملائه ثم ينهي متطلبات التخرج لاحقًا. نظرت إليه دانيا وهي مستغربة من أسئلته. قالت له: «لكن فيصل غيَّر تخصصه بعد سنة واحدة فقط من بدئه في الدراسة».

ماذا؟ لم يخبره أحد بذلك. «غيَّره إلى ماذا بالضبط؟ هل لا يزال قادرًا على الدخول إلى الطب؟».

لم ترد عليه. قالت إن عليها أن تجلس قليلًا بالقرب من أمها. كانت مرتبكة ورآها تختلس النظر إليه. أخذ يرسل رسائل نصية إلى فيصل ليسأله عن تخصص التخرج، ولِم لَم يخبره بذلك من قبل. لكن فيصل لم يرد.

ثم سمع اسم فيصل صلاح الدين، ورآه وهو يستلم شهادته. ماذا كان هذا التخصص؟ لم يركز كثيرًا. يتذكر أن العميد قال شيئًا عن تخصص المسرح، لكن لا بد أنهم أعلنوا عن تخصص آخر. المسرح؟ المسرح!

بعد دقائق فهم كل شيء. لقد تخرج فيصل بالفعل من تخصص المسرح من جامعة نورث ويسترن. لقد جعله يدفع ثلاثمائة ألف دولار من أجل شهادة بكالوريوس في «الرقص». فيصل غير تخصصه من الكيمياء إلى المسرح. وسرمد غير تخصص المسرح إلى «الرقص». اعتبر أن تخصص المسرح ليس

سوى تخصص «الرقص». اسم عائلته «صلاح الدين»، التي كان لها دور في تأسيس الحكم الملكي في العراق، أصبح مطبوعًا على شهادة الرقص.

فيصل كان خيبة أمل شخصية منذ طفولته المبكرة. طفل رقيق حساس كثير البكاء. تربية أمه. بالتأكيد كنت مشغولًا عنه ببناء حياة أفضل له وللجميع. كان سرمد يقنع نفسه. كما حاول أن يقنع نفسه أن هذا أمر عابر، وأنه سيكبر ليصبح قويًّا ناضجًا يرفع رأس أبيه واسم عائلته. لكنه ها هو يثبت أنه أكبر خيبة أمل يمكن توقعها. الرقص؟ تخصص في الرقص؟

بصعوبة تمكن من السيطرة على أعصابه وخرج دون أن يتحدث مع أحد. لو تحدث لصرخ أمام الجميع. قفل عائدًا إلى ميشيجان وألغى كل ترتيبات الاحتفال بتخرج فيصل. أمامه خمس ساعات قبل أن يصل إلى ميشيجان. اتصل برند للمرة الأولى منذ طلاقهما. صرخ بها وشتمها واتهمها بأنها السبب فيما وصل إليه فيصل. لم تسكت، بل صرخت به وشتمته هي أيضًا واتهمته بأنه هو السبب في ذلك. استمر الصراخ والشتائم وتبادل الاتهامات لربع ساعة دون هدف محدد غير تفريغ الغضب. لم يكن هناك نقاش أو حوار. ولم يكن هناك جدوى من أي شيء. كان واضحًا بالنسبة إليه أن رند كانت تعرف عن تخصص الرقص ولم تكن راضية عنه أو شمتانة به. لكنها كانت تتهمه هو بأنه السبب. كيف كنت تدفع للجامعة دون أن تحاول معرفة أي شيء عن التخصص؟ لكنه حاول بالفعل. ليس لأنه شك بأن فيصل قد غير التخصص، لكنه أراد فقط أن يطمئن على علاماته. لكن الجامعة رفضت تمامًا أن تفصح عن أي شيء دون موافقة خطية من فيصل. أخبرهم بأنه هو من يدفع. فأجابوه أن هذا لا يغير شيئًا من خصوصية معلومات فيصل. ما دام قد تجاوز الثامنة عشرة فهذه خصوصيته بغض النظر عمن يدفع تكاليف الدراسة. وفيصل لم يعطه الموافقة الخطية بالطبع بل لم يرد على اتصالاته بهذا الشأن. وها هو الآن يفاجأ بكل شيء. كانت محادثته مع رند مثل حوار الطرشان. بل مثل صراخ الطرشان. شتم هو المكسيكي وشتمت هي اللبنانية. قبل أن يغلق الهاتف في وجهها قالت جملة بقيت محفورة في أذنيه: «ألا تفهم؟ فيصل يعاقبك. يعاقب تعاليك وغرورك وأنانيتك وهوسك بالسيطرة والتنافس والفوز. ألا تفهم؟ لقد دمرته فعاقبك بأن اختار هذا التخصص تحديدًا لكي يحرجك ويجرحك».

https://t.me/MktbtArab

أغلق الهاتف كي لا يسمع المزيد. كلماته صبت دلوًا من الماء البارد عليه. هل يعقل أن هذا ما حدث فعلًا مع فيصل؟ هل فعل هذا ليعاقبه؟

في منتصف الطريق لا يعرف ماذا حدث غير أنه استيقظ ليجد نفسه في المستشفى. فقد السيطرة على السيارة وانحرف ليصطدم بالعمود الكهربائي الذي لولاه لانقلبت السيارة ولكان موته محققًا.

في المستشفى قالت له دانيا إن فيصل يقف خارج الغرفة ويطلب الدخول عليه. رفض أن يراه وقال لها أن تخبره أنه لا يريد أن يراه بقية حياته.

مرت خمس سنوات على هذا. جروح وجهه والكسور في فقرتيه تماثلت جميعها للشفاء. لكن ليس ما فعله فيصل.

لخمس سنوات رفض أن يسمع اسمه. تلصص عليه من هنا وهناك واكتشف أن أموره لا تسير على ما يرام. لم يجد عملًا ثابتًا، ذهب إلى نيويورك بحثًا عن عمل في مسارحها، عمل منفذ إضاءة في عروض قصيرة، ثم عمل مضيفًا للطيران في شركة طيران اقتصادية لم يسمع بها سرمد قبل ذلك. عمل في وظائف أخرى غير ثابتة، وحاول أن يقدم مسرحية مع مجموعة من زملائه ولكنه لم يصل بها إلى خشبة المسرح. سمع أن أمه وشقيقته تساعدانه. عدا ذلك لم يعرف الكثير عنه. كان شامتًا في كل ما يحدث له. يستحق. تخصص في الرقص.

ها هي دانيا الآن تخالف ما طلبه منها منذ خمس سنوات. تقابله لتتحدث عن فيصل. يحتاج إلى المساعدة.

لماذا لا يطلب المساعدة من أمه؟ أليست هي المسؤولة عما وصل إليه؟

قرأ في عينيها كلامًا يبدو أنها ليست في وضع مناسب لتفصح عنه بينما هي تطلب المساعدة لفيصل.

قالت بهدوء: «ما وصل إليه فيصل ليس مسؤولية أمي فقط. أنت أيضًا شريك فيما وصل إليه. لا يمكنك أن تهرب من ذلك يا أبي».

كان على وشك المجادلة وتعداد كل تضحياته من أجل فيصل مبتدئًا بالمبلغ السخي الذي دفعه من أجل «بكالوريوس الرقص» لكنه شعر أنها تتحدث عن شيء آخر غير المساعدة المالية.

ماذا هناك؟ ما به فيصل؟ عاد أبًا مجردًا من كل تهديداته ووعيده.

تغير وجه دانيا وكانت على وشك البكاء.

https://t.me/MktbtArab

- فيصل في المصحة يا أبي. منذ ستة أشهر.
- مصحة؟ ماذا تعنين؟ لم أعرف أن لديه مشكلة مع الكحول.
- مشكلته ليست مع الكحول. بل مع الهيروين. والمشكلة لديه منذ زمن طويل. منذ قبل الجامعة. وكلنا نعرف بالأمر.

قالت الجملة الأخيرة بلهجة فيها لوم. قالت دون أن تقول كلمة واحدة: أنت لا تعرف شيئًا. ما دامت حقنة الهيروين في السر فهي لا تؤثر عليك. كل ما يهمك هو اسمك ووجهك واسم العائلة وشعورك بأنك انتصرت على الآخرين بنا.

لم تقل شيئًا من هذا، لكنه سمعه. قاله هو بنفسه لنفسه.

أخرج دفتر شيكاته. كان قد توقع أنه سيحتاج إليه، لكن ليس من أجل هذا. نظر إليها كأنه يطلب منها أن تحدد رقمًا.

رأى في وجهها خيبة أمل كبيرة.

قالت: «لم أنهِ حديثي. ليس هذا كل شيء».

***

في طريق عودته إلى المنزل، أوقف سرمد سيارته على جانب الطريق. هذه المرة لم يصطدم بالعمود على الطريق، بل بما سمعه. صدمته اليوم أكبر من صدمة حفل التخرج. يومها كان غاضبًا. اليوم هو محبَط. مهزوم. يشعر أنه ركز على الجبهات الخطأ في حروبه.

أراد من فيصل أن يكون كفيصل الأول، ملك العراق ومؤسس الدولة.

لكنه يجده اليوم كفيصل الثاني، قتلوه حتى قبل أن يبدأ.

وهذه المرة كان هو القاتل.

تذكر الصورة التي رآها قبل قليل. درس الدين في الصف الثالث الابتدائي.

وأمه ترسل تلك النظرة إلى أم يعرب.

هذه المرة شاهد النظرة في عينَي أمه، لكنها كانت موجَّهة إليه هو.

https://t.me/MktbtArab

-11-

عزيزي وليد

طلب مني الدكتور آلب أن أرسل إليك رسالة أخرى أوضح فيها ما قلته في رسالتي السابقة من أن العالم سيبدأ في الانهيار بعد سبعة أيام من صورة التخرج. الدكتور آلب كان قد وضع في ذهنه أن تعبيري ربما يكون مجازيًّا، فأحب أن يستوضح مني عن الأمر، ومن ثم طلب أن أشرحه لك، أو أن أحذرك مما سيأتي.

تعبيري لم يكن مجازيًّا للأسف. عالمك سيبدأ بالانهيار بعد سبعة أيام. وسيكتمل ذلك الانهيار بعد ثلاثة أشهر، وستبقى طيلة حياتك تحمل هذا الانهيار وتبعاته صليبًا على ظهرك.

لا. ستحمله صليبًا داخل نخاعك. داخل عمودك الفقري. في أحشائك. لن يراه أحد. إلى أن تنفجر بعد عقود.

بعد سبعة أيام من صورة التخرج التي بدا فيها العالم واضحًا كعناوين الصحف، مرسومًا بدقة مثل خريطة مدرسية، ستذهب إلى المدرسة كما في كل يوم، والدك يوصلك ويوصل أيضًا ابن جاركم رعد الذي يصغرك بسنة، وأخته رولا التي تصغرك بثلاث سنوات -رعد سيموت في الأربعين من العمر، بالمرض اللعين، ورغم أن علاقتكما ستكون قد انقطعت منذ زمن طويل، فإن خبر وفاته سيخرِج كل الدفين من ذكرياتك- أمهما تنتظركم جميعًا بسيارتها الصغيرة (رينو 5) حمراء اللون، تقف بها قرب الباب الخارجي للمدرسة دون أن تدخل كي لا تعلق في الزحام. منذ أن تخرجت آخر شقيقاتك في الابتدائية

https://t.me/MktbtArab

وأنت تعود إلى البيت مع جارتكم أم رعد. الروتين الصباحي هو أن يوصلكم والدك في الصباح، وترجعكم أم رعد ظهرًا. صباح اليوم سيوصلكم والدك إلى المدرسة كما في كل صباح. وكما كل صباح، كان مذياع السيارة على إذاعة الكويت. برنامج صباح الخير والمذيعة أسماء دبوس. إذاعة الكويت في هذه الأيام هي الإذاعة رقم واحد في بغداد بلا منازع. بينما إذاعة بغداد وصوت الجماهير تغلب عليهما الجدية، كانت إذاعة الكويت تقدم برامج خفيفة منوعة. أكثرها رواجًا هذا البرنامج وموسيقاه المميزة التي تبعث على التفاؤل مع الصباح. وأيضًا برنامج «أخبار جهينة» الذي يذاع في الساعة الرابعة بعد الظهر ويتناول طرائف الأخبار حول العالم. في الثامنة إلا عشر دقائق سيغير والدك المحطة إلى إذاعة بغداد. الوقت المحدد لأغاني فيروز كل صباح. *طل وسألني. إذا نيسان دق الباب*. نعم، نيسان دق الباب ودخل، لكن دخوله هذه المرة سيكون مختلفًا جدًّا. ما بعد هذا النيسان ليس كما قبله. *بعدك على بالي. يا قمر الحلوين. يا زهرة تشرين. يا ذهبي الغالي*. ستعرف يا وليد أن ليس كل ما يبقى في البال يكون غاليًا لا غنى عنه، بل هناك ما سيبقى في بالك كنت تتمنى أنه لم يكن. رولا تراجع حفظ جدول ضرب التسعة بصوت منخفض ولكن مسموع. شقيقها رعد متكدر كعادته كل صباح، لا يزول هذا الكدر غالبًا إلا بعد ساعة أو أكثر. ويكون في الظهيرة في أوج نشاطه. والدك يحاول مداعبته دون جدوى كما يفعل كل صباح. ثم يدندن مع فيروز. *يا أنا يا أنا أنا وياك. صرنا القصص الغريبة. يا أنا يا أنا أنا ويك وانسرقت مكاتيبي. وعرفوا إنك حبيبي*. يميل عليه في الجملة الأخيرة ويكرر: وعرفوا إنك حبيبي. لم يكن أي أحد بحاجة إلى أن يسرق «المكاتيب» ليعرف أنك يا وليد حبيب أبيك وأمك والأسرة كلها. الولد بعد ثلاث بنات. لكن هذا الحب يأتي مع ضريبة باهظة كانت جزءًا مبكرًا من وعيك منذ بداية تكونه. ضريبة التوقعات المرتفعة التي عليك أن تحققها مقابل هذا الحب. سيعلّق والدك على الأغنية: «هل تعرف أن اللحن مأخوذ من موزارت؟ السيمفونية رقم 39». فيروز تغني على أنغام موزارت بعد رحبنتها في مختارات صباحية من إذاعة بغداد، لكنكم -ابتداء من اليوم- مقبلون على أغنية أخرى لم تكن في هذه المختارات: *يا مركب الريح. خل البحر وانزل عا بر. من طول فرقاه دمعي على خدي عبر*. تجتازون معهد الفنون الجميلة مقتربين من المدرسة. تنزلون عند بابها الخارجي كي لا يعلق والدك في الزحام، عليه أن يصل إلى مستشفى «الجملة العصبية» في جانب الرصافة خلال مدة أقصاها نصف ساعة. مركب الريح كان في

https://t.me/MktbtArab

انتظاركم ذلك اليوم. لكنكم وقفتم تنتظرون أم رعد بسيارتها الـ (رينو 5) الحمراء الصغيرة، لتعود بكم إلى البيت بعد نهاية اليوم المدرسي.

ستلاحظ أن والدك في المنزل. هذا لا يحدث عادة، والدك عادة لا يأتي قبل الثالثة، وتنتظرونه جميعًا على الغداء، يأخذ قيلولة قصيرة ثم يخرج إلى العيادة. وجود أبيك في وقت مبكر نادر جدًّا. قد يتأخر وقد لا يأتي أصلًا. ولكن أن يترك المستشفى مبكرًا أمر غريب للغاية.

ستدخل غرفة المكتبة وتجد والدك وقد وضع جبهته بين يديه كما لو كان غير قادر على حمل رأسه. والدتك تقف بجانبه، وجهها ممتقع. تريد أن تقول شيئًا عن المدرسة لكن والدتك تقول لك فورًا أن تذهب لغسل يديك وإن لديها ما تتحدث به مع أبيك.

ستخرج أنت بينما والدتك تغلق الباب خلفك. ستعتقد أن ثمة مشكلة بينهما. لكنك ستدرك أن الأمر أكبر من ذلك عندما تلاحظ أن أمك تجري مكالمات هاتفية كثيرة من غرفة المكتبة. ستعرف ذلك من صوت الهاتف الموجود في غرفة المعيشة.

لن يأتي والدك لمائدة الغداء. بل سيخرجان هو وأمك. ثمة شيء غريب يدور. يبدو من الواضح أن شقيقته رغد تعرف شيئًا لأنها متجهمة. سألها فأنكرت معرفتها بشيء، بعد إلحاح قالت إن والدهم لديه مشكلة في المستشفى، وطلبت منه ألا يتحدث بشيء أمام رنا التي كانت تستعد لامتحان الثانوية العامة هذه السنة وغارقة تمامًا في الدراسة.

في اليوم الثاني يوصلكم والدك إلى المدرسة كالمعتاد. في الظاهر كالمعتاد. لكن لا مذياع ولا مداعبات لرعد ولا فيروز ولا دندنة معها. صمت غريب غامض يغلف رحلة الصباح من الآن فصاعدًا. الجو ذاته يخيم على البيت. أحيانًا ثمة غضب. وأحيانًا ثمة شيء آخر، لن تفهمه أولًا، ثم ستعرفه، اليأس. الإحباط.

بعد أسبوع من الصمت ستفهم ما الذي حدث. لقد أحيل والدك إلى التقاعد المبكر. لم يكن قد بلغ الخمسين بعد. كان في الثانية والأربعين. يحتاج إلى بحث واحد فقط لينال الترقية إلى درجة الأستاذية الكاملة ويكون أصغر بروفيسور في كلية الطب جامعة بغداد.

لم يكن وحده الذي أحيل إلى التقاعد يومها. كانت هناك قائمة كاملة وصلت إلى مكتب عميد الكلية مباشرة. قائمة ضمت أسماء أساتذة في الكلية

ما زال أمامهم عقدان على الأقل في العطاء والعمل. لم يكن هناك ما يجمع هؤلاء إلا أنهم «ليسوا بعثيين»، لم يقدموا طلب انتماء إلى حزب البعث العربي الاشتراكي. ربما كان هناك شيء آخر يجمعهم: كلهم ينتمون إلى طبقة اجتماعية معينة. متوسطة أو في الجزء العلوي منها. بورجوازيون ورجعيون بلغة البعثيين آنذاك. وعندما يجتمع الأمران، عدم الانتماء إلى الحزب، مع هذا الانتماء الاجتماعي المشبوه، فأنت متهم حتمًا بأنك معادٍ لخط الحزب القائد وثورته المباركة أو على الأقل لا تسير معه، ومن الأفضل أن تطهَّر الجامعة منك. أو أن تعاقب على الأقل على موقفك هذا، لكي تكون عبرة للجميع.

وبما أن القائمة كانت صادرة من مكتب السيد النائب شخصيًّا، صدام حسين، فقد كانت هناك تفسيرات شخصية للأمر. ليس ضد كل اسم من أسماء القائمة، بل ضد الأطباء من ذوي التعليم العالي بشكل عام.

لن تفهم أولًا لماذا أمر التقاعد سيئ جدًا إلى هذه الدرجة. هو أشبه بإجازة مع راتب. الراتب أقل؟ هل هو أقل لهذه الدرجة التي تستحق رد الفعل هذا؟

بالتدريج فهمت ماذا يعني أن يحال والدك إلى التقاعد وهو في هذه السن. أن يحرَم من حياته حرفيًّا. لم يكن لديه هوس أو شغف إلا بالطب وبجراحة الدماغ تحديدًا. فجأة يجد نفسه على المعاش. لا يمكنه أن يمارس العمل الخاص لأن طبيعة جراحات الدماغ تتطلب إمكانيات لا تتوفر في المستشفيات الخاصة التي كانت ضعيفة الإمكانات وقليلة في ظل تغول النظام الاشتراكي الحكومي على القطاع الصحي. يمكنه أن ينتسب إلى العمل في أحدها، يستأصل زائدة دودية أو يجري عملية مرارة. لكن عليه أن ينسى أي شيء له علاقة بالدماغ.

سترى والدك وهو يخبو، يذبل بالتدريج، من ذلك اليوم تحديدًا. الأربعاء الذي أحيل فيه إلى التقاعد.

تعرف ما معنى ذلك؟

معناه أن العد التنازلي للانطفاء قد بدأ.

كن مستعدًا.

***

قرأ الدكتور آلب الرسالة التي كتبها وليد على هاتفه. كان التأثر واضحًا عليه وهو يقرأ.

وليد كان ينظر إلى الأمام كما لو أنه لا يرى الدكتور آلب. الإرهاق واضح عليه.

- كيف تشعر الآن فارس بيه؟

- أشعر بالتعب دكتور.

- تعب من بذل جهد كبير أم تعب من يأس من كل شيء؟

- الأولى.

- هل يمكن أن تشرح لي أكثر؟

- أشعر كما لو أني قضيت الليل وأنا أحفر في جبل صخري.

- هل أزحت الصخور؟

- نعم. البعض منها على الأقل.

- كيف تعتقد أن وليد الصغير يشعر الآن؟

- يشعر بالاضطراب. لا يعرف ماذا يفعل. لا أدري هل كان من الأفضل له أن يعرف، أم أن انتظار البلاء أصعب من وقوعه.

- فهم «البلاء» أهم من الاثنين.

- صحيح. فهمه.

- كيف تفهمه الآن؟

- كما لو كنت متفرجًا يشاهد ذكرياته على الشاشة الكبيرة. بموسيقى تصويرية. ومؤثرات بصرية.

- هل تعتقد أن ذاكرتك قد أعادت ترتيب المشاهد على نحو غير واقعي؟

- لا أعرف. لكن ذاكرتي فاجأتني بالتفاصيل. استمرت التفاصيل بالحضور حتى بعد أن انتهيت من الكتابة.

- مثل ماذا؟

- مثل حلقة دالاس التي بُثَّت في ذلك اليوم. سوالين تريد أن تنجب حفيدًا قبل غريمتها باميلا، فتقرر أن تتبنى طفلًا. حلقة برنامج «العلم للجميع»، التعرض للرصاص يقلل من معدلات الذكاء. مركبة فويجر ترسل صورًا جديدة تكشف عن براكين فعالة في قمر تابع لكوكب المشتري. العمليات الجراحية بمساعدة المجهر تحدث تطورات في الجراحة العصبية.

https://t.me/MktbtArab

يبدو واضحًا أن آلب لا يعرف شيئًا عن مسلسل دالاس.

- لماذا تعتقد أن هذه التفاصيل لا تزال مختزنة في ذاكرتك؟

- لا أعرف. ذاكرتي كثيرًا ما تفاجئني بتفاصيل بدت غير مهمة وقت حدوثها.

- ما هو مهم وغير مهم نسبي جدًّا. اللاوعي لديه مقاييس مختلفة تمامًا عن الوعي.

- يبدو ذلك صحيحًا. لماذا أتذكر أسماء شخصيات مسلسل دالاس فضلًا عن تفاصيل حلقة بُثَّت يوم الأربعاء المصادف للتاسع عشر من نيسان عام 1979؟ هذا جنون.

- ربما لأنك وقتها ركزت في الحلقة وفي الأخبار العلمية كنوع من الإلهاء عما كان يحدث حولك ولم تكن تجد له تفسيرًا. ذاكرتك أخذت الإلهاء ودمجته بالحدث الذي كنت تهرب منه.

- يا للهول. هذا منطقي جدًّا. ومرعب أيضًا.

- لكن الأهم هو «التثبيت» الذي حدث لوليد لهذه المرحلة من عمره. العلة الحقيقية هنا.

- التثبيت؟

- نعم، لا بد أنك قرأت عن هذا. عندما تحدث صدمة كبيرة في واحدة من المراحل الحساسة في تطور شخصية الإنسان، ولا يُتعامَل معها بشكل صحي، فإن ثمة تثبيتًا يحدث مع هذه المرحلة. توقف في نمو الشخصية بحيث تبقى الشخصية عالقة في هذه الفترة الزمنية بشكل أو بآخر.

- ووليد ثبت في هذه المرحلة وحملها على ظهره؟

- هل تُعومِل مع صدمته على نحو صحي؟

- قطعًا لا. لم يعلم أحد بما كان يحدث في داخله إلا بعد عقود.

- كيف تعاملت إذن؟

- الكثير من التفكير، ولوم الذات، والشعور بالذنب.

- لم يكن هناك ما يخفف من عبء ذلك؟

https://t.me/MktbtArab

- الكثير من القراءة، الكثير من الموسيقى، واللجوء إلى الإيمان. هذه الأشياء الثلاثة أنقذت حياتي.

- في رسالتك هذه والتي قبلها، لاحظت أنك تمتلك أسلوبًا أدبيًّا في التعبير، هل جربت الكتابة؟ الكثيرون يتعاملون مع الكتابة كوسيلة للتعافي.

- أستطيع فهم ذلك الآن. لكني كنت أخشى أن أترك أثرًا على الورق يفصح للآخرين عما يدور في رأسي، لذا لم أحاول. على أي حال أي اتجاه إلى الأدب كان مرفوضًا في العائلة. المهم أن تركز في دراستك لتصبح طبيبًا ثم تختص في جراحة الجملة العصبية.

- وهل ركزت؟

- نصف تركيز. المتبقي من ذهني كان مشتتًا بصراعات الداخل.

حوارهما هذه المرة كان مثل لعبة منضدة بين لاعبين محترفين.

ابتسم آلب لأول مرة في هذا اليوم، ثم سأل: «كيف تشعر الآن؟».

- لا أزال متعبًا. لكني أشعر أن صخرة أزيحت عن صدري.

مجزرة مدينة الطب

بتاريخ 24 تشرين الثاني نوفمبر عام 1979 صدر قرار رئاسي بإحالة 48 أستاذ من أساتذة الكليات الطبية في الجامعة العراقية إلى التقاعد. شملت القائمة أهم الأسماء العاملة في مجال الطب والتدريس الطبي ضمن ملاك وزارة التعليم العالي والبحث العلمي آنذاك مثل خالد ناجي، وزهير البحراني، وخالد القصاب، ومكي الواعظ، وطلال ناجي شوكت، وخالد عبد الأمير الأزري، ونجم الحديثي، وسالم الدملوجي، وعز الدين شكارة، وصلاح العاني، وغالب العاني، ولمعان أمين زكي، وهادي السباك، ومؤيد العمري، ومحمد صالح العاني، ونهلة الشابندر وغيرهم.

عِرفت الحادثة باسم مجزرة مدينة الطب نسبة إلى اسم المستشفى التعليمي الأهم في بغداد.

لم يبرَّر القرار بأي صيغة رسمية، لكن الرأي العام هو أن هذه الأسماء كانت «مستقلة» عن حزب البعث العربي الاشتراكي.

بعد صدور هذا القرار صدر قرار آخر شمل مجموعة أخرى من الأطباء العاملين في وزارة الصحة.

https://t.me/MktbtArab

-12-

منشور من حساب «السادس أحمر» على صفحة المجموعة

من أنا؟

لست أيًّا منكم.

لكني فرع من فروعكم. أو ربما أنا الجذر.

أنا الظل الماشي خلفكم.

أو ربما أنا الأصل، وأنتم الظلال أمامي.

أنا لا أحد منكم. لكني جميعكم في الوقت نفسه.

أعرف عنكم ربما أكثر مما تعرفون عن أنفسكم.

أو على الأقل أكثر مما يعرف بعضكم عن بعض.

أنا الدرج المغلق على دفاتر المذكرات المنسية. ألبوم الصور العتيقة. أبيض وأسود وبالألوان.

الرسائل التي لم تفتَح، والرسائل التي لم تصل، والرسائل التي لم تكتَب.

أنا الصندوق الأسود الذي يحوي كل أسرار رحلتكم.

وأسباب سقوطكم.

لست أيًّا منكم. لكني وجه ترونه في المرآة. وخلفك، أمامها هناك مرآة. ثمة وجهان متكرران في غابة من المرايا.

واحد منهما، أنا.

https://t.me/MktbtArab

كانت ردود الأفعال في المجموعة على هذا المنشور متباينة.

لكن الجميع فهم شيئًا واحدًا، وإن كان بدرجات مختلفة.

الجميع فهم أن هناك شخصًا من الماضي، له صلة بواحد منهم على الأقل، يحاول أن يعود لكي يرسل رسالة إليهم. ربما يريد أن يمزح. عبث عابر.

أو ربما يريد أن يقول شيئًا ما.

كلٌّ منهم تخيل أنه المقصود في الأمر، وأن من أنشأ المجموعة وأرسل دعوات الانضمام كان يقصده أو يقصدها هو أو هي تحديدًا.

والبقية جاؤوا بأدوار ثانوية ليس إلا. أو كديكور مكمل لأجواء لم الشمل وتحفيز الذكريات.

كل منهم كان يعتبر نفسه في موقع المركز من المجموعة، والسبب الرئيسي في إنشائها.

***

كان يعرب هو أول من كتب تعليقًا يسخر فيه من تعريف السادس أحمر لنفسه.

«هل أنت شبح أم جني أم ماذا؟ إذا كان المجنون يحكي فمن يسمع عاقل. ماذا تظننا؟ قل من أنت ولا داعي للف والدوران. ماذا تريد أصلًا من كل هذا؟».

كان يعرب يعتقد أن من يقف وراء إنشاء المجموعة صحفي عراقي يطارده منذ فترة للحصول على مذكرات أبيه. لسبب ما يعتقد هذا الصحفي اعتقادًا يقينيًّا أن ثمة مذكرات كتبها والده وأنها السبب في كل ما حدث له. يعرب أكد له عدم وجود شيء من هذا القبيل، بل وأكد له أنه حتى لو في حالة وجود هذه المذكرات فهي ليست بحوزته، وليست بحوزة أي أحد من عائلته، لكن الصحفي مُصر أن هذه المذكرات موجودة في مكان ما لا يمكن أن يصل إليه أحد غيره. إصراره شكك يعرب، وسأل أمه، هل هناك شيء كهذا؟ نفت بشدة، وقالت إن أقصى ما يمكن أن يكون هناك هو ملاحظات عامة وجدول أعمال- أجندة. لا مذكرات ولا يوميات ولا شيء من هذا القبيل. جوابها جعله يشك في الأمر، الصحفي لم يقل إن هناك «يوميات»، بل قال مذكرات، لماذا ستنفي أمه وجود «يوميات» لم يشر إليها الصحفي؟ يفهم هو أن اليوميات غير المذكرات،

https://t.me/MktbtArab

لن تستطيع فعل ذلك بمفردها على أي حال. عربيتها فوق المستوى صفر بقليل. لن تستطيع أن تكتب هذا المنشور بمفردها. رند معها في المؤامرة بلا شك. ويمكنها بسهولة أن تصل إلى صديقاتها في مدرسة المنصور التأسيسية للحصول على المعلومات اللازمة للمجموعة. ربما وصلت إلى ريم مظفر وأخذت منها هذه الصورة التي وضِعت كأساس للمجموعة. لا بد أن هناك من تعاونٌ ممن كانوا في هذه الصورة أساسًا.

***

ريم من ناحيتها فكرت أن شقيقتها هبة هي التي تقف وراء المجموعة. لم تكن قد فكرت أو تساءلت عن الأمر قبل ذلك، لكن عندما قرأت منشور السادس أحمر كانت هبة هي أول من خطر ببالها. منذ أن بدأت هبة بالعلاج النفسي منذ سنوات وهي مهتمة بتشخيص مشكلات الجميع من حولها. قرأت الكثير بالفعل وحضرت دورات عامة ومتخصصة، وهي عمليًا نادرًا ما تتوقف عن الحديث عن هذا الأمر. أغرتها مرارًا وتكرارًا بالذهاب إلى معالج نفسي، لكنها فضلت الطبيب النفسي ووصفاته التي تقدم لها أدوية سريعة التأثير على كيمياء دماغها، بدلًا من جلسات «بوح» بدت أن لا خطة لها. حديث هبة الأخير عن اضطراب أمها أكد لها أنها ربما تريد أن تفتح هذه الموضوعات، وأن الأمر قد يكون مفيدًا لهبة من وجهة نظرها كما هو مفيد لها في ظرفها الحالي مع عودة السرطان.

ثم تذكرت: إشعار المجموعة وصل قبل أن تكتشف ريم نفسها أن السرطان عاد إليها. هل شكت هبة بعودة السرطان لأنها سبق وأن ذكرت لها بعض الشكاوى عن آلام الظهر؟ أم أن الأمر محض صدفة، كانت تريد أن تفتح دفاتر الذاكرة بكل الأحوال؟ بسرطان عائد أو بلا سرطان.

***

تارا كانت الأكثر ثقة بأنها المقصودة في إنشاء المجموعة.

منذ أن قرأت المنشور وهي تفكر في الأمر.

لقد عادت إذن. تريد أن تتواصل معها. صدتها أكثر من مرة. وضعت هاتفها في قائمة الحظر من كل وسائل التواصل الاجتماعي. ثم اتصلت من هاتف آخر. حظرته أيضًا. كل ما حصَّلته منها هو لقاء واحد فقط في

https://t.me/MktbtArab

ويعرف أن والده كان يقضي ساعات في الصباح قبل العمل في مكتبه دون أن يفتح عليه الباب أحد. هل كانت ثمة يوميات بالفعل؟

سألها مجددًا عن محتويات مكتب والده. قالت: «أخذوها. حتى رسائلي له فترة الخطوبة أخذوها. كل ما في المكتب أوراق رسمية وقصاصات ملاحظات عن العمل وخطط الوزارات التي كان يشرف عليها. ربما بعض الملاحظات عن الموظفين في هذه الوزارات. لكن لا شيء خارج المتوقع وبالتأكيد لا مذكرات أو يوميات».

«يوميات» مجددًا. دون أن يذكر هذه الكلمة.

بكل الأحوال، حتى لو كان هناك مذكرات فهي ليست بحوزته ولا بحوزة أمه، وحتى إن كانت بحوزته، فلن يفكر في تقديمها لصحفي يبحث عن السبق الصحفي وغالبًا الفضائح.

ما لا يستطيع أن ينكره أن هذا الصحفي لحوح ويبحث عن أدق التفاصيل، فاجأه مرة بمعلومات شخصية عن علاقات أبيه بأعمامه، عن مشكلة حدثت في المدرسة بين المديرة صوفي مبارك وأحد المسؤولين وتدخل والده لحلها لصالح المديرة. تفاصيل صغيرة هناك من يعلمها بالتأكيد، لكن الذين يعلمونها يعلمونها لأنهم كانوا في الحدث، ولن يجدها أحد عبر محركات البحث.

اعتقد يعرب أن الصحفي تعاون مع أحد الزملاء في إنشاء المجموعة لهدف دفعه إلى الإقرار بوجود مذكرات وهو يشعر بالأمان أمام أصدقاء الطفولة، ومن ثم يحرجه بهذه الإقرار.

***

سرمد الذي نادرًا ما يوافق يعرب في أي تعليق وجد نفسه يضع علامة إعجاب على تعليق يعرب. ما معنى هذا الشعر والهراء الذي كتبه مؤسس المجموعة؟ قل من أنت، أو من أنتِ ولا داعي لهذه الألاعيب.

اعتقد سرمد أن ابنته دانيا تقف وراء الأمر. غالبًا تهدف إلى التأثير عليه بموضوع فيصل. وقد قالت بالفعل إن فيصل في المصحة منذ أشهر- والمجموعة بدأت منذ أسبوعين تقريبًا، لذا من المحتمل أن تكون هذه المجموعة قد أنشئت لجعله في وضع نفسي هش، عبر تعريضه لمجموعة من الذكريات، والمقارنات مع أبناء الآخرين، ومن ثم دفعه للمساعدة في موضوع فيصل.

https://t.me/MktbtArab

التسعينيات. بعد فترة قصيرة من وصولها إلى السويد. طلبت لقاءها فقبلت. ثم قررت أنها لن تكرره.

طردتها من حياتها ونجحت في ذلك. نجاحها في طردها من ذاكرتها أقل بكثير. لكن تمر أيام وأسابيع طويلة دون أن تمر في بالها.

هل يمكن أن يكون سالار متواطئًا في الأمر؟ فاتحها في موضوع الصلح أكثر من مرة، وصدته بعنف يستحقه. ربما تكون قد تواصلت معه وتواطأ معها على ذلك.

لماذا تفعل هذا يا ترى؟ هل هي مريضة وتريد أن تودعها قبل أن تموت؟

***

سوسن فكرت أن ربما شقيقها لؤي هو من يقف وراء المجموعة. بالنسبة إليها، كانت مقتنعة تمامًا أن المجموعة أنشئت لغرض لم الشمل والذكريات لا أكثر، لكن الغموض الذي عرّف به «السادس أحمر» نفسه جعلها تفكر أنه ربما كان هناك شيء آخر، بمصلحة أكبر، يقف وراء الموضوع. وجعلها هذا الغموض تعيد التفكير في الكيفية التي وصل بها إليها مؤسس المجموعة، بعد كل هذه السنوات، وبعد تغير اسمها الأول واسم العائلة، لا بد أن هناك شخصًا قريبًا منها أوصل مؤسس المجموعة إليها. كان لؤي هو المتهم الأول في هذه الحالة، لأنه كان معها في المنصور التأسيسية لذا كان يعرف الكثير عن المدرسة، ثم إنه ذهب إلى بغداد كثيرًا خلال السنوات الماضية ولعله تواصل مع أحد هناك، وتواصل مع فرد أو آخر من أفراد المجموعة...

كانت تعرف أنه لن يستسلم أمام رفضها لطلبه، بل كانت تعرف أنها هي من ستستسلم آجلًا أو عاجلًا، لكنها لم تتوقع منه أن يحاول التأثير عليها بهذه الطريقة.

***

محمد عبد الجبار لم يكن لديه من يتهمه أو يشك به. لكنه كان يعتبر أن الموضوع يخصه بكل الأحوال، كائنًا من كان وراء المجموعة. كان يؤمن تمامًا أن الله يرسل إليه رسالة تذكره بكل ما كان، بكل وعوده التي نكث بها تجاه نفسه قبل كل أحد. كل ما نشِر في المجموعة جعله في مواجهة مع نفسه، قبل أن يحدث ذلك كان يلاحق سما على وشم في رقبتها، لكنه يتهرب عبر أمراض

https://t.me/MktbtArab

وهمية من مواجهة تخليه عن أمور كان يفترض أنها كانت محفورة في قلبه وكيانه بأعمق من أي وشم.

***

وليد كان فرحًا بهذا المنشور. لا بد أنها مي، زوجته التي اعتقد أنها قد تخلت عنه بعد أن خذلها مرارًا وتكرارًا، وقفت معه قرابة ثلاثة عقود، وخذلها هو تقريبًا خلال العقد الأخير، سلمته هي إلى شقيقته رنا كما لو أنها تقول: هذا حدي. خذني القرار أنتِ. وكان القرار أن يدخل المصحة. لم يعد ممكنًا تجاهل ما وصل إليه. فكرة أنها أنشأت المجموعة منحته أملًا أنها لم تتخل عنه كما كان يعتقد. ربما هي باقية عليه. ربما أحيت تحالفها القديم مع والدته لكي تحصل على المعلومات اللازمة وتعرف أسماء من كان معه في الصف. ذاكرة والدته أصبحت ملآنة بثقوب منذ زمن. أحيانًا تفاجئه بصحوة فينقية تستحضر فيها تفاصيل دقيقة لأحداث مضى عليها عقود، لكن هذه الصحوات عابرة، وبدأت تصبح نادرة مع الوقت.

فرح بهذا الاحتمال. مي وأمه خلف هذه المجموعة.

الاثنتان كانتا دومًا الملجأ والمنقذ بالنسبة إليه.

لو أنهما تعاونا لإنشاء هذه المجموعة، فهو بخير.

الخلاص قادم.

-13-

على صفحة المجموعة نشر حساب «السادس أحمر» فيديو طوله أكثر من ساعة.

مع الفيديو كتب تعليقًا واحدًا فقط: 16 تموز 1979.

تذكرون؟

كان الفيديو يضم تصويرًا لحفل ميلاد يعرب، سجلته والدته بكاميرا جي في سي جديدة كان والد يعرب قد جلبها من سفرته الأخيرة إلى ألمانيا (الغربية)، والدة يعرب تذكر ذلك وهي تصور وقائع حفلة عيد الميلاد، تعددت أصناف الطعام على المائدة، بعضها جاهزة مثل، صينية (القوزي) الكبيرة، كبة حلب، بتيتة جاب، بورك، قدر كبير من الدولمة قلبته أم يعرب بنفسها بينما الكاميرا بيد أختها سناء، كذلك هناك صينية كبيرة من ساندويتشات الدجاج والمايونيز التي يحبها الأولاد.

تعلق أم يعرب أنهم كانوا ينتظرون أن يشاركهم أبو يعرب قطع الكعكة لكنه تأخر لوجود اجتماع في القيادة. تقولها بطريقة فيها نوع واضح من الفخر بأهميته كما لو أنها تريد أن تسجل ذلك في الفيديو للتاريخ.

ترحب أم يعرب أيضًا بأمهات حضرن الحفل: أم ريم التي تبدو متحمسة جدًّا كما لو أنها تبارك في زواج يعرب وليس ميلاده الثاني عشر، وأم ياسمين التي تصر على أن تظهر ياسمين معها في الفيديو وتقف أمام كاميرا الفيديو وهي تبتسم كما لو كانت تقف أمام كاميرا فوتوجرافية.

https://t.me/MktbtArab

على مائدة الطعام نرى بوضوح أن يعرب محرج من إصرار أمه على التصوير، الأغلبية هم من أصدقاء الصف، مع أبناء لمسؤولين من صفوف أخرى مثل ابن سعدون غيدان وابن سعدون حمادي أو من مدارس أخرى مثل ابن طارق عزيز. هناك أربع فتيات فقط هن ريم وتارا وسوسن وياسمين، منزويات ويقفن إلى طرف المائدة كما لو أنهن تورطن في المجيء إلى حفل ميلاد (ولد) في الصف، أو كما لو أن الشهر الذي مضى منذ أن انتهت المدرسة قد جعلهن في مرحلة عمرية أخرى تفصلهن عن الاختلاط بالأولاد. حرفيًا كان هذا قد حدث بالفعل منذ أن تخرج الجميع في الابتدائية. الأولاد إلى مدارس البنين، والبنات إلى مدارس الفتيات، لا اختلاط سيحدث حتى الدخول إلى الجامعة بعد ست سنوات.

في الخلفية هناك أغانٍ مختلفة، أغلبها لبنانية. (حنا السكران) لفيروز، (يا ناسيني) لجورجيت صايغ، (ثانا) لعازار حبيب، (سالمة يا سلامة) لداليدا، (هزي يا نواعم) لعصام رجي، (تامي) لسامي كلارك.

في أثناء الطعام التصوير مستمر.

نسمع كلامًا في أثناء تناول الطعام، أم ريم تمتدح الطعام وتقول لأم يعرب إن طبخها عظيم وإنها لم يسبق لها أن تناولت (نواشف) مثل هذه منذ زمن، وسألتها تحديدًا عن «البورك»، لكن الكاميرا تسجل جواب أم يعرب التلقائي: «كله جاهز والله، من تجهيزات «أبو يونان»، ليس عندي وقت ولا قدرة على كل هذا، فقط ساعدت أمي في الدولمة، أمي دولمتها لا يعلى عليها، كذلك ساندويتشات الدجاج والمايونيز، أنا من صنعتها».

تداركت أم ريم ضياع فرصة المجاملة الكاذبة التي أحبطتها أم يعرب بصراحتها. بالتأكيد كان من الواضح لها أن كل (النواشف) كانت جاهزة، ومن تجهيزات أبو يونان تحديدًا، طعمها لا يخطئ، وبالتأكيد لن تخطئه أم ريم. علقت: «وساندويتشات الدجاج والمايونيز رهيبة. ليست سهلة أبدًا. ما شاء الله عليك».

صوت أم يعرب مجددًا: «أبدا. ماكينة «ست البيت» المولينكس تنهي كل شيء في دقيقتين. صدور دجاج مسلوق والقليل من المايونيز، وملح وقليل من البهارات، دقيقتان وكل شيء ينتهي. المهم أن تضعيه في «صمون فرنسي»».

https://t.me/MktbtArab

بينما الكاميرا تنقل ما يحدث على طاولة الطعام نسمع مجاملة أخرى لزوجة المسؤول المهم، صوت غير صوت أم ريم يعلّق على ثوب أم يعرب «الهاشمي» الذي ترتديه وتستعرض به أمام الكاميرا عدة مرات، بينما هي تقول: «هذا هدية من فريال الكليدار، مديرة عام دار الأزياء العراقية».

أم ريم تعلّق: «فريال صديقتي جدًّا، شغلها راقٍ وكلاس. طول عمرها أنيقة ومذوقة. لكن القالب غالب يا حبيبتي أم يعرب».

تشكرها أم يعرب وتطلب من شقيقتها سناء قلب الشريط في مسجل الكاسيت، ثم تعلّق: «هذه منوعات اشتريتها من تسجيلات (زاهد) خصيصى للحفلة أمس. هناك شريط آخر للمنوعات الأجنبية، كنت أفضل إلهام المدفعي الصراحة، لكن تعرفون الأطفال وأذواقهم».

أم ريم مجددًا: «أموت على إلهام. تعرفين إن زوجته هالة صديقتي منذ الثانوية؟».

صوت هامس من خلف الكاميرا، نسمعه بوضوح: «أحدهم من مكتب أبي يعرب اتصل وطلب أن تفتحوا التلفاز الآن».

أم يعرب تقف وتذهب لتفتح التلفاز في غرفة المعيشة وهي تطلب إيقاف شريط الكاسيت، كانت الأغنية هي نادي كول التي كان بعض الصغار يرقصون عليها.

أم يعرب: «انتباه للجميع، الرئيس في خطاب بمناسبة ذكرى الثورة، غالبًا هناك خبر مهم».

الكاميرا تنقل تجمع الجميع في غرفة المعيشة، صورة والد يعرب تتوسط الجدار وهو يرتدي بذلة رسميًا. على شاشة التلفاز الرئيس أحمد حسن البكر وهو يلقي خطابًا بمناسبة ذكرى ثورة السابع عشر من تموز التي تصادف يوم الغد.

ثم يقول شيئًا يجعل أم يعرب ترفع يدها لتؤشر للجميع أن يسكتوا.

نسمع صوتًا لسيدة كبيرة في السن: «ماذا قال؟ لم أنتبه».

أم يعرب ترد: «يقول إنه يستقيل لأسباب صحية».

ثم بصوت حاد: «سناء! لماذا أنت مستمرة في التصوير؟ أوقفيه».

ينقطع التصوير هنا.

https://t.me/MktbtArab

ثم نعود مرة أخرى إلى مائدة الطعام، قطع الكعكة. في الخلفية صوت التلفاز. موفق بهجت يغني: أهلًا بغداد حبيبتنا.

أم يعرب تقول إن الكعكة من معجنات الزيزفون، ثم تعلق أن اليوم أصبح يومًا تاريخيًّا ليس فقط لأنه يوم ميلاد يعرب بل لأنه اليوم الذي أصبح فيه الرفيق المناضل صدام حسين رئيسًا لبلدنا العزيز العراق. قالت ذلك بلهجة خطابية كما لو كانت في تحية العلم. الأطفال يتعاملون تلقائيًّا مع هذه الجملة بهذه اللهجة بالتصفيق الحاد كما تعودوا في تحية العلم.

أغنية عيد الميلاد تمر ببرود. أم يعرب ساهمة تمامًا ولا تشارك. شيء ما تغير في مزاجها. تشرف على تقطيع وتوزيع الكعكة لكنها متوترة. تتجاهل تمامًا مجاملات أم ريم المستمرة بلا انقطاع. تطلب من أحمد موفق أن يغني (عالمايا عالمايا) كما فعل في السنة الماضية لكنه يتملص بخجل.

ينقطع التصوير ثم يعود في صالة الضيوف.

نرى أم يعرب وهي تنظر إلى الكاميرا بينما تضع ابتسامة مجاملة من الواضح أنها بذلت جهدًا في وضعها في مكانها.

تقول أم يعرب: «تشرفنا أيضًا بحضور بعض من أولياء الأمور الذين رغبوا في لقاء أبي يعرب لكنه للأسف تأخر بسبب اجتماع في القيادة، طبعًا هذا متوقَّع في ظل الحدث المهم الذي أعلِن عنه قبل قليل».

الكاميرا تنتقل إلى الجالسين في غرفة الضيوف، يبدو عليهم جميعًا الارتباك الذي يحاول كل منهم أن يداريه بطريقته، بعضهم بالابتسام والبعض الآخر بعدم النظر مباشرة إلى الكاميرا.

تكمل أم يعرب: «تشرفنا بالأستاذ الدكتور عبد القادر كوراني، والد تارا، والأستاذ صلاح الدين، والد سرمد، والأستاذ مالك الغلامي والد سوسن، والحاج عبد الجبار الحداد والد محمد».

ثم توجه كلامها للجالسين: «يا جماعة أبو يعرب يسلم عليكم، اتصل الآن، يقول إنه سيتأخر ولن يتمكن من التشرف بكم، لكنه يطلب منكم أن تكتبوا له طلباتكم وتتركوها له وسيتواصل معكم بالتأكيد».

نسمع صوتًا من خلف الكاميرا: «هل هناك مشكلة لو قدمت طلبين؟».

ترد أم يعرب: «لا أبدًا، لا مشكلة».

https://t.me/MktbtArab

يبدو واضحًا أن الكل قد كتب طلباته سابقًا، سلموها جميعًا لأم يعرب التي ودعتهم على الباب وهي تجاملهم جميعًا بصعوبة. وسيبدو واضحًا أن أحدهم قد ترك كاميرا الفيديو تسجل دون أن ينتبه لذلك.

تبدو الكاميرا مثبتة في غرفة المعيشة وبشكل يشرف عليها من زاوية كما لو كانت كاميرا مراقبة.

أم يعرب تجلس على كرسي في الزاوية المقابلة للكاميرا وتحاول الاتصال بالهاتف. تنتظر قليلًا ثم تضع الهاتف. الخادمة تحمل الأقداح والصحون الفارغة من الغرفة.

والدتها تدخل الغرفة وتقول لها: «ابن الدكتور خالد لم يأتِ أحد ليأخذه حتى الآن. ينتظر عند الباب وقال يعرب إنه يبكي».

- يبكي؟ لماذا يبكي؟

ترفع صوتها لتنادي يعرب: «يعرب، تعال».

يدخل يعرب ويسألها فورًا: «أفتح الهدايا؟».

- لا. انتظر مغادرة وليد أولًا. عيب. ونادِه. تقول جدتك إنه يبكي. لماذا يبكي؟

- هو هكذا. أبو دميعة.

- اذهب وناده وإياك أن تشعِره أننا نعرف أنه يبكي.

يذهب يعرب. تجلس الجدة بالقرب من ابنتها وتسألها شيئًا بصوت منخفض.

ترد أم يعرب: «لا أعرف. لا أعرف شيئًا. لم يتصل ولا أعرف أي شيء عن الأمر».

- لكنك قلت قبل قليل إنه اتصل وقال أن يتركوا طلباتهم.

- كذبت. ماذا يمكن أن أقول غير هذا؟ أنا متوترة أصلًا ووجود الجميع يوترني أكثر.

يدخل يعرب ومعه وليد.

- حبيبي وليد، من كان المفروض أن يأتي إليك ليأخذك؟

- أبي. كان المفروض أن يقابل (عمو) أيضًا.

- لا بد أنه تأخر، لا بأس، الساعة الآن قاربت الحادية عشرة، هل تريد أن أتصل بوالدتك؟ يمكن للسائق أن يوصلك، بيتكم في الحارثية، صحيح؟

https://t.me/MktbtArab

- نعم، مقابل معرض بغداد.

- تمام، كم رقم هاتفكم؟

ترفع سماعة الهاتف بجانبها وتدير القرص بينما وليد يقول رقم الهاتف رقمًا رقمًا.

5411542

لحظات ونسمعها وهي تتحدث مع الطرف الآخر: «مساء الخير، أم وليد موجودة؟..نعم..أنا أم يعرب، صديق وليد...من معي...أهلًا وسهلًا...آه... نعم...حسنًا، لا مشكلة..فهمت...نستطيع أن نوصله نحن، السائق موجود،... أليست خالتك هي زوجة الدكتور حسان؟ نعم، بيتهم قريب».

تضع الهاتف. وليد ينظر إليها بجمود دون أن ينطق بكلمة.

تنظر إليه بصمت ثم تقول له: «سيارتكم تعطلت. سنوصلك إلى بيت خالتك لمعان في شارع الأميرات. وبعدها يأتون إليك هناك».

يهز وليد رأسه موافقًا.

- أمي، اذهبي مع وليد سنوصله إلى بيت خالته، تعرفين بيت دكتور حسان جميل في شارع الأميرات؟ البيت المجاور لبيت معلّة.

تقوم الجدة من مكانها وهي تسأل بصوت منخفض: «ماذا يحدث؟».

تؤشر لها أم يعرب بما يعني (أشرح لاحقًا).

يخرج وليد تتبعه جدة يعرب. يعرب يسأل مجددًا إن كان يمكن أن يفتح الهدايا، تسأله والدته عن خالته سناء فيقول إنها في المطبخ، تطلب منه أن يناديها.

تأتي سناء، تطلب منها أختها أن تكتب قائمة بالهدايا وأسماء أصحاب الهدايا.

تسألها سناء: «تبدين قلقة؟ ماذا يحدث؟».

- عبد الحميد خرج منذ السادسة صباحًا ولم يعد أو يتصل. إذا تأخر في العادة يتصل. حتى خروجه كان غريبًا. جاؤوا وطلبوا منه الذهاب معهم. في العادة يتصلون به.

- من (جاؤوا)؟

- حماية صدام، قالوا «السيد النائب» يريدك.

- أليست علاقته بصدام جيدة؟

https://t.me/MktbtArab

- بلى، المفروض، لا أعرف شيئًا غير ذلك.

- لم أنت متوترة إذن؟ تصورت أن التغيير الجديد سيكون لصالح أبي يعرب.

- لا أعرف. لست مطمئنة.

- إن شاء الله خير. لا تقلقي. من المؤكد أنه منشغل جدًّا.

يدخل يعرب وهو يحمل بيده علبة كبيرة ويصرخ بفرح: «أمي، ريم جاءت بهدية لعبة أتاري. أعتقد أنها غالية جدًّا».

ترد أمه وهي شاردة: «أمها ستفعل المستحيل لتصبح صديقتي».

يخرج يعرب وخالته. تكرر أمه محاولات الاتصال، ثم تقوم لتحضر علبة سجائرها ودفتر هاتف من المكتب وتعود لتتصل برقم تنقله من الدفتر.

- مرحبا فيوليت كيف الحال؟ توقعت أن أراك اليوم مع زياد...شكرًا، شكرًا....أم زياد حبيبتي، أبو زياد في البيت؟ مستيقظ؟ ممكن أتحدث معه؟ آسفة جدًّا الوقت متأخر.... نعم أبو زياد، أعتذر منك، لكن أبا يعرب طلبوه منذ الصباح وخرج معهم ولم يرجع. أحببت أن أطمئن منك.... نحو السادسة الصراحة.. حماية السيد النائب، عفوًا السيد الرئيس... أكيد، شكرًا، أشكرك، إن شاء الله. أعتذر مرة أخرى عن الاتصال المتأخر.

تضع سماعة الهاتف وتشعل سيجارتها. ثم ترفع سماعة الهاتف مجددًا. وجهها يتغير. تضغط على زر الهاتف عدة مرات. تنهض مسرعة لتتابع سلك الهاتف. تعود إلى الهاتف مرتبكة وتضغط على الزر مجددًا. تضرب بيدها على فمها كما لو أنها تكتم صرخة تريد أن تخرج.

تدخل سناء مسرعة: «ماذا حدث؟».

- اتصلت على طارق عزيز لأطمئن منه على عبد الحميد. وقطعوا الهاتف عن البيت فورًا.

سناء تنظر بوجوم ويبدو عليها أنها لم تفهم.

- ماذا يعني هذا؟

- لا أعرف. لكن الوضع غير مطمئن أبدًا. هناك مصيبة.

ثم تلتفت إلى الكاميرا وتقول: «هل هذه لا تزال تعمل؟».

ثم نرى يدها وهي تقترب لتوقف التصوير.

ينتهي الفيلم هنا.

https://t.me/MktbtArab

-14-

كاد يعرب أن يختنق وهو يشاهد فيلم عيد ميلاده الثاني عشر محملًا على المجموعة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها هذا الفيلم. لا يذكر أبدًا وجود تصوير للفيديو لهذا اليوم. لا يكاد يذكر أي تفصيل حدث في هذا اليوم في الأساس. كما لو أن هناك حجرًا كبيرًا وضع على ذاكرته فيما يخص هذا اليوم. يذكر اليوم طبعًا. يذكر ما حدث فيه، ويذكر أيضًا ما لم يحدث.. لكن تفاصيل الميلاد، وحوار أمه، وكل الدقائق الأخيرة من هذا الفيلم قبل إيقاف التصوير، كل هذا محي من ذاكرته كما لو أنه لم يكن.

كان في المكتب، أغلق الباب عندما أدرك ماهية المنشور الجديد، لم ينتبه لطوله في البداية. بالتدريج بدأ يعرف أين يذهب به هذا الفيلم. أحس بضربات في شرايين رأسه كما لو أنها أصبحت حبالًا تلتف حول رقبته. أخرج آلة قياس الضغط الإلكترونية من الدرج السفلي في المكتب ووضعها على ذراعه. أوقف الفيلم. ضغطه مرتفع. 160 على 120. توقع أن يكون مرتفعًا أكثر. 220 على 200 مثلًا. أخرج دواء الضغط من الدرج وابتلع حبتين مرة واحدة. تعامله مع ضغط الدم كان على هذا الأساس التقريبي. عينك ميزانك. يبدو أنه سيحتاج إلى حبة ثالثة، لكن ليس الآن.

وصل إلى خطاب البكر. الاستقالة. الإعلان عن انتقال الرئاسة إلى صدام حسين. كل شيء عاد إليه الآن. كل شيء تغير من هذه اللحظة. كيف وصل

https://t.me/MktbtArab

هذا الفيديو إلى هنا؟ كيف لم يعرف بوجوده أصلًا من قبل؟ كل هذه السنوات ومأساة حياته مصورة على الفيديو وأحدهم يحمِّلها على الفيس بوك.

تتداخل الأصوات في رأسه. أغنية عيد الميلاد. هابي بيرثداي. سنة حلوة يا يعرب. أهلًا بغداد حبيبتنا. أهلًا بعروس الحرية. الحرية؟! نكتة. I will survive.. حنا السكران. آبا وألبي جيز. تراجيدي وفولي فو.

كل شيء يتداخل. الأصوات والصور. صوت جدته الذي لم يسمعه منذ عشرين عامًا. صوت أحمد حسن البكر وهو يقول ما سيغير حياته. صورة أبيه المعلقة على الجدار. صورة غرفة المعيشة في البيت الذي كان.

كل شيء يهاجمه. يجثم على صدره. لا. يقتحمه. الدوار. الغرفة تدور. أي غرفة هذه. الباب. يحاول فتحه. يحاول الخروج. يفتحه. يدخل إلى الظلمة يرتطم بها.

***

استيقظ على حوار ميز فيه صوت زوجته.

- هل سيكون بخير يا دكتور؟

- نعم إن شاء الله. ركبنا له دعامتين. نسبة انسداد الشريان تجاوزت الـ 80 بالمائة. سيحتاج فيما بعد إلى دعامة ثالثة، وإلى تغيير نمط حياته.

سمع صوته يقول للطبيب: «ثمانون بالمائة فقط؟ قليل والله».

لا يعرف كيف خرجت هذه الجملة منه. لكنه سمعها بوضوح كما لو كانت من شخص آخر.

- حمدًا لله على السلامة أستاذ. نريد منك أن تبذل جهدًا في المحافظة على صحتك.

الطبيب من السلط. أصبح يميز كل لهجة عن أخرى، ربما أفضل مما يميز بين لهجات مناطق العراق. لعنة الله على كل من أوصلنا إلى هذا.

- أقلقتنا عليك يا يعرب. حرام عليك.

هذه مها. يريد أن يفتح عينيه لكنه يعجز عن ذلك. يحتاج الأمر إلى أن يبذل جهدًا أكبر.

يسمع صوت أمه وهي تقرأ الأدعية.

https://t.me/MktbtArab

- أمي.

يناديها بصوت جمع فيه كل قوته.

- نعم يا حبيبي. ألف سلامة عليك.

ترد عليه بصوت ملهوف.

- كيف خبأتِ عني هذا الفيديو كل هذه السنوات؟

يسألها بكلمات حاول أن يجمعها لتكون واضحة.

- لا يزال يهذي. لا حول ولا قوة إلا بالله.

قالت أمه بصوت منخفض كما لو كانت توجه حديثها إلى مها.

تحسس يدها وأمسكها بقوة.

- أمي، لا أهذي. الفيديو. كيف خبأتِه عني؟ ولمن أعطيته؟

- أي فيديو؟

تقول لمها مجددًا: «يبدو أنه لا يزال تحت تأثير البنج».

مها تقترب منه وتهمس: «نم الآن يا يعرب. ارتح. ستستيقظ وأنت بخير».

- افهموني. أنا واعٍ الآن. أمي. الفيديو. فيديو يوم ميلادي في السنة الخ**. في الـ 1979. اليوم الذي كان آخر يوم نرى فيه والدي.

- عم تتحدث يعرب؟

- عن الفيديو الذي صورته يومها. الفيديو الذي صورته بكاميرا الفيديو الجي في سي التي كانت جديدة يومها.

تسكت أمه كما لو أنها تحاول أن تستوعب ما قاله.

- فيديو الميلاد الذي صورتِه يا أمي. تذكرتِ الآن؟

- نعم... الآن أتذكر، صورت فعلًا. لكن نسيت الأمر تمامًا. ما الذي ذكرك به الآن؟

- لأنه حمِّل كاملًا على مجموعة على الفيس بوك.

- ماذا؟ كيف؟ من فعل هذا؟

- قولي لي أنت لمن أعطيته لكي أعرف من فعل هذا.

- الشريط ليس عندي يا يعرب. لم أرَه أصلًا. أخذوه كما أخذوا كل الأشياء، أعتقد بعد يومين فقط من تصويره. لولا أنك ذكرته الآن لما تذكرته.

https://t.me/MktbtArab

- لم يكن عندك طيلة هذه السنين؟

- هل تعتقد أني يمكن أن أخفي شيئًا كهذا؟

- نعم أمي، يمكنك ذلك لو أردت.

- صحيح، لكنه لم يحدث. من نشر هذا الفيديو؟

- لا أعرف، أحدهم أنشأ مجموعة على الفيس بوك باسم السادس أحمر. لم يعرِّف عن نفسه حتى الآن.

تدخلت مها: «عليك أن ترتاح يا يعرب. عرفتَ أنها الآن ليست من سرب الفيديو. بقيتَ تتحدث عن الفيديو تحت البنج وتصورنا أنك تهذي».

- كم طول الفيديو يا يعرب؟

- قرابة الساعة. لم أكمله. أو هذا ما أعتقده. لا أذكر. استيقظت الآن.

- أريد أن أراه.

تدخلت مها من جديد: «خالة، هل تريدين أن تسببي لنفسك الأذى أيضًا؟».

- هل من توقيت أفضل؟ أنا في المستشفى أصلًا. أين هاتف يعرب؟

حاولت مها أن تؤجل الأمر: «لكن خالة...».

ردت أمه بحزم: «أين الهاتف يا مها؟».

قال يعرب بصوت متعب: «دعيها ترى الفيديو يا مها. يجب أن تراه. آن أوان ذلك».

***

سرمد لم يتوقع أن يرى والده في الفيديو.

كان قد نسي تمامًا ما حدث يومها. أن يكون والده قد دخل عندما جاء ليأخذه أمر طبيعي ويحدث كثيرًا في إطار المجاملات. ما كان سيتذكر ذلك بكل الأحوال. لكن الفيديو يقول شيئًا آخر تمامًا. دخول والده كان مقصودًا ومع سبق الإصرار وضمن خطة. سمع صوته وهو يقول إن طلبه مكتوب.

لمح أيضًا نظرة يعرفها جيدًا وهو يسلم الطلب. نظرة تعالٍ واحتقار ممزوجة مع ذل لا يمكن أن يضيع عنها سرمد. نظرة «أحتقركم وأحتاج إليكم». نظرة «أنتم رعاع ولكني مضطر إلى تملقكم». نظرة «أنا أشتمكم الآن في قلبي». يعرفها جيدًا هذه النظرة. لم يحبها. كان دومًا يفضِّل نظرة «أكرهكم»

https://t.me/MktbtArab

«أحتقركم» «أنتم أقل مني». نظرات كراهية صريحة. هذا هو. لكن ليس والده. غالبًا أخذ نظراته الصريحة القاسية، وكل مواقفه اللاحقة، من رفضه لنظرات والده. من كراهيته لها. لا يريد أن يشتمهم في قلبه بينما يتملقهم. يريد أن يقول لهم في وجوههم: أنتم لا شيء. أنتم رعاع. وفاشلون. وأنا أفضل منكم.

كل ما فعلوه لاحقًا هو إثبات أنه كان محقًّا في موقفه. بأكثر مما تخيل. فشلوا أكثر مما كان يعتقد أنهم فاشلون. أثبتوا أنهم رعاع وأنهم فشلة وأنه أفضل منهم بكل بما فاق كل تصوراته عنهم.

لم يستوعب قط موقف والده منهم. يشتمهم في سره وفي علنه عندما يستطيع، في البيت وأمام من هم في طبقته ويشاركونه الموقف ذاته. فضل دومًا أن يكون عدائيًّا ناقدًا موجهًا تنافسه نحوهم في الدراسة، كما لو كان يقول لهم: أخذتم الحكم، لكنكم أغبياء. دراسيًّا على الأقل.

ما هو الطلب الذي قدمه والده لوالد يعرب في تلك الليلة؟ في الغالب لم يستطع والد يعرب أن يحقق شيئًا من طلبات عيد الميلاد تلك. أعدِم بعد أسبوع أو شيء كهذا. صدام تخلص من (الرفاق) جميعًا بعد أيام من وصوله إلى الرئاسة. بأسهم بينهم شديد، هكذا علَّق والده يومها.

شمت بوليد. يبكي لأنهم تأخروا عليه. في الثانية عشرة ويبكي لأنهم تأخروا عليه؟ يا للمدلل المفسود. يكره أن يوافق يعرب في أي شيء يقوله. لكن وليد كان «أبو دميعة» فعلًا. قال هو أيضًا أشياء كثيرة عن وليد. كان محقًّا فيها أيضًا. مؤسف أن ابنه فيصل يشبه وليد كثيرًا. بالفعل، من عاب ابتُلي. لا. من عاب ابتُلي بعشرة أضعاف على ما يبدو. أو مائة ضعف. على الأقل وليد دخل كلية الطب وتخرج فيها. فيصل درس الرقص وتخرج راقصًا. وهو مدمن الآن. وفي مصحة. يحاول أن ينسى هذا منذ أن أخبرته دانيا بالأمر. لكن الأمر لا يُنسى. لا يستطيع أن يتهرب من الأمر. سيدفع طبعًا نفقات المصحة. لكن دانيا تطالبه بأكثر من مجرد النفقات.

عاد إلى فيديو الميلاد. لعبة أتاري في 1979؟ لم يمتلك واحدة هو إلا بعد سنوات. ربما في 1983 أو قبلها بسنة. هدية ضخمة بكل المقاييس. بالتأكيد يحصل يعرب عليها، تملقًا ونفاقًا.

بقيت صورة والده وهو يسلم طلبه إلى أم يعرب ويرمق الكاميرا بقلق وتعالٍ مطبوعة في رأسه. أجرى جدول العمليات ووالده أمامه. لم يسبق أن

https://t.me/MktbtArab

رأى له تصويرًا كهذا. بقي يتساءل مع نفسه. ماذا كان الطلب الذي قدمه يا ترى؟

خطرت له الفكرة وهو في غرفة التعقيم قبل أن ينزع ثياب العمليات ويخرج. يمكنه أن يعرف بالضبط ماذا كان الطلب.

قبل أن يصل إلى سيارته أرسل إلى (طالب)، الشخص الذي يتولى حراسة بيت أبيه ويهتم بأمره منذ أن غادروا جميعًا.

أرسل إليه: دفاتر يوميات المرحوم والدي. سنة 1979. 16 تموز. صور لي الصفحة وأرسلها إن أمكن.

ساعات وأرسل إليه طالب الصفحة المطلوبة بخط والده المنمنم الصغير الذي يوحي بأصوله الأرستقراطية. لا علاقة بين الأمرين طبعًا، لكنه انطبع في ذهنه هكذا. جده كان خطه صغيرًا. وجده الآخر أيضًا. هكذا إذن لا بد أن يكون الأمر مع هذه الطبقة كلها.

كتب والده عن أمور عادية حدثت له في المحكمة صباح هذا اليوم. التقى أشخاصًا وتحدث مع زملاء محامين وقضاة. كتب تعليقًا عن (م. ش) وضعف لغته العربية في مسودة ناقشها عن مجموعة قوانين يتوقع صدورها قريبًا. يقصد وزير العدل مِنذر الشاوي بالتأكيد. يتجنب ذكر أسماء المسؤولين في يومياته خوفًا من زائر فجر يعبث بالأوراق ويبحث فيها عن تهمة لتبرير البطش. لكن هل الترميز بالأحرف الأولى كان سيحميه؟ هل كان يعتقد أنهم أغبياء لهذه الدرجة؟

في نهاية الصفحة وجد سرمد غايته. ذكر والده أنه ذهب ليحضر سرمد من عيد ميلاد صديقه. وأنه ترك طلبًا لإعادة النظر في الحد الأعلى للملكية الزراعية الممنوحة له بناء على موقعها من خط سقوط الأمطار. لم يذكر اسم والد الصديق، ولا أي إشارة له.

هذا الموضوع إذن. بقي يحارب فيه لسنوات طويلة دون جدوى. معركة استرداد الأراضي من قانون الإصلاح الزراعي. كان يطمح إلى أن يعاد النظر في موقع أراضيهم الزراعية المصادَرة مما يعرَف بخط سقوط الأمطار. اللجنة كانت قد حددتها أنها شمال الخط، وأعطتهم 1000 دونم على هذا الأساس. لكن والده كان يريد أن يطعن في قرار اللجنة، ويثبت أن الأراضي تقع جنوب

https://t.me/MktbtArab

خط سقوط الأمطار، مما قد يضاعف مساحة أراضيهم حرفيًا. هذه حرب والده المقدسة لاسترجاع ما كان يعتقد أنه حقوقهم المنهوبة بفعل القوانين الاشتراكية والشيوعية. ظل يحاول حتى أواخر الثمانينيات. لم ييأس من استعادتها. لكنه يئس من بقاء أي قيمة فعلية لها مع انهيار الزراعة وسيطرة واردات النفط على كل شيء.

فكر سرمد فيمن يمكن أن يكون «السادس أحمر» بعد هذا الفيديو. لا شك أنه يعرب إذن. من يمكنه أن يملك فيديو عائليًا كهذا غير يعرب؟ أو أحد أفراد اسرته؟ لماذا كان يعرب يتصرف إذن كما لو أنه أكثر من يشك فيمن يقف خلف المجموعة؟ لقد جن البشر.

***

ريم شاهدت الفيديو وهي تتلقى جرعة الكيميائي.

عرضت ديانا أن تأتي معها، لكنها أصرت على الذهاب بمفردها. أصبح الأمر اعتياديًا مع زيارة السرطان الثانية. العواطف والدعم مطلوبان أكثر في زيارته الأولى لأنك تكونين هشة وخائفة في الزيارة الأولى، وتريدين أن يقف أحدهم معك، بينما في الزيارة الثانية، تبدئين بتقبل الأمر. قريبًا ستذهبين بمفردك إلى ما وراء كل شيء. لذا لا بد من التعود.

ديانا عرضت وأصرت وألحت. لكن ريم انتصرت. في النهاية هذه العيادة يجب أن تبقى مفتوحة لكي تدفع أقساط المنزل على الأقل. ذهبت بمفردها. هذه المرة بالحجاب. شائع جدًا أينما كان هناك سرطان. قرأت الفاتحة والمعوذتين و«قل هو الله أحد». زادت هذه المرة أذكارًا وتسابيح وهي تمسك بمسبحتها «الكهرمان» التي أهدتها لها أم دريد. الله يرحمها. كانت امرأة فاضلة ولم تر منها إلا كل خير. ربما لو لم تتوف ما كانت طلبت الطلاق من دريد ولا أصرت عليه. رغم النظرة المعتادة عن كل زوجات المسؤولين، كانت أم دريد متواضعة وتحب مساعدة الآخرين ومتمسكة بالشعائر جدًا، ونادرًا ما تتحدث بسوء عن أحد. تذكرتها على كرسي الكيميائي وترحمت عليها. لو رأيتِني الآن يا خالة. ما كانت تقول هذا عن أمها. لأن أمها ستلومها حتمًا على كل شيء.

بدأت بمشاهدة الفيديو. التاريخ لم يعنِ لها أي شيء أولًا. ثم تذكرت حفل ميلاد يعرب. لم تكن ترغب في الذهاب. قالت لأمها إن كل البنات في الصف لن

يذهبن. لكن أمها اصرت، وذكرت لها أن تارا وياسمين وسوسن سيكن هناك. بالفعل. كن هناك. لا بد أنها اتصلت بأمهاتهن.

بينما الكيميائي يسري في عروقها، وكلمات هبة عن نرجسية أمها لا تزال في أذنيها، ومسبحة أم دريد في يدها، وجدت ريم نفسها تشاهد فيديو الميلاد كما لو أنها تشاهد أمها لأول مرة من زاوية مختلفة. كانت تعتقد دومًا أن أمها مجاملة ولبقة، عندما ترغب في أن تكون كذلك. كانت حمقاء. أمها كانت تتملق وتنافق أم يعرب بوضوح. وكانت أم يعرب تتجاهلها بوضوح أكبر. شعرت بالإحراج من الموقف بعد أكثر من أربعين عامًا. كان نفاقها واضحًا للجميع، إلا هي. كانت تفعل كل شيء لتتقرب من أم يعرب فقط لأن زوجها وزير ومسؤول مهم وعضو في القيادة القطرية. تذكر تمامًا كيف انقلبت الآية بعد أيام فقط، عندما انتشر -ومن ثم أذيع- أن عبد الحميد جبارة، والد يعرب، قد شارك في مؤامرة ضد صدام حسين، وأنه اعتقِل ومن ثم أعدِم.

أخذت والدتها تنتقد أم يعرب وتسخر من الثوب الهاشمي الذي ارتدته في ميلاد يعرب. الثوب نفسه الذي تسمعها وهي تمتدحه في الفيديو. تذكر أنها أصبحت تقول عنها إنها «متكبرة»، «نوفوريش»، «ذوق سز»، كل ذلك بعد أن تغيرت أوضاع أسرة يعرب. ليس هذا فقط، بل كانت محرجة من حضورها حفل ميلاد يعرب قبل أيام قليلة من إعدام والده، ولامتها هي على الأمر. قالت إن الأمر كله بسببها وبسبب وجهها. بالضبط كما قالت لها عندما «سفّرت» سوسن. وفي ألف شيء آخر.

تذكرت كلام هبة. اضطراب الشخصية النرجسية. ربما كلامها منطقي. هل يمكن حقًا تشخيص الناس بعد وفاتهم؟ هل يحقق هذا أي نفع؟ ليس لهم بالتأكيد. ربما لمن عاش معهم وحولهم. لضحاياهم بالأحرى. إن صح هذا التشخيص.

يدخل يعرب وهو يخبر أمه عن هديتها، ريم، لعبة أتاري. تعلق أمه بجملة مستفزة عندما تصدر من غريب. لكنها كانت تفكر فيها قبل دقائق.

أتاري؟ هدية منها؟ مستحيل. لم يحدث. صعب أن تنسى شيئًا كهذا. على الأقل ما كانت أمها ستسكت بعد أن أعدِم والد يعرب. كانت ستلوم الجميع على هذه الهدية الغالية التي أُعطيت للتقرب من زوجة شخص أعدِم لاحقًا.

لكن كان هناك شيء بخصوص الأتاري في العائلة. لا تتذكر تمامًا. لم تكن لعبة الأتاري ضمن اهتماماتها يومًا، ولا ينبغي أن تكون. من غير المفهوم

https://t.me/MktbtArab

أصلًا أن تكون هذه اللعبة هدية من فتاة لزميلها في الصف. لكن هذا في الأحوال العادية فقط. هنا لدينا قصة معقدة جدًّا.

أرسلت رسالة إلى مصطفى. "متى أصبح لدينا لعبة أتاري في البيت يا توفي؟ هل تذكر شيئًا بخصوص اللعبة في 1979، عندما كنت أنت في الصف الثالث؟».

اتصل فورًا: «ريم! أنت بخير؟ المفروض أن لديك جلسة كيميائي الآن!».

- نعم، أنا بخير. أنا في جلسة الكيميائي بالفعل. هل تذكر شيئًا عن الأتاري؟

- نعم. جلبها أبي من لندن عندما سافر وحده. وأمي عاقبتنا لسبب لا أذكره. أقسمت ألا تفتح علبتها ولا نراها حتى. ثم قالت إنها باعتها وتصدقت بثمنها كي لا تحنث بقسمها. ما الذي ذكرك بهذا الآن؟

- تذكر يعرب عبد الحميد جبارة؟

- بالتأكيد. كان في شعبتك نفسها. ما علاقته بالأمر؟

- أمك أهدته لعبة الأتاري في يوم ميلاده.

- ماذا تقصدين؟ هل أهدته إياها بعد أن أعدِم والده؟ كانت تواسيه يعني؟

- لا أبدًا. قبل أن يعدَم بأيام أو أسابيع تقريبًا.

- كيف عرفت ذلك؟

- قصة طويلة ومعقدة وصعبة. تقريبًا أصعب من جلسات الكيميائي.

***

تارا كانت تذكر جيدًا ذلك اليوم. على الأقل تذكر أن والدها جاء متعمدًا ليدخل ويقابل والد يعرب عندما انتهى حفل عيد الميلاد. تذكر ذلك لأن الأسبوع الذي سبق يوم الميلاد كان مليئًا بنقاشات محتدمة حادة، وأحيانًا معارك، بين والديها.

وكان سبب هذه المعارك هو هذا الطلب الذي تقدم به والدها مكتوبًا إلى والد يعرب.

لم تكن تارا في البداية تعرف لم كل هذه المشادات بينهما. كانا يحرصان أولًا أن يكون الكلام مكتومًا، بصوت منخفض، خلف الأبواب المغلقة.

https://t.me/MktbtArab

لكن لاحقًا فقدا السيطرة. بدأت تسمع كلمات معينة متكررة. تحديدًا «البراءة»، «المصادرة»، «أراضي شيخان».

وبالتدريج فهمت الأمر.

التحالف بين الحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث الحاكم انتهى. أحد الشيوعيين كان ثملاً فقال فيما معناه إنهم ينوون التخلص من كل البعثيين. ولأن النية موجودة عند الكل تجاه الكل، فقد استغل البعثيون هذا الاعتراف «تحت تأثير المسكرات» لينكلوا بالشيوعيين الذين سبق ودخلوا «الجبهة الوطنية» مع حزب البعث. كان على كل الشيوعيين تقديم «براءة» من الحزب الشيوعي العراقي، وإثبات ولائهم وإخلاصهم لحزب البعث العربي الاشتراكي.

والدة تارا كانت ترفض تقديم البراءة في البداية. كانت مؤمنة تمامًا بمبادئ الحزب. وكان خروج زوجها من الحزب وانتماؤه «الشكلي» إلى حزب البعث يشكِّل لهما أزمة زوجية. لو أنه خانها مع كل سيدة يراها لكان أهون عليها من أن يخون الحزب. كانت تعايره بهذا لسنوات. والآن، صار عليها أن تكون مثله. أن تتبرأ من الحزب الذي لم يكن فقط السبب في زواجهما، بل كان كل شيء بالنسبة إليها.

في الأشهر التي سبقت «يوم الميلاد» هذا، فقدت والدة تارا عملها في جريدة «طريق الشعب» التي كانت الناطقة بلسان الحزب الشيوعي العراقي. أقفلت الجريدة، وطلِبت هي للتحقيق عدة مرات بسبب مقالات كانت سبق ونشرتها في الجريدة. واحد منها تسبب في مشكلة كبيرة، عن انتماء نسبة كبيرة من الفنانين العراقيين (من شعراء ومطربين وملحنين) إلى الحزب الشيوعي وأثر ذلك على اختياراتهم الفنية. المقال ذكر أسماء هؤلاء الفنانين (وبعضهم كان قد ترك الحزب الشيوعي وتبرأ منه وانضم إلى حزب البعث) فأوحى ضمنًا أن كل الأسماء المهمة في عالم الطرب والغناء العراقية هي شيوعية أصلًا.

كان التقدم بطلب البراءة من الحزب الشيوعي قد أصبح حتميًا ليكون بديلًا عن السجن والمحاكمة، لم تقتنع والدة تارا في البداية وتوقعت أن يحدث ضغط ما من الاتحاد السوفياتي على النظام العراقي لإنقاذ البقية الباقية من الحزب الشيوعي العراقي. لم يحدث. الحرب الباردة لا تحتمل ضغوطات داخلية مثل هذه. والعراق لا يحتاج إلى مساعدات اقتصادية من أي نوع، على العكس، صفقات الأسلحة التي تعاقد العراق عليها تدر ربحًا على الاتحاد السوفياتي.

https://t.me/MktbtArab

لذا يمكن للاتحاد السوفياتي أن يضحي بالشيوعيين العراقيين بسهولة. تأزم الأمر جدًّا مع اعتقال خال تارا، سعد، الذي كان عضوًا في الحزب الشيوعي أيضًا، الجزء الذي تحالف مع البعث، وزوجته وصديقة أمها المقربة، تماضر. وافقت أخيرًا على تقديم طلب البراءة، لكن قيل لهم إن التأخر في تقديم الطلب سيفسَّر على نحو مضر، لذا من الأفضل أن يقدَّم الطلب إلى وزير أو مسؤول مهم، ويفضَّل أن يكون عضوًا من الكوادر الحزبية المتقدمة، لأن هذا سيمنح نوعًا من الحصانة لمقدِّم الطلب، وهكذا جاءت الفرصة مع حفل ميلاد يعرب. والده حزبي مهم بل وهو عضو في القيادة القطرية. واحد من أهم عشرين حزبيًّا في العراق. ولعله من العشرة الأهم أيضًا. هذه هي الفرصة للنجاة من الملاحقة والاعتقال، ومن مصير الخال سعد والخالة تماضر. لم يكن معروفًا مصيرهما بعد، لكن لاحقًا سيعرَف أن سعد ذُوِّب في الحامض. الخالة تماضر خرجت بعد سنتين. لم تتحدث مع أحد بشأن ما حدث معها.

تعرف جيدًا الطلب الأول الذي تقدم به والدها يومها. أما الطلب الثاني فقد وعد أمها بأنه لن يقدمه. كان يخص عمته. صودرت أرضها كما صودرت كل الأراضي في قضاء (شيخان) كجزء من خطة تهجير الأكراد وتعريب المناطق الكردية عبر إسكان العرب محلهم. كان طلب والدها يجادل أن أراضي زوج شقيقته تقع أصلًا في قضاء عقرة المجاور، ولكن عُدِّلت الحدود سابقًا بحيث أصبحت ضمن شيخان، ولو لم يحدث ذلك لما صودرت. والدتها كانت تقول إن تقديم هذا الطلب سيؤثر على طلبها، الأهم والأخطر في رأيها. تشاجرا معًا على هذا الأمر واتهمته بأنه يفضِّل (القومية) على (المبادئ)، سخر هو منها لأن طلبها كان يتبرأ من كل المبادئ بالأساس. اعتبرت هذا الكلام إهانة وشتمته وشقيقته البورجوازية التافهة وزوجها (الإقطاعي الحقير سليل العهد البائد). تبادلا شتائم من هذا النوع. خائن للبروليتاريا. ستالينية. تروتسكي. شوفينية. رجعي. طوباوية. عدو للطبقة العاملة. وهكذا. كانت قد بدأت تفهم هذه العبارات. منذ أن أخطأت في موقعة الحزب الشيعي–الشيوعي بدأ والداها يشرحان لها المصطلحات الضرورية لتجنب مواقف مماثلة. تبدو الشتائم الآن كالنكات لكنهما كانا يتبادلانها بمنتهى الجدية.

في النهاية وعد والدها أنه لن يقدم الطلب الآخر. البراءة أهم. وافقت أمها وهدأت الأمور.

اليوم تكتشف أنه لم يفِ بوعده وقدم الطلبين.

https://t.me/MktbtArab

خلال أيام بدأت الإشاعات عن وجود مؤامرة على (القيادة) من داخل القيادة نفسها. وكان اسم عبد الحميد جبارة ضمن أسماء «الخونة». ثم تأكدت الإشاعات، وحكِم على الرفاق المتآمرين بالإعدام، وكان عبد الحميد جبارة في مقدمتهم.

شكَّل هذا مشكلة كبيرة لوالديها. لقد تقدما بطلب براءة من الحزب الشيوعي إلى خائن ومحكوم عليه بالإعدام. أيهما أكثر جرمًا؟ الانتماء إلى الحزب الشيوعي أم التواصل مع بعثي خائن ومتآمر ومحكوم عليه بالإعدام؟

تصاعدت المشكلات بينهما. كل يوم كانت تارا تستيقظ على صوت المشاجرات.

ثم استيقظت ذات يوم على صوت الصمت.

والدتها ليست في البيت. قال لها والدها إنها ذهبت إلى كركوك لرؤية بعض الأقارب.

ثم قال لها إنها سافرت وستعود قريبًا بعد أن تهدأ الأوضاع.

في الحقيقة كانت قد هربت عبر الشمال إلى تركيا ومن ثم ذهبت إلى تشيكوسلوفاكيا. أيام كان هناك دولة بهذا الاسم.

لم ترها بعد ذلك إلا في التسعينيات.

وكان العالم كله قد تغير. بما فيه هي. تارا.

***

أخذ الفيديو سوسن إلى بغداد التي تركتها. عصر أعياد الميلاد والاحتفالات والهابي بيرثداي تو يو. دادي كول. عندما تركت بغداد، لم تحضر أي حفل من هذه الحفلات. عاشت في إيران عيشة بائسة بلا احتفالات من هذا النوع. سقطوا جميعًا من الجزء العلوي في الطبقة المتوسطة إلى «تحت الدرج». أو إلى القبو. كل شيء تغير فجأة. تذكرت أن هذه الحياة بينما استمرت بالنسبة إلى الباقين لفترة طويلة، أغلب طفولتهم على الأقل، حرمت هي منها في غمضة عين وبلا أي تمهيد. لم يحذرهم أحد أن ذلك ممكن الحدوث. عاشت طفولتها تبني أحلامًا وتصنع قصورًا على الرمال. ثم فجأة انهار كل شيء على رأسها. ووجدت نفسها في حي دولت آباد البائس جنوب غرب طهران. من حي دراغ الراقي في بغداد إلى حي دولت آباد في طهران. اليوم تغير هذا

الحي كثيرًا، صدِمت قبل مدة عندما شاهدته على اليوتيوب. لو أنها ذهبت إليه اليوم لربما ما كانت أصيبت بالكثير من جروحها. يومها كان أقرب إلى العشوائيات. عادة اللاوعي يستعيد الذكريات ويعاملها معاملة حسنة عبر تحسينات تشبه عملية الفوتوشوب. ليس دائمًا. ذكرياتها تفعل ذلك فقط مع بغداد قبل الترحيل. قبل أن تأتي الباصات. كل شيء كان يبدو رائعًا. ذاكرتها تجعل بغداد المدينة الأجمل في الدنيا. أجمل من باريس وروما ولندن. كل شيء فيها يصبح حنونًا ومحتضنًا ومبهجًا ومضيئًا. سافرت، بعد أن أصبحت تحمل الجواز الأسترالي إلى أغلب العواصم الأوروبية. في ذاكرة الطفلة، بغداد أجمل، أجمل بكثير. لا شيء مثل رائحة الحديقة في بيت جدها في العطيفية. لا شيء مثل شاي العصر في (الطرمة) الصفراء في الحديقة الخلفية. لا شيء مثل مدفأة علاء الدين في الشتاء والكستانة عليها. والشاي بالبقصم. لا شيء مثل الرحلة إلى جزيرة أم الخنازير في نهر دجلة. لا شيء مثل الشوي على الشط. أو في الحبانية. أو مثل سوق الكاظم. سلام الله عليه. أو مثل الآيس كريم من «الرواد». لا شيء مثل بغداد. أو هذا ما تتذكره الطفلة التي غادرت بغداد قبل عيد ميلادها الثالث عشر بأسابيع. الفوتوشوب في اللاوعي جعل من بغداد مثل مدينة مسحورة في فيلم فانتازي خارق. وتعامل مع كل ما تلاها، بعد أن أتت الباصات، على نحو معاكس. تعي الآن بطبيعة الحال أن الطفلة التي كانتها كانت ساذجة وجاهلة بما غاب عنها، وأن طبقتها وحياتها جعلتاها لا ترى الكثير من الظلم الذي كان يعشعش في الزوايا بل ويطفو أحيانًا على سطوح بعيدة عنها.

رأت تلك الطفلة البريئة الساذجة التي كانتها، نحيلة وخجولة وملتصقة بريم. لم تكن تعرف أنها ستفترق عنها خلال أشهر. ستفترق عن كل هذا الجو. عن كل بغداد. كل صورة رأتها في المجموعة كانت تهزها. لم يبق لديها أي صورة من صور ما قبل الباصات. وأي صورة بعد ذلك تشعِرها بغصة، تذكرها بكل ما ضاع قبل ذلك. لكن أن ترى نفسها في عيد ميلاد يعرب! بدا ذلك غريبًا ومستفزًّا ومحزنًا ومفاجئًا في الوقت ذاته. تصرفت كما لو أنها قد شاهدت حبيبًا قديمًا في نافذة قطار سريع مر بها وهي واقفة على رصيف المحطة. حاولت أن تركض لتلحق به، أن تستوقف القطار، أن ترمي بنفسها على القضبان الحديدية، لكن القطار المسرع لم يتوقف. وحبيبها لم يلتفت. لم يرها. بقيت تعيد اللقطات السريعة التي ظهرت فيها. تحاول أن ترى

https://t.me/MktbtArab

المزيد منها. أن تتأمل في كل شيء. أن تستعيد شعورها. أن تستعيد تلك الطفلة. أن تستعيد الأجواء. عبث. لا جدوى. تلك الطفلة ماتت منذ زمن بعيد. تركت طفولتها في باص الريم. الموتى لا يعودون من باص الريم. لكنهم يظهرون في الأحلام فقط. مثل وجه هارب في قطار مسرع لا يتوقف في المحطة التالية.

تأملت سوزان كاشاني في وجه سوسن مالك كانت -رغم عاطفيتها- جافة. لم تبكِ. اضطربت لكن بلا دموع. لقد انتهى ذلك بالنسبة إليها. وكل ما كان مختزنًا من دموع لعقود خرج في مكالمة ريم. انتهى مخزون 43 عامًا من الدموع في مكالمة واحدة.

أو هكذا كانت تعتقد.

إلى أن شاهدت أباها في صالة الضيوف في بيت يعرب. شهقت. شهقت كما لو أنها عادت إلى الحياة بعد موت طويل. دق قلبها بعد سبات وهي تشاهده على الشاشة. مدت يدها إلى الهاتف كما لو كانت تريد أن تلمسه. فعلت ذلك تلقائيًا. كما لو أنها تمد يدها إلى عالم آخر فيه والدها وكل حياتها السابقة. أن ترى والدها متحركًا حيًّا بعد كل تلك السنوات كان بالنسبة إليها أمرًا لا يقل إعجازًا عن عودته إلى الحياة. لم تبق لهم صورة واحدة له. ولا صورة واحدة غير التي التقِطت في معسكر إيواء المسفّرين أول وصولهم إلى إيران. كانت تلك الصورة بعد أشهر فقط من هذا الفيديو. ولكنه كان قد كبر عدة قرون في أثناء ذلك. صورة واحدة له، هي كل ما بقي منه. مهدم ومهزوم. مسفر. مهان. فقد كل ما يملك دون أمل في الأفق. وسيسقط مشلولًا بعد أشهر في حمام شبه عمومي.

على شاشة الهاتف، كان شخصًا آخر. بكامل أناقته. بذلة فرنسية. ربطة عنق زرقاء غامقة عريضة كما هو معتاد في السبعينيات. شعر كثيف أسود فاحم بسوالف ممتدة إلى تحت الأذن. صورة معسكر الإيواء كانت لرجل أشيب. الشيب غزا شعره خلال أسابيع فقط. أعادت المشهد عدة مرات. ثم أوقفت الصورة. التقطت لها صورة شاشة. وأخذت تتأمله من جديد. لم تكتشف أنها كانت تبكي إلا عندما لم تعد قادرة على الرؤية. مسحت عينها والدموع من نظارتها وأخذت تتأمل من جديد. كان يشبه ممثلًا مصريًّا نسيت اسمه الآن. كيف نسيته؟ مدرساتها في الابتدائية أخبرنها أن والدها يشبه هذا الممثل، وهن يبتسمن خجلًا لأنهن يعبرن عن إعجابهن به بطريقة ما. من كان الممثل؟

https://t.me/MktbtArab

ربما نسيته كوسيلة دفاع ضد الذكريات. لم تكن جيدة مع الممثلين العرب على أي حال. ماذا كان يريد والدها عبر طلبه من والد يعرب؟ ربما شحنة سيارات عالقة في الجمارك. أو شيء متعلق ببيت «الكاظمية» الذي اشتراه من صديقه الكردي الفيلي الذي هجِّر مع حملة التهجير في بداية السبعينيات قبل أن ينهي معاملة تسجيل البيت. أو ربما شيء متعلق بشهادة جنسية جدتها. خلال أشهر ستبدو كل تلك المشكلات بلا أدنى أهمية. وحده الله يعلم ماذا كان في الطلب. كل من يمكن أن يتذكر شيئًا مات، أبوها، ورشيد، وأمها. ربما بان تذكر. لؤي أصغر منها ولن يتذكر أي شيء بالتأكيد.

دخل حسين وفوجئ بها وهي تمسح دموعها وعيناها منتفختان من البكاء.

سألها مستغربًا: «ماذا حدث؟ لماذا تبكين؟».

ناولته الهاتف، صورة والدها الملتقَطة من الشاشة عليه. لم تنطق بكلمة.

رد فورًا: «كمال الشناوي؟ هل مات؟ ظننته مات منذ زمن طويل. لم أعرف أنك كنت تحبينه لهذه الدرجة».

نعم. تذكرت اسم الممثل الآن. كمال الشناوي.

***

شاهد محمد عبد الجبار نفسه في فيديو عيد الميلاد كما شعر بها دومًا. لا منتمٍ. ليس في المكان الصحيح. لا مكان صحيح بالنسبة إليه. لا يندمج فعليًّا مع أي جو. كان ذلك واضحًا جدًّا في الفيديو. يبدو مرتبكًا. خجولًا، كما لو أنه أجبر على الحضور. غالبًا أجبِر بالفعل. أو أنه لم يجرؤ على عدم الحضور. كأنما يريد أن يثبت لنفسه أنه قادر على الاندماج مع الجميع. يذهب بهذه النية. ثم يجد نفسه خارج كل شيء. كأنما دخل في المكان الخطأ. في الوقت الخطأ. أجواء أعياد الميلاد كانت تزيد شعوره بالغربة. يقنع نفسه بأن الآخرين مجرد أطفال وأنه قد كبر عليهم. لكنه كان مرفوضًا من الكبار أيضًا. على الأقل من أخيه الكبير أحمد وأصدقائه. ليس هنا ولا هناك. لازمه هذا الشعور دومًا. ربما لم يجد الشعور بالانتماء إلى أن انتظم في صلاة الجماعة بعد سنوات من هذا الفيديو. حتى في أثناء ذلك، كان يدخل المسجد وهو محمَّل بوصايا والدته وهواجسها الأمنية بألا يتكلم مع أحد، ولا يختلط بأحد. لكنه -رغم التزامه النسبي بذلك- شعر أن هذا الجو أقرب له. أقرب للصواب وللشيء الصحيح الذي عليه أن يكون جزءًا منه. وعليه أن يكون جزءًا منه

https://t.me/MktbtArab

بالذات لكي يكون أفضل من شقيقه أحمد. عتبة المقارنة التي تكونت عليها شخصيته قبل أن يعي أي شيء. كل شيء عليه يقارَن بأحمد. وأحمد بمقاييس عائلته هو الأفضل، الأقوى، الأشجع، الأكثر قدرة على التعامل مع العمال في الورشة والمصنع ومع الناس في السوق. لا جدوى من محاولة التنافس. هذه طباعه فحسب. حصل أحمد على كل شيء دون أي جهد. الحل الوحيد للفوز على المقارنة هو تغيير المعايير نفسها. سيكون الأفضل. لكن بمعايير أخرى. لا تهم والده حاليًا. لكنها «الأهم». معايير الله سبحانه وتعالى.

كل الجو الاحتفالي في الفيديو بدا له مزيفًا وفارغًا وبلا معنى. خجله وانعزاله عن الجميع كان في البداية يعود إلى قلة ثقته بنفسه، خشيته المزمنة من المقارنات، ثم بدأ الأمر يصبح بدوافع أخرى. بتبريرات تجعل عزلته تفوقًا لا نقصًا، خيارًا واعيًا لا مجرد عقدة نفسية. هؤلاء تافهون، أطفال، مراهقون.

في فيديو الميلاد هذا، رأى محمد عبد الجبار نفسه وهو لا يزال في مرحلة النقص والعقد. لم يكن قد عرف طريق الخروج بعد، لكنه كان يتلمسه. قريبًا سيخرج.

غاص قلبه في بئر عميقة عندما رأى والده. انتبه أن أم يعرب عرَّفت بقية الآباء بألقاب مثل (الدكتور) أو (الأستاذ) ولكن وصلت إلى والده وقالت (الحاج). طريقة هذه الطبقة في التعامل مع أمثال والده عندما يتسللون إلى (منطقتهم الطبقية). والده لم يكن متعلمًا، حصل على الابتدائية فقط. لكنه عصامي بنى نفسه بنفسه. بدأ عاملًا في محل حدادة، ثم أسس ورشته الخاصة التي استطاع أن يطورها إلى معمل للألمنيوم وشركة أثاث ناجحة. كان بإمكانها أن تسميه (السيد)، لكنها قالت «الحاج» -رغم أنه لم يحج، وليس في العمر المعتاد للحجاج- لكي تضعه في تصنيفه الطبقي الأصلي. كما لو كانت تقول: هو جديد هنا. ابنه يدرس مع أولادكم، لكنه غير متعلم.

يعرف جيدًا لماذا كان والده في صالة الضيوف في بيت يعرب. لا يذكر، لكنه يعرف. تلك السنة كان همه الأكبر أن يقبل أحمد في كلية الأمن القومي. كان قد تخرج توًّا في الثانوية بمعدل 52 %. فرصه معدومة في أي تعليم جيد. ووالده كان يريد لهما أن يتعلما. لم يتابع ذلك بدقة لكي يصل إلى ما يريد، لكن رحلة الصعود الطبقي تتطلب ذلك. وكانت كلية الأمن القومي قد خرَّجت دفعتها الأولى في تلك السنة. وقيل الكثير عن المناصب والمكانة التي سيحصل عليها خريجوها. كان جهاز المخابرات قد هيمن على كل شيء، وهذا

https://t.me/MktbtArab

سيتيح لخريجي هذه الكلية -التي يرأسها سعدون شاكر مدير المخابرات شخصيًا- أفضل الفرص في كل شيء. كان الحصول على التزكية من رفيق حزبي مهم عاملًا حاسمًا في عملية القبول، ومن يمكن أن يكون أفضل من عبد الحميد جبارة ليقدم هذه التزكية؟ لن يبخل على شقيق صديق ابنه برسالة تزكية.

تذكر أن أمه كانت ضد الأمر كله. قالت لوالده إن البعثيين لا أمان لهم، وإن أجهزتهم الأمنية مجرمة وإن راتبه سيكون حرامًا. نهرها والده وطلب منها ألا تأكل من راتب أحمد.

كانت لها نظرة بعيدة. لو أن والده رأى الشي ذاته، لربما كان تغير كل شيء.

HTTPS://T.ME/MKTBWAB
الساحر

-15-

دخل الدكتور آلب إلى غرفة وليد.

- فارس بيه. لقد جئت من البيت بسببك. قالوا لي إنك رفعت صوتك وحاولت تحطيم الأثاث في الغرفة.

- أرجوك يا دكتور. أرجوك. أريد أن أنام.

- التمريض قالوا لي إنهم أعطوك اللازم.

- ميلاتونين وزانكس؟ الميلاتونين كذبة يا دكتور. والزانكس لن ينفعني لأنه كالمكسرات بالنسبة لي. أرجوك يا دكتور. كلونوبين. أو حبة أخرى من الترايزولام.

- فارس بيه. لمجرد أنك طبيب وتعرف الأدوية المنومة لا يعني أنك ستحصل عليها. الأرق الذي تعانيه جزء من أعراض علاجك من الإدمان. وأنت تعرف هذا. الأمور لا تسير على هذا النحو.

- أنا منقطع عن أي شيء تمامًا منذ أكثر من شهرين. لن أعاني هذه الأعراض فجأة. الأمر مختلف. أحتاج إلى أن أنام. أرجوك يا دكتور.

تأمل آلب في وجه وليد كما لو أنه يقرؤه.

- ما الذي حدث إذن فارس بيه؟

- دكتور آلب، لا أستطيع أن أتحدث. أرجوك. أتوسل إليك.

- فارس بيه. الأشياء التي لا تستطيع أن تتحدث عنها هي تحديدًا الأشياء التي ينبغي أن تتحدث عنها.

https://t.me/MktbtArab

- الدواء يا دكتور.

- حبة زانكس إضافية، 5 مليجرام، لكن تتحدث عما يزعجك أولًا.

- حبتان.

- مستحيل.

- دكتور..

- تحدث يا فارس بيه.

***

«لم أكن أبكي. يعرب كان يكذب. أو ربما تخيل أني كنت أبكي. لكني كنت قلقًا ومتوترًا لأن أبي لم يأتِ. تركني في نحو الخامسة، وقال إنه سيأتي بين التاسعة والتاسعة والنصف.

لم يأتِ.

لم يأتِ قط.

عندما تأخر قلقت. وعندما تأخر أكثر قلقت أكثر. وعندما أخبرتني أم يعرب أنهم سيوصلونني إلى بيت خالتي توترت وزاد قلقي.

خالتي لمعان حاولت أن تتصرف بشكل طبيعي. قالت لي إن والدي (تقيأ) ونقلوه إلى المستشفى وإنه سيكون بخير. أعدت لي سريرًا في غرفة ابنها الذي يصغرني بسنة. كان نائمًا لكنه استيقظ عندما دخلت وأراد أن نلعب لعبة (أونو). لكني لم أستطع التركيز. أخبرته أني أريد أن أذهب إلى التواليت. ذهبت وجلست على السلم أنتظر أن أسمع أي شيء. هاتف أو حوار بين خالتي وزوجها. بعد مدة لا أعرفها رن الهاتف. ردت خالتي من المطبخ. كان هناك هاتف آخر في الممر في الطابق العلوي. رفعت السماعة. كان المتحدث زوجها الدكتور إحسان. صديق والدي وزميله في دفعته نفسها. وكان يبكي. قال لها: انطفأ. انطفأ.

وضعت السماعة. عدت إلى الفراش. أغمضت عيني لأنام وتظاهرت أني لم أسمع شيئًا. كنت آمل أن أستيقظ لأجد كل شيء قد انتهى. صباحًا كان واضحًا على وجه خالتي أن كل شيء انتهى بالفعل، ولكن ليس كما تمنيت. قالت لي إن والدي تعرض لأزمة قلبية وإنه في وضع حرج، وإن علي أن أكون قويًا من أجل أمي وشقيقاتي. فسرت الأمر أنها كانت تكذب علي. لقد انطفأ.

https://t.me/MktbtArab

لكنها كانت تريد أن تمهد الأمر فحسب. سايرتها في الأمر. سايرتهم جميعًا في كل ما قيل لي. كنت أفكر فقط في الخطوة التالية. ماذا سيحدث لنا الآن؟ ماذا سيحدث لي ولأمي ولشقيقاتي الآن وقد انطفأ؟

لم أفهم لماذا استخدم زوج خالتي هذه العبارة. لماذا قال «انطفأ» بدلًا من مات؟ بالتدريج فهمت، بالنسبة إلى كثير من أصدقائه ومعارفه، كان أبي «شعلة». شعلة من نشاط وذكاء وحيوية وإيجابية. كان مثالًا ملهمًا بالنسبة إليهم.

لهذا قال «انطفأ».

بالنسبة لي، ارتبطت الكلمة –وكل ما تعنيه– بموت أبي. بصوت زوج خالتي في سماعة الهاتف وأنا أتنصت على المكالمة في ذلك الممر المظلم بعد منتصف الليل من يوم السابع عشر من تموز 1979.

كلما مرت الكلمة، كلما انطفأ ضوء في المنزل أو الأضواء في صالة السينما أو في محل تجاري لحظة إغلاقه. كلما انقطعت الكهرباء... يعود لي صوت زوج خالتي، الدكتور إحسان، رحمه الله، وهو يبكي ويخبر خالتي «انطفأ».

وهذا كله مؤلم يا دكتور آلب. لكنه ليس السبب الحقيقي الذي يجعلني أهرب الآن.

قال وليد وهو يضع يده على عينيه ليخفي دموعه. فعل ذلك طيلة الوقت الذي كان يتحدث فيه. لكن دموعه كانت تنزل من تحت يده، وكانت تظهر في صوته.

- ماذا إذن؟

- ليس الآن. أعطني الزانكس ودعني أنام.

https://t.me/MktbtArab

-16-

على فيديو الميلاد لم يعلّق أي أحد لساعات. رغم أن كل من في المجموعة يظهر فيه إلا أن تصويره في منزل يعرب ووجود حوارات شخصية بعد انتهاء الحفل جعل الأمر محرجًا.

لم يكن أي من أعضاء المجموعة يعرف أن والد يعرب لم يأتِ إلى المنزل بعدها قط. يعرفون أنه اعتقِل بعدها وأعدِم لكن لا يعرفون متى حدث ذلك تحديدًا.

كتب سرمد بعد ساعات من التردد والتفكير: «لم أكن أتوقع قط ظهور والدي في الفيديو. رحمه الله. نسيت كل شيء عن حضوره يومها. لكن يا يعرب، من يمكن أن يكون لديه نسخة من هذا الفيديو غيرك؟».

علق وربط تعليقه بيعرب كي يرد على سؤاله.

رد يعرب بعد دقائق: «ليس عندي أصلًا أي نسخة من هذا الفيديو. هذه أول مرة أراه».

ترك سرمد علامة تعجب على تعليق يعرب.

ثم ترك محمد عبد الجبار علامة تعجب أخرى.

كتبت ريم على تعليق يعرب: «كيف؟ الفيديو صوِّر في منزلكم والتصوير كان أولًا من خالة الله يحفظها. في حوزة من غيرك يمكن أن يكون مثل هذا الفيديو؟».

https://t.me/MktbtArab

رد يعرب: «بعد أقل من 24 ساعة جاء رجال الأمن إلى البيت وأخذوا كل الوثائق والأوراق في مكتب والدي، وكذلك كل أشرطة الفيديو والكاميرا. ومن ضمنها هذا الفيديو على ما يبدو. لم أكن أعلم بوجوده أصلًا. نسيت كل شيء بخصوصه. لكن سألت والدتي وكان هذا جوابها. نسيت هي أيضًا وجود هذا الفيديو. لكن هذا هو التفسير الوحيد المنطقي لظهوره الآن. يبقى السؤال: من هو السادس أحمر؟ وكيف وصل إلى هذا الفيديو؟ الفيديو كان بحوزة المخابرات العراقية كما هو واضح. كيف وصل إلى حساب هذا الشخص وما هدفه من نشره في المجموعة الآن».

رد محمد عبد الجبار: «الفيديو كان بحوزة المخابرات العراقية حتى سقوط النظام في 2003. لا يمكن معرفة ما حدث بعدها تحديدًا».

وضع كل من سرمد وريم وتارا علامة تأييد على تعليق محمد.

كتب يعرب مجددًا: «صحيح. لكن يبقى السؤال محيرًا ومستفزًا: ماذا يريد هذا الشخص بنشر هذا الفيديو؟ أنا في المشفى الآن. خرجت منذ ساعات من الإنعاش. أجروا لي قسطرة. لم أستطع أن أكمل الفيديو. لماذا يفعل هذا الشخص كل هذا بي؟».

توالت التعليقات تتمنى السلامة ليعرب. ألف الحمد لله على السلامة. حمدًا لله على سلامتك. طهور إن شاء الله. انتبه إلى صحتك.

رغم اختلافاتهم وتعقد مشاعرهم وعلاقاتهم، فقد كان موقفهم موحدًا صادقًا تجاه ما كتبه يعرب. كونهم في عمر واحد يجعلهم يتحسسون عندما يتعرض واحد في مثل عمرهم لأزمة صحية من هذا النوع. عدا عن تعاطفهم مع يعرب بسبب ما حدث لوالده بعدها.

علقت ريم: «أفهم تمامًا ما تشعر به يا يعرب. كنت في جلسة الكيميائي عندما شاهدت الفيديو، وأثّر فيَّ جدًّا، أكثر بكثير من الكيميائي. الكيميائي عادة ليس مؤلمًا في أثناء أخذه. أثره مزعج جدًّا لاحقًا. هذه المرة كان مختلفًا. كما لو أن الفيديو تفاعل مع الكيميائي».

علق سرمد فورًا: «ماذا؟ الكيميائي؟ لم تخبرينا أن هناك شيئًا يستدعي ذلك يا ريم».

كتبت: «صحيح نسيت. لم يكن الوضع مناسبًا لهذا الخبر في البداية. بعدها أخبرت سوسن واعتقدت أني قلت للجميع. أصِبت بالسرطان قبل عشر

https://t.me/MktbtArab

سنوات، وعاد قبل فترة بسيطة. الحقيقة أني عرفت بعودته في اليوم نفسه الذي وصل فيه إشعار المجموعة».

كان سرمد على وشك أن يسألها عن مكان عودة السرطان ودرجته، لكنه شعر بحساسية الموضوع، فاكتفى بأن كتب لها تعليقًا يتمنى لها فيه السلامة والشفاء وأرسل إليها على الخاص يعرض خدماته وعلاقاته الواسعة بأطباء الأورام السرطانية في كاليفورنيا، شكرته وذكرت له أنها تتلقى العلاج في UCSF Health medical center فقال لها إنه يعرف هناك د. دونالد أبرامز والدكتور راهول فأخبرته أن راهول هو المشرف على علاجها وشكرته.

يعرب ومحمد عبد الجبار كتبا تعليقات مشابهة لتعليق سرمد. أما تارا فقد أرسلت لها على الخاص رسالة تعبر لها عن دعمها لها. إلحاد تارا يجعل موقفها من أخبار كهذه يبدو غريبًا أو غير معتاد على الأقل. تقول: «قلبي معك. أشعر بك». لو كان الموقف حضوريًا لأمكنها أن تقول شيئًا عابرًا فيه إشارة إلى الله. لكن ليس في الكتابة. لم تنتبه ريم إلى ارتباك تارا أو غرابة تعليقاتها.

كتبت ريم لاحقًا منشورًا منفصلًا تشكر فيه الجميع على مشاعرهم ودعواتهم، أنهته بأنها تشعر بأن المجموعة تلعب دورًا في مواجهتها ليس للمرض فقط بل لكل ما مرت به في حياتها.

أخبرتهم أنها فكرت في أشياء كثيرة مرت بها منذ طفولتها حتى الآن وأن هذا يساعدها بطريقة ما على مواجهة كل ما تمر به حاليًا، وأنها بدأت تعيد النظر في حياتها وتشعر أن ما نُشِر في المجموعة من منشورات جعلها أكثر قدرة على التعامل مع نفسها ومشكلاتها، ثم عقبت قائلة بأن مشاعرها هذه ربما ناتجة عن مرورها بأزمة انتشار السرطان ولعلها تبالغ في حساسيتها وردود أفعالها.

علق محمد عبد الجبار: «أنا أيضًا».

كتبت تارا: «وأنا أيضًا».

علق سرمد: «1+».

يعرب كتب تعليقًا لا علاقة له بمنشور ريم كما لو أنه يواصل الحديث الذي بدأ في منشور فيديو الميلاد، أو دون أن ينتبه إلى أنه منشور مختلف.

https://t.me/MktbtArab

كتب: «لم أر والدي بعدها قط، ولم أره حين أخذوه صباحًا، كنت نائمًا، ولم أره أيضًا عندما استلمناه في كيس. طلبوا منا ألا نفتحه، ولم يسمحوا لنا بإقامة مجلس عزاء».

في العادة، لا يتحدث يعرب أبدًا عما حدث، لكن أزمته الصحية، والأدوية المهدئة التي تناولها، جعلاه أكثر انفتاحًا للحديث عما حدث يومها.

انسداد الشرايين كان غالبًا بسبب ما حدث ليلتها. لا الدخان ولا الكوليسترول كما يعتقد الطبيب السلطي.

كتب الكل كلمات عزاء وتعاطف وترحم على والده. قالت ريم فيما معناه أن الفيديو يؤكد أنه كان يساعد الناس ويقضي حوائجهم. كان سرمد على وشك أن يسأله إن كانوا قد طلبوا منهم دفع ثمن الرصاصات التي أعدِم بها كما كانوا يفعلون عادة مع أهالي المحكوم عليهم بالإعدام عند استلامهم لجثث أبنائهم، لكنه وجد السؤال لئيمًا بغض النظر عن الجواب.

أما يعرب فقد شعر براحة غريبة وهو يقرأ كلمات العزاء والمواساة، كما لو أن والده قد مات الليلة، وأصدقاؤه يعزونه.

لم يسبق له أن تلقى العزاء في والده قط.

ليلة السكاكين الطويلة

انتشر مصطلح «ليلة السكاكين الطويلة» في الثلاثينيات من القرن العشرين لتوصيف عملية اغتيالات وإعدامات واسعة خارج القانون خطط لها أدولف هتلر ونفذها أعوانه بحق شخصيات قيادية نازية بعضها كان مؤيدًا تمامًا لهتلر، لكنه ارتأى أن التخلص منهم سيحقق له شعبية أكبر عند الجمهور الألماني، وسيضمن له أن يكون «القائد الأعلى الأوحد» لألمانيا بعد أن يتخلص من «منافسين محتملين» داخل الكوادر المتقدمة في الحزب.

دامت ليلة السكاكين الطويلة ثلاثة أيام بين 30 يونيو و2 يوليو 1934 وشهدت إعدام 85 من الشخصيات القيادية المهمة في الحزب النازي وقوات العاصفة التابعة للحزب -التي جلبت هتلر للسلطة- كما شهدت اللية التخلص من معارضين للنازية ولهتلر من التيارات الأخرى.

حققت الليلة لهتلر ما يريده، وأصبح الزعيم الأوحد لألمانيا وخلال سنوات قاد العالم إلى حرب قضت على أكثر من 80 مليون إنسان، منهم أكثر من 50

https://t.me/MktbtArab

مليونًا ماتوا مباشرة بسبب الأعمال العسكرية، والباقون ماتوا نتيجة أمراض مرتبطة بالحرب والمجاعات الناتجة عنها.

أصل التسمية يعود إلى حكاية غير ثابتة تاريخيًا يفترَض أنها حدثت في القرن الخامس الميلادي عندما عِقد مؤتمر للسلام بين القبائل السلتية البريطانية والأنجلوساكسونية. قائد القبائل الأنجلوساكسونية رتب لأن يدخل أتباعه وهم يخفون سكاكين طويلة في أحذيتهم، منتظرين الإشارة منه للتخلص من كل زعماء القبائل السلتية. وقد كان، وتحولت الحادثة (غير المؤكدة تاريخيًا) إلى مثال يوضح نمطًا تكرر عبر التاريخ.

في 22 تموز 1979 –بعد ستة أيام من استقالة البكر وتسلم صدام حسين لرئاسة العراق ورئاسة مجلس قيادة الثورة وأمانة سر حزب البعث العربي الاشتراكي- دعا صدام الكوادر المتقدمة في الحزب إلى ما اعتُقِد أنه سيكون مؤتمرًا حزبيًا يحضره أعضاء الحزب من كل أنحاء العراق. عِقِد الاجتماع في «قاعة الخلد» في منطقة «كرادة مريم». سرعان ما اعتلى صدام المنصة ليتحدث عن وجود مؤامرة داخل الحزب بالتعاون والتخطيط مع النظام السوري، واستدعى أحد المتهمين وهو محي عبد الحسين الشمري السكرتير الشخصي للبكر لكي يسرد أسماء المشتركين في «المؤامرة» ومع كل اسم يأتي ذكره في الاعترافات كان صاحبه يقاد إلى خارج القاعة.

بتاريخ 8 / 8/ 1979 أعلنت وسائل الإعلام الرسمية، باسم الشعب، الحكم بالإعدام على خونة الحزب والثورة. المحكمة «الخاصة» حكمت على 22 متآمرًا مجرمًا بالإعدام بعد إدانتهم بالتآمر والخيانة العظمى. وأحكام بالسجن على 33 من المجرمين.

من الــ 22 محكومًا بالإعدام كان هناك خمسة أسماء في القيادة القطرية للحزب.

بعضهم كان قد مات في التعذيب قبل صدور الأحكام.

الاجتماع صُوِّر كاملًا بكل تفاصيله ونُشِره على نطاق واسع عبر أشرطة الفيديو، لإيصال رسالة إلى الجميع.

تعرَف الحادثة عادة بــ «مجزرة قاعة الخلد» أو «مجزرة الرفاق».

نُفِّذت أحكام الإعدام بيد «الرفاق الحزبيين» الذين أُمِروا بتصفية رفاقهم في النضال.

https://t.me/MktbtArab

لا يوجد حتى الآن دليل على وجود مؤامرة حقيقية، لكن أغلب المتهمين كانوا لا يحبذون انتقال السلطة إلى صدام بالشكل الذي حدث، وبخاصة أن هناك إشاعات عن أن البكر تنازل له تحت التهديد. كما أن هؤلاء المتهمين كانوا متمسكين بالمشروع الوحدوي مع سوريا الذي وقع قبل عام من هذه الأحداث، وكان تنفيذ هذا المشروع سيدفع بمكانة صدام إلى المركز الثالث أو ما بعده في الوضع الجديد.

دون هذا التنازل، وليلة السكاكين الطويلة التي تلته، يصعب تصور دخول العراق في حرب مع إيران لمدة ثماني سنوات، راح ضحيتها قرابة مليونين من الجانبين، ومن ثم يصعب تخيل وجود سبب يقود إلى غزو الكويت، وما تلاه من نتائج، من حصار اقتصادي أنهك الشعب العراقي، ومن دخول القوات الأمريكية إلى الخليج، وهو الدخول الذي أدى لاحقًا إلى المزيد من النتائج عالميًّا.

السكاكين أحيانًا تكون أطول مما يخطِّط حاملوها.

وآثار الليلة الواحدة من السكاكين الطويلة، قد تستمر عقودًا، وقد تغيِّر شكل العالم.

https://t.me/MktbtArab

-17-

نشر حساب «السادس أحمر» فيديو آخر في المجموعة. اللقطات المرئية كانت مأخوذة من فيديو اجتماع قاعة الخلد. صدام يتحدث بعصبية ويلوح بيديه، من الواضح أنه يهدِّد. اعترافات الشاهد الوحيد محي الدين عبد الحسين الشمري، القلق على وجوه الحاضرين، أشخاص يقادون إلى خارج القاعة من قِبل رجال الأمن، الهتافات المؤيدة من أشخاص يبدو عليهم التوتر، التصفيق من الجميع.

لكن الصوت المصاحب للفيديو كان مختلفًا تمامًا. دمِجت مشاهد قاعة الخلد مع أغنية «لغد أبهى» التي غنتها فرقة تابعة للاتحاد العام لنساء العراق، التي أصبحت تعرف باسم «فرقة الغالي».

الأغنية من كلمات الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد وألحان إلياس رحباني.

لغدٍ أبهى لغدٍ أجمل
لغدٍ أزهى للمستقبل
سوف أغني.. سوف أغني
يا ضوءَ العين دَربُك من أين؟
هذا دربي يملِكُ قلبي
لو سِرنا في الدَّربِ سويًّا

https://t.me/MktbtArab

نحن الاثنين نحن الاثنين
لغدٍ أبهى لغدٍ أجمل
لغد أزهى للمستقبل
سوف أغني.. سوف أغني

***

قل تعشقُني قل تهواني
لكن قل تعشقُ إيماني
لغدٍ نبصرُ فيه الدنيا للمستقبل
لغدٍ أجمل....
لغدٍ أبهى لغدٍ أجمل
لغد أزهى للمستقبل
سوف أغني.. سوف أغني

***

صار الإنسان أجملَ ما كان
وأنا أخْتُك وأنا بنتُك
وأنا حُبُك أبهى ما كان
لغدٍ أبهى لغدٍ أجمل
لغد أزهى للمستقبل
سوف أغني.. سوف أغني

علقت ريم: «كنت أحب هذه الأغنية جدًّا. الآن تبدو لي حزينة وساخرة مثل نكتة في مجلس عزاء. أي غد أبهى وأي غد أجمل؟ الأمس كان أجمل بكثير، وكل يوم صار أسوأ من الذي يليه».

https://t.me/MktbtArab

كتب سرمد: «الأغنية جميلة بالفعل. لكن الواقع هو ما يظهر في الفيديو، صدام ومجزرة الرفاق في قاعة الخلد، وكل ما تلا ذلك».

كتبت سوسن: «لم أسمع هذه الأغنية من قبل. كان غدنا الأبهى قد بدأ بالفعل عندما أذيعت على ما يبدو. لكن أذكر أغنية «غالي»، غنتها الفرقة نفسها، صحيح؟».

رد سرمد: «نعم. غنتها بعد يومين فقط من تنازل البكر لصدام. غالي صدام غالي. البكر لم ينل في أحد عشر عامًا من الحكم عشر معشار ما ناله صدام من تمجيد وتبجيل خلال يومين فقط».

علقت تارا: «صحيح، كانت مبكرة جدًّا. أذكر أن والدي علق على هذه الأغنية قائلًا: بدأنا بعبادة الفرد».

قال سرمد: «تتذكرون إذاعة إف إم بغداد، كانت تبث أغاني أجنبية طيلة الوقت، ولا تبث أغاني عربية أبدًا. قبل أن تنتهي المدة التي أعطتها أمريكا لصدام لكي ينسحب من الكويت بيوم، أي قبل بدء حرب الـ 1991 بيومين، أحدهم في إذاعة الإف إم بث هذه الأغنية. لغد أبهى. كنا على وشك العودة إلى العصر الحجري، وأراد معد الفترة أن يذكر بهذه الوعود التي أطلقها صدام في بداية عهده. كانت إذاعة هذه الأغنية رسالة ساخرة بوضوح».

علق محمد: «جيد أنهم لم يعدموه».

رد سرمد: «لو انتبهوا لفعلوا. لكنها مرت. أو لم تمر. لا نعرف. غالبًا معد الفترة خاطر بحياته مراهنًا على غبائهم فقط ليقول: انظروا إلى أين وصلنا».

كتب محمد: «استُشهد أخي أحمد في أول أيام حرب الـ 1991. في أول قصف على بغداد. كان قد تزوج قبلها بشهرين فقط».

كتب الكل تعزياتهم لمحمد. سألته ريم إن كانت زوجته حاملًا حين استُشهد فنفى محمد ذلك ولكنها لم ترد. لم تعرف أيهما أفضل. أن ينقطع نسله تمامًا كما لو أنه لم يكن، أو أن يأتي طفل يتيم آخر لم يعرف والده إلى هذا العالم البائس.

كتب سرمد: «هل تعرفون أن قاعة الخلد تمثل رمزيًّا كل ما حدث في العراق؟ بُنيت في العهد الملكي وكان اسمها قاعة فيصل، على اسم الملك

فيصل الثاني، كانت مثل قاعة الأوبرا أو المسرح الوطني في دول أخرى، على مسرحها حدثت أهم العروض الفنية من الخمسينيات حتى آخر السبعينيات، الفرقة السيمفونية كانت تقدم عروضها فيها، فرق الباليه والأوركسترا وكل الفرق الشعبية الدولية التي زارت بغداد قدمت عروضها فيها، فيروز غنت على خشبتها «بغداد والشعراء والزمن»، ثم ارتبط اسم هذه القاعة لا بكل هذا الفن وتلك الثقافة، بل بمجزرة الرفاق. هذا ما حدث للعراق كله. ثم تعرفون ماذا حدث للقاعة؟ هدمت كجزء من توسيع القصور الرئاسية. هذا بالضبط ما حدث للعراق كله».

https://t.me/MktbtArab

-18-

وضعت تارا صورة لصفحة من رواية رقيق هو الليل لسكوت فتزجيرالد.

يكتب البعض عن الندوب التي تشفى، في تشبيه لما يحدث لندوب الجلد، ولكن لا يوجد شيء كهذا الشفاء في حياة الفرد، الجروح هناك تبقى مفتوحة، تتقلص أحيانًا إلى حجم دبوس، ولكنها لا تزال جروحًا. علامات المعاناة تشبه أكثر فقدان إصبع، أو فقدان البصر، لا جروح السطح. قد لا نشعر بفقدها، أحيانًا، لدقيقة واحدة في السنة، ولكن إذا حدث ذلك، لا يوجد شيء يمكن القيام به حيالها.

كتبت تحت هذه الصورة: «هذه واحدة من الروايات التي ترجمتها إلى الكردية. رقيق هو الليل، لسكوت فيتزجيرالد، صاحب رواية (جاتسبي العظيم) الشهيرة. يستوقفني هذا المقطع دومًا، وتذكرته كثيرًا منذ أن بدأت هذه المجموعة ودخلنا طاحونة الذكريات هذه، أعتقد أننا مررنا جميعًا بجروح هي أقرب إلى فقدان الأصابع منها إلى الجروح التي تحدث في الجلد، حتى تلك التي تحدث نتيجة طعنة خنجر. لا أعرف الكثير عنكم جميعًا فيما يخص هذا، لكني أستطيع أن أحدد ثلاثة على الأقل من هذه المجموعة، نالوا جروحًا بعمق فقدان ذراع أو ساق، ولا يوجد شيء يمكن أن يفعلوه حيال ذلك. والغريب أن هؤلاء الثلاثة قد حدث لهم هذا كنتيجة مباشرة للفيديو الذي شاهدناه، فيديو «لغد أبهى». أو ما حدث في حفل «ميلاد يعرب». سوسن، تعرفون ما حدث لها ولعائلتها وللألوف الذين سفِّروا من بلدهم بتهمة التبعية لإيران.

https://t.me/MktbtArab

يعرب، فقد والده بالطريقة التي تحدث عنها. وأنا، فقدت والدتي بطريقة أخرى، والدتي كانت شيوعية معارضة للسلطة، اعتُقل خالي وزوجته وصديقتها المقربة، كانت تريد أن تجد منفذًا وكان المنفذ هو التقدم بطلب براءة من الحزب الشيوعي عن طريق والد يعرب، لكن عندما حدث ما حدث لوالد يعرب، أسقِط في يدها وهربت إلى خارج العراق. ولم أرها قط بعدها إلا بعد أن تركتُ العراق في التسعينيات. عشت مراهقتي دون أم، دون أي خبر منها، دون رسالة، دون مكالمة هاتفية. ماتت في داخلي أشياء كثيرة، وأصبحتُ شخصًا آخر. كنت متكتمة على الموضوع. أقرب صديقاتي لم تعرف بهذا الأمر وقتها. إلى أن أخبرتهن بعد عطلة صيف أن أمي توفت. أقفلت الدولاب على الحكاية. أو هكذا تصورت. لكن لا شيء حقًا ينتهي. الزمن والوقت لا يشفيان كل الجروح، على الأقل ليس تلك التي تشبه فقدان الأطراف».

***

وضع محمد عبد الجبار صورة لشقيقه أحمد على المجموعة.

كتب تحتها: «شقيقي أحمد عبد الجبار 12/4/1961-17/1/1991

رغم أنه استُشهد بعد حادثة قاعة الخلد بأكثر من 12 عامًا، فإني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في أن غيمة قاعة الخلد أدت إلى ذلك المطر. وأعرف أنها لم تكن غيمة. بل كانت عاصفة. لكنه المثل الذي يقال ليوضح الترابط بين الأشياء التي تفصل بينها مسافات زمنية. نعم، لولا وصول صدام إلى السلطة -بتلك الطريقة على الأقل- لما كانت كرة النار كبرت ووصلت إلى استشهاد أخي. في عالم موازٍ، لم يكن العراق سيدخل في حربين متتاليتين، وما كان أخي سيُستشهد. ما كان هناك سبب ليدخل هاتين الحربين، لولا وصول صدام.

لكن هناك أيضًا سببًا آخر جعل أخي في المكان الذي كان فيه يوم وقع القصف الأمريكي في أول يوم حرب على العراق.

حرص أبي على أن يدخل أحمد كلية الأمن القومي ليصبح ضابطًا في الأمن. كان يريد أن يكون له (ظهر) في عالم قد يضيع من لا ظهر له فيه. بدأ أبي عامل حدادة صغيرًا في ورشة، ثم كبر واستقل بورشة شاركه فيها صديق له. هذا الصديق اعتُقِل من قِبل (الحرس القومي)

https://t.me/MktbtArab

في 1963، أخِذ مظلومًا تمامًا، كان لديه أخ شيوعي في «المقاومة الشعبية»، لكن هو مستقل ولم يؤيد أحدًا. انتقموا منه بذنب أخيه. مات تحت التعذيب. أبي بقي يعطي حصة شريكه إلى أرملته إلى أن اشتراها منها بعد سنوات، بطلبها هي، لكنه بقي خائفًا من أن تصادَر الورشة، وبخاصة أنه وسعها وحولها إلى مصنع. كان خائفًا من وجود اسم شريكه السابق في مستندات الورشة. بقي لسنوات طويلة يحسب حساب ذلك. وكان يعتقد أن وجود (ضابط أمن) في العائلة سيوفر الكثير من المشكلات ويحمي مصالحه. وبخاصة أن أحد أبناء عمومتي قد اتُّهم في قضية تخريب اقتصادي منتصف السبعينيات، وحكِم عليه بالإعدام، وكانت كل الأدلة التي عليه هي نكتة قالها عن سيطرة (التكارتة) على الأجهزة الأمنية. هل كان أبي سيدفع أخي إلى أن يصبح ضابط أمن لولا كل هذه الخشية والمخاوف في داخله؟ لا أعتقد».

انتهى منشور محمد عبد الجبار.

لكن في داخله كانت هناك أسئلة لم يعلنها. لن يفهمها أحد لو أعلنها.

كان لديه الشعور المزمن بأنه المسؤول عن كل ما حدث لأخيه. وصولًا إلى استشهاده يوم 17/ 1/ 1991.

يحمل ذلك كجرح لا يلتئم، كما قالت تارا: مثل ذراع مبتورة.

لكنه لم يكتب شيئًا عن ذلك.

بعض الجروح السرية لا تُحكى. لأن لا أحد سيفهمها.

المشكلة أن كتمانها أيضًا غير ممكن.

***

فكرت ريم أن تضع صورة زفافها في المجموعة. أسوة بصورة شقيق محمد الشهيد.

شعرت أن زواجها كان مثل استشهاد شقيق محمد، نتج وترتب نتيجة كل التعقيدات التي نشأت بعد ما حدث في الليلة ذاتها.

أمها اندفعت في المزيد من التملق للسلطة وللحزب ولزوجات المسؤولين كي تعبِّر عن إخلاصها وولائها، وبخاصة أنها كانت صديقة لزوجتين من

زوجات المحكوم عليهم بالإعدام في مجزرة الرفاق. عدا عن محاولتها الفاشلة في التقرب من أم يعرب ووجودها في ميلاد ابنها في الليلة إياها. عملها معاونة لمدرسة إعدادية للبنات سهَّل لها الظهور دومًا بمظهر المؤيد التام المخلص المتحمس لقيادة الرئيس القائد صدام حسين حفظه الله ورعاه. خلال مدة بسيطة كوفئت بترقيتها إلى مديرة لمدرسة إعدادية أكبر وأهم في الرصافة. كانت تهدف أن تصبح مديرة لثانوية بغداد للبنات في الكرخ أو العقيدة في الرصافة. هاتان المدرستان كانتا الأهم في بغداد للبنات، ومديرة أي منهما كانت لها سطوة اجتماعية لا تقل عن سطوة زوجة مسؤول. لم تفلح في أن تكون مديرة لأي منهما. حاولت كثيرًا أيضًا أن تدفع بزوجها ليصبح مسؤولًا هو الآخر، لكن والد ريم كان ليس من النوعية المتسلقة. أصبح بالفعل مديرًا عامًّا في إحدى المؤسسات التابعة لشركة الأدوية، لكن لم يكن هذا طموح والدة ريم. كانت ترغب في أن يكون وزيرًا. كانت تعايره بأنه لم يصبح وزيرًا. الفاشل لم يفرِحها يومًا بخبر ترشيحه لوزارة. الفاشل. كانت هذه جملة معتادة في البيت.

هل كانت والدتها ستندفع كل هذا الاندفاع لو كان الوضع مختلفًا؟ ربما كانت ستفعل. والدتها هي والدتها في نهاية الأمر وبدايته. والتملق لم يختَرع مع عهد صدام. دومًا هناك من يتسلق ويقترب من السلطة. لكن هل كان دريد سيصبح في طريقها لو كان العالم مختلفًا؟ هل كانت والدتها ستتحمس له لولا أنه من أقارب صدام البعيدين؟ هل كان سيصل والده إلى مناصبه لولا هذه القرابة بالأساس؟ وهل كان الأقارب سيتمكنون من الدولة لولا ما حدث ليلة السكاكين الطويلة؟ كانت لديهم سكاكينهم قبلها بالتأكيد. لكنها كانت أقصر.

تحدثت مع شقيقتها هبة عن الأمر. أخبرتها عما يحدث في المجموعة وما قالته تارا ومحمد عبد الجبار عن تأثير ما حدث على حياتهما الشخصية. سألتها إن كانت تعتقد أن ما حدث في العراق من تعقيدات سياسية أثر على والدتهم وعلى كل حياتهم لاحقًا. كان رأي هبة أن كل العراقيين تأثروا بما حدث بشكل أو بآخر، لكن نرجسية والدتها كانت ستحدث بكل الأحوال، وتأثيراتها عليهم كانت ستحدث بكل الأحوال.

لكن هبة صدمتها بشيء آخر.

"ألم تستفيدي أنت أيضًا من عبد الواحد علوان؟ التعيين في الكلية، والقبول في الماجستير بأكثر التخصصات تنافسًا؟»

هذه أشياء لا تُنسى. كيف نستها.

***

بالنسبة إلى سرمد، مجزرة قاعة الخلد لم تكن سوى حتمية طبيعية لانقلاب 14 تموز.

كل شيء بدأ من هناك. لا شك عنده في ذلك. انقلاب عساكر. كان من الطبيعي أن يتشاجر المنتصرون فيها بينهم. بعدها انقلاب آخر. 8 شباط 1963. بعد تسعة أشهر انقلاب ضمن الدائرة العليا من المنتصرين. كما يسميها البعثيون ردة تشرين. وبعد خمس سنوات انقلاب آخر، مبدئيًّا دون دماء فورية، لكنه سيمهد الأرض لطوفان الدم القادم. الحزب استأثر بكل شيء، ثم كان يجب لأحدهم، من داخل الحزب، يمتلك ما يكفي من مزيج الطموح والحماقة والدهاء والأنا، أن يختطف الحزب لنفسه، ولعائلته وعشيرته الأقربين. إن لم يكن صدام فسيكون غيره. إن لم يكن قاعة الخلد فقاعة الشعب أو ملعب الكشافة أو القصر الرئاسي. الاختلافات فقط في التفاصيل. لكن النتيجة واحدة. من المؤكد أن «قاعة الخلد» كانت منزلقًا خطيرًا في طريق انهيار العراق، لكن النهاية ذاتها كانت تبدو حتمية بالنسبة إلى أهله.

هذا ما كان يؤكده والده، وتؤيده عليه والدته، مع كل كارثة تحدث في العراق، كل شيء كان نتيجة حتمية لسقوط قطعة الدومينو الملكية. قاعة الخلد عجلت الانهيار الشامل بلا شك. لكن دخول الكويت أتى كضربة قاضية. كان أمام سرمد سنتان لكي يتخرج في كلية الطب. كل شيء كان معدًّا لكي يسافر فور تخرجه عبر جواز سفر مزور. بقي في عمان لبضعة أشهر. ثم الولايات المتحدة. درس لامتحانات المعادلة الطبية منذ أول يوم في عمان. كل شيء كان قابلًا للتفاوض والنقاش، لكن النفق الذي دخله العراق بعد غزو الكويت كان لا نقاش فيه. لا أمل في البلد. كان هذا رأي والديه وخالاته وأخواله وأعمامه وعماته -الترتيب حسب الأهمية بالنسبة إلى والدته- بل هو رأي كل أجداده أيضًا لو كانوا على قيد الحياة. الوضع تجاوز «الديكتاتورية العادية» -التي يمكن التعايش معها- إلى جنون مطبق، وسيدفع الجميع الثمن.

https://t.me/MktbtArab

في الطريق إلى المصحة التي يقيم فيها فيصل، وجد نفسه يضغط على الرابط الذي وضعته ريم لأغنية لغد أبهى. الرحابنة وضعوا لمستهم، مع كلمات عبد الرزاق عبد الواحد، لا يمكن لسرمد أن ينكر. الأغنية جميلة. بغض النظر عن الوعود الكاذبة المتضمَّنة فيها. حبل اليوتيوب جره إلى أغانٍ وطنية بعيدة عن لمسات الرحابنة، أغانٍ ربما لم يكن يحبها يوم كانت تذاع طيلة الوقت، أيام حرب إيران واشتداد المعارك على الجبهة، لكنه وجد أشياء في داخله تهتز بشدة مع إيقاعات الألحان. لماذا يحدث هذا؟ هذه أغانٍ أنشِدت لتجييش المشاعر نحو حرب عبثية قتِل فيها الملايين. لكنه رغم ذلك، رغم كل وعيه وقناعاته وأحكامه تجاه كل ما حدث، كان يجد روحه تقف على المسرح، مع مجموعة الفنانين، وهم يغنون تلك الأغاني. *منصورة يا بغداد*. *هية يا أهل العمارة. يا كاع ترابج كافوري. إحنا مشينا للحرب*. يمه يمه يا يمه.

بين الشعب وبينك، عهد وشفته بعينك، عهد الشمس الي فيت والله خيرات من سنينك...

شيئًا فشيئًا وقد وجد نفسه وهو يغني أغاني لم يكن يعرف أنه يحفظ كلماتها عن ظهر قلب. لو كانت الأغاني وطنية فحسب، لكان هذا مفهومًا تمامًا، لكنها أغانٍ خلِطت بوضوح، وتعمد، وإسراف، بين الوطن وبين صدام. كيف لم يكن ذلك عائقًا أمام تفاعله معها اليوم وهو في الطريق إلى ولاية بنسلفانيا ليزور فيصل في مصحته؟ أم أنه تفاعل معها، مع كل الأغاني وأيامها وذكرياتها، ليهرب من الحقيقة التي عليه أن يواجهها بعد قليل، وجهًا لوجه؟ يتخدر بالأغاني القديمة عن حاضر المخدرات الذي لم يتخيل يومًا أنه سيحدث. بالتأكيد لم يتوقع في مراهقته البعيدة أنه سيقوم بهذه الرحلة من ديربورن ميشيجان إلى ويفرلي بنسلفانيا، ليحاول إنقاذ وحيده مما سقط فيه. ثمة توازٍ بين ما حدث في العراق وما حدث له أيضًا. بطريقة ما، الأغاني تعد بمستقبل مشرق، بعراق لا يدنسه الأعداء، بعراق منتصر ومزدهر، ثم ينتهي كل ذلك إلى كوابيس لم يكن أعدى أعداء صدام وحزبه يتخيلها. كذلك فيصل، كل ما رسمه لمستقبله انتهى إلى نهاية مثل مستقبل العراق. فكر مع نفسه: نلوم صدام على ما فعله، لكننا فعلنا الشيء ذاته بأنفسنا. أم ترانا النتيجة النهائية لما فعله؟ حملنا معنا أينما ذهبنا كل العاهات المستدامة والعقد المستنزفة التي نتجت عن سنواته.

https://t.me/MktbtArab

فكر أيضًا ربما كان يبالغ كعادته. فيصل سيكون بخير. العراق وضعه أصعب. ومن الصعب إلقاء اللوم على صدام في علاقته بفيصل. ربما كان الأمر له علاقة بغسل الأدمغة الذي تعرض له الجميع في فترة الثمانينيات، حيث استخدِمت القوى الفنية الناعمة كلها لخدمة النظام، وانتهى الأمر بسرمد، الذي نشأ على كراهية البعث، وشب على كراهية صدام، وهو يهتف فجأة، بعد أربعين عامًا من كل شيء، وهو يقود سيارته إلى بنسلفانيا، بأعلى صوته: وصدام شراع!

إذا لم يكن هذا غسلاً للدماغ فماذا يكون؟

أم أن الأمر أعقد من هذا؟

تذكر ما قالته دانية أمس في نقاش عاصف على الهاتف. قالت: «إنه «صدَّامي» حتى النخاع». زاد غضبه وحنقه. بالنسبة إليه هذا التشبيه إهانة. كيف تجرؤ؟

قالت له إن الفرق بينه وبين صدام أو أي ديكتاتور هو في الإمكانات فقط. صدام كان بإمكانه أن يقتل ويحرك جيوشه فيفعل. أما هو فيمكنه أن يستخدم أمواله أو عواطفه وكلماته اللئيمة أو اللطيفة للوصول إلى النتيجة نفسها.

صدمته بهذا المنطق.

- تقارنين بين هذه الأساليب التي يستخدمها كل الآباء بالحروب والإعدامات ووسائل التعذيب التي استخدمها صدام؟ ما هذا المنطق؟
- الفكرة هي في الهدف من استخدام هذه الأساليب. الهدف نفسه لأي ديكتاتور.
- عم تتحدثين؟
- عن هدفك في السيطرة علي وعلى فيصل. السيطرة والتدخل في كل قراراتنا وتصرفاتنا. أليس هذا ما يفعله أي ديكتاتور؟ هو بأجهزته الأمنية والإعلامية، وأنت بمحاولتك صبنا في قوالب منذ طفولتنا، بحيث إن أي تمرد لاحق على هذه القوالب سينتج عنه ما هو ربما أشد قسوة من التعذيب.
- كنت دومًا أريد ما هو الأفضل لكما، وأنت تعرفين ذلك.

- ألا يقول الطغاة الشيء ذاته؟ هل يقولون إنهم لا يريدون الأفضل لشعوبهم؟

- وماذا سأفعل مثلًا إن لم تنفذا ما أعتقد أنه الصواب؟ لن أجبر أحدًا على فعل شيء، لا يمكنك أن تعتبري قطعي للإنفاق أسلوبًا ديكتاتوريًّا، أنفقت على دراستكما، لست ملزمًا بالاستمرار في ذلك، أنتما بالغان وعليكما تحمل مسؤوليتكما بأنفسكما.

- لا، لن تجبرنا. لو أجبرتنا بشكل مباشر لكان أفضل. انظر إلى أين وصل فيصل.

- لو لم يركب رأسه ويقرر أن يلحق شغفه وأحلامه وهذا الكلام الفارغ لكان في وضع مختلف تمامًا. لماذا لا يرغب جيلكم في أن يتحمل أي مسؤولية عن نتائج أفعاله؟ كل أخطائكم تبررونها بعقد نفسية تسببنا لكم بها. أنتم في حالة إنكار.

- أحدنا في حالة إنكار على أي حال.

- لا فائدة من النقاش.

هكذا أنهى المكالمة أمس، لكنها تنتظره في المصحة، قالت له إنها ستكون معه عندما يرى فيصل. تريد أن تمارس رقابة عليه. ليكن. لعله يحتاج إلى وسيط بينه وبين فيصل بعد كل هذه السنوات.

لكن عندما التقاها عرف أن هذا لم يكن هدفها.

- أبي، أريد أن تتظاهر بأنك تتقبل فيصل كما هو. تظاهر بهذا وعبِّر عنه بالكلمات حتى لو لم تكن تشعر به فعلًا.

- أتقبل فيصل «كما هو»؟

- نعم، بالضبط.

- ماذا يعني هذا؟

- يعني تقبله وتحبه دون شروط.

- كما هو؟

- نعم.

- إلى أين يذهب هذا الحديث؟

- إلى أين يذهب؟

https://t.me/MktbtArab

سكت سرمد وهو يحاول أن يتذكر صديقات فيصل. هل كن «صديقات» فقط أم كن «جيرل فرندز»؟

- هل ستقولين لي إن فيصل مثلي جنسيًّا؟

لم يكن ينقصه إلا هذا. فكر سرمد وهو يحاول أن يهيئ نفسه لأسوأ الاحتمالات. ألم يكن عليه أن يتوقع ذلك وهو يتخرج بشهادة في الرقص؟ كلام دانيا لا يمكن أن يفهم إلا بهذا الاتجاه.

- هذا كل ما يهمك طبعًا؟ على جيلكم أن يفهم أن موازينه لا تحدد الكون.
- وعلى جيلكم أن يفهم أن هناك موازين ثابتة في هذا الكون. تحدثي. ماذا به فيصل؟
- اطمئن، ميوله ليست مثلية. لكن ليست هذه أكبر مشكلة يمكن أن تحصل لفيصل.
- حسنًا، أقبله كما هو بأي معنى؟ كفي عن المقدمات.
- بروحه المكسورة المعذَّبة، بكل الندوب التي فيه.
- بروحه المكسورة المعذَّبة؟ ندوبه؟! لقد تصورت أنك تقصدين أنه مثلي! والآن تقولين روحه المكسورة. تحدثي يا دانيا بما أفهمه، بكلام يفهمه جيلي. ما به فيصل؟
- فيصل حاول الانتحار. مرتين. والثانية كادت أن تنجح.

HTTPS://T.ME/MKTBTARAB

-19-

وضعت سوسن مجموعة من الصور.

الصورة الأولى كانت صورة لبيت أنيق، الصورة تبدو قديمة، كما لو أنها التقطت في السبعينيات. بيت بالنمط العراقي في تلك الفترة. الواجهة مزينة بالطابوق المعروف بالطابوق الجمقمق. الشبابيك على الواجهة عريضة وتكاد تغطي الحائط. تتخللها كتائب حديدية بيضاء للحماية. البيت من طابقين، لكن الطابق الثاني فيه تتقدمه (طرمة[1]) كبيرة تجعله منسحبًا إلى الخلف بحيث لا يظهر واضحًا. أمام البيت حديقة، على أحد جوانبها ساقية زرعت فيها أشجار رارنج وبرتقال، والجانب الآخر المحاذي لمرأب السيارة يوجد ساقية موازية فيها صف من شجيرات الياس المنمقة بعناية. الحشيش في الحديقة معتنى به، أخضر مشوب بصفرة خفيفة متناثرة، خرطوم الرش أخضر ملفوف بشكل دائري قرب حنفية على طرف المرأب. ساقية أمامية فيها صف أزهار أمام باب البيت الخشبي والواجهة، مع سندانات مصفوفة قرب الباب. السواقي مسورة بحجر أحمر. باب المطبخ حديدي ويمكن رؤية طرفه من المرأب. أرضية المرأب بلاط لامع كما لو كان في صالة الضيوف. أشجار الجيران تبدو من السياج. أضواء نيون على السياج. مدخل البيت مفروش ببلاط يصله ببلاط المرأب، ومحمي بسقف هو جزء من طرمة الطابق العلوي، ومن السقف تتدلى أربعة أضواء محاطة بزجاج ملون.

(1) شرفة، بالكونة كبيرة.

https://t.me/MktbtArab

بعد هذه الصورة، توجد صور أخرى لبيت مهمَل. الواجهة متصدعة، جزء منها مغطى بلافتات قماش كالحة ليس من الواضح الكتابة عليها. الطابق الثاني يبدو أنه أضيف لاحقًا بنمط بناء مختلف. شبابيك ألمنيوم ودرجان حديديان لولبيان ينزلان من طرفي الطابق الثاني. على الطرف الأيسر بناء في الحديقة من الواضح أنه أضيف لاحقًا لكنه غير متصل بالبيت، بل يفصله عنه ممر خلفي ضيق. الحديقة جرداء تمامًا. فيها (خردة) متنوعة لا يمكن معرفة تفاصيلها بالضبط. دراجات قديمة. محركات سيارات. أثاث قديم.

***

كتبت سوسن: «**هذه صور بيتنا. الصورة الأولى لبيتنا كما تركناه عام 1980. والصورة الأخرى له في وضعه الحالي. من الصعب معرفة أنه البيت نفسه. تطلب مني الكثير من الوقت لتقبل الأمر. الصور الداخلية أكثر إيلامًا بالنسبة لي. طبعا الصورة الأولى ليست حقيقية. بل هي الصور الحالية معدلة بالذكاء الاصطناعي والفوتوشوب، وبمعطيات من ذاكرتي التي أدهشتني باختزانها لتفاصيل صغيرة في الحديقة. عدد أشجار النارنج والبرتقال. كم سندانة في مدخل البيت. لون الحجر الذي يحيط بسواقي الحديقة. الذاكرة شيء عجيب فعلًا، سبحان الله.**

طبعا اضطررت إلى استخدام الذكاء الاصطناعي لأنه لا تتوفر عندي أي صورة للبيت. في الحقيقة لا تتوفر عندي أي صورة لأي شيء، لا صورة من طفولتي ولا طفولة أي من إخوتي، ولا أي صورة لأي مناسبة عائلية. لا توجد عندي صورة لأبي غير صورته التي أخذها بعد ترحيلنا. كذلك شقيقي رشيد الذي أحتاج إلى أن أنظر إلى الصورة الوحيدة له لكي أتأكد أني لن أنساه.

البيت صودر طبعًا مثل كل أملاكنا وأملاك من كانوا في مثل (وضعنا)، بعض هذه الأملاك بيعت، وبعضها بقيت مسجلة باسم الدولة. بيتنا بقي باسم الدولة لأن رجل الأمن الذي سكنت عائلته في بيتنا قد عمل على أن يبقى البيت ضمن أملاك الدولة لأنه لو بيع في مزاد علني لن يتمكن من شرائه. كان يتعامل مع البيت على أنه ملك له، وفي الوقت نفسه لا يدفع أي إيجار. عندما سقط النظام، هرب رجل الأمن وتركت عائلته البيت، واقتُحِم من قِبل «أناس» -لا نعرفهم-

https://t.me/MktbtArab

وسكنوا فيه، ومن ثم قُسِّم إلى عدة بيوت، وظهرت خلال ذلك عقود بيع مزورة، بيع البيت خلالها عدة مرات، ولكن البيت رسميًا لا يزال باسم أملاك الدولة، رفعنا دعوى لاسترداده، ولا يزال أمامنا الكثير من الإجراءات.

مشاعري تجاه البيت مختلطة. كل مشاعري تجاه كل شيء يخص العراق مختلطة. تعرفون سؤال: (مِن أين؟) الذي يحدد مكان الولادة والأصل أو النشأة. وسؤال الارتباط الذي يتضمن إجابات (أعزب، مرتبط، مخطوب، متزوج، الأمر معقد). عندما يواجهني سؤال المكان والولادة والأصل، لا أستطيع أن أرد بوضوح، بل أفضِّل استعارة جواب: الأمر معقد. لأن علاقتي بكل مكان ذهبت إليه، منذ أن سُفِّرنا، أصبحت معقدة.

إلى أن سُفِّرنا، كنت أعتقد -وكذلك كل أفراد أسرتي- أنني عراقية. ثم حدث ما حدث. أسقِطت الجنسية عنا وصودرت كل مستمسكاتها. في إيران، عوملنا على أننا عراقيون. حتى الأحياء التي سكنا فيها، كانت تسمى «مناطق العراقيين»، حملوا إليها ثقافتهم وعاداتهم ولهجتهم وصمونهم وخبزهم وأدق التفاصيل في مطبخهم. طردوا من العراق، حرموا من أن يحملوا معهم أبسط أشيائهم وأغلاها، لكنهم حملوا معهم العراق رغمًا عن النظام في العراق وإيران. لم يمنحوا جميعًا مستمسكات إيرانية، بعضهم بقي بين البينين. في العراق اعتبروه إيرانيًا، وفي إيران اعتبره الناس عراقيًا، وهو بين هذين الاعتبارين، بين البينين. لا هنا ولا هناك. حصلت أنا على أوراق تجعلني إيرانية. لكني بقيت *العراقية* على الأقل في نظر الناس. إيرانية على الورق. لكن الواقع يجعلني في درجة ثانية أو ثالثة. لم أشعر بالانتماء قط. وعندما هاجرت إلى أستراليا، وأصبحت أسترالية، حصلت قانونيًا على كل ما يجعلني مواطنة كاملة، لكن ثمة شيئًا بين السطور، بين النظرات، يجعلني في أعينهم تلك المسلمة القادمة من الشرق الأوسط. حتى لو لم يكن هناك تلك النظرات فعلًا، غالبًا كنت سأتخيلها. شيء ما في داخلي انكسر وأصبح يجعلني عاجزة عن الانتماء. كما لو أن الانتماء «عدة» أو «جهاز» تركته خلفي في بغداد يوم جعلونا نركب الباص. لم نفهم يومها أن التسفير سيغيرنا إلى الأبد. مُسفَّر مرة. مُسفَّر دائمًا".

https://t.me/MktbtArab

كتبت هذا بمزيج بين العربية والإنجليزية. منعت نفسها بصعوبة كي لا تقول لهم أيضًا إنها بقيت لسنوات طويلة لا تحتمل أن تسمع اسم العراق، وكانت تستفَز عندما يعرب أحدهم عن حنينه إليه، أو التغني بذكرياته، أغلب العراقيين ممن كانوا حولها في دولت آباد كانوا يفعلون ذلك طيلة الوقت. أبوها قبل أن يموت كان قد دخل تقريبًا في حالة هلوسة. بغداد. بغداد. بغداد. كذلك فعل كثيرون من الكبار في السن. كانوا يوصون أبناءهم بالوصية المستحيلة. ادفنونا في النجف. لفترة طويلة كان لديها رد فعل عنيف ضد كل هذا. تلك هي طريقتها في المضي قدمًا ومحاولة الاستمرار بالحياة. حاولت تجنب الاختلاط بالعراقيين عندما كانت في إيران. ثم في أستراليا أصبحت تتجنب الاختلاط بالعراقيين غير المسفَّرين، ولا تمانع الاختلاط بمن كانت تتجنبهم في إيران. العقد النفسية والجروح العميقة درجات. والتحمل كذلك. وكان لديها ما يكفيها من العقد والجروح، وما لا يكفيها من التحمل.

***

كتب يعرب: «الفرق بين الصورتين هو الفرق بين العراق في السبعينيات والعراق الآن. الذوق، والنظافة، والرقي في الصورة الأولى. والعشوائية، والبشاعة، والتخلف، والقذارة في الصورة الثانية. لعنة الله على كل من أوصل العراق إلى هذا الدرك».

سألها سرمد: «عشرون عامًا على سقوط النظام ولم يرجع البيت إليكم؟!».

أجابته: «نعم، ويبدو لو أنه كان قد بيع من قِبل الدولة قبل سقوط النظام لكان الأمر أكثر تعقيدًا. أصحاب البيوت التي بيعت لم يتمكنوا من استردادها، عوِّضوا بأرقام أقل من قيمتها بكثير».

علق محمد عبد الجبار: «البيت بوضعه هذا فيه أربعة بيوت. بيتان في الطابق الثاني، بيت في الطابق الأرضي، والمشتمل المبني في مكان المرأب. حاليًّا بيوت بهذه المساحة يخرج منها ستة بيوت على الأقل. كل شيء تغير في بغداد، المجتمع والناس، وكان لا بد أن يؤثر ذلك على نمط البناء».

كتبت ريم: «الله. كانت لنا أيام في هذا البيت. حفلات ميلادك كانت جميلة. وأذكر مرة كانت هناك «مسيرة» والشوارع مغلقة جئنا مشيًا من المدرسة إلى بيتكم وجاءت أمي لتأخذني من عندكم».

https://t.me/MktbtArab

علق سرمد: «لا بد أنها كانت بمناسبة مؤتمر القمة العربية في بغداد. جعلونا نخرج لتحية الرؤساء العرب. هذه هي المرة الوحيدة التي لم تتمكن فيها المس صوفي مبارك من حماية طلاب المدرسة من الخروج في المسيرات».

بعد قليل كتبت تارا: «أذكر مرة سقط المطر في أثناء عيد ميلادك يا سوسن. كنا في الصف الثالث. أعتقد كنتم جئتم بفرقة (قرة قوز)».

ردت سوسن: «صحيح. ميلادي في شهر آذار ولهذا فيه هذه المشكلة دومًا. لكنها لم تكن فرقة قرة قوز، أمي كانت هي من تفعل كل شيء. رشيد كان يساعدها. الله يرحمهم جميعًا».

كتب سرمد ويعرب وريم ترحمًا على تعليق سوسن.

كتبت تارا: «لأرواحهم السلام».

بعد قليل كتب يعرب: «بيتنا كان (إيجار). هل سمعتم بوزير يسكن في بيت مستأجَر ولا يملك بيتًا باسمه؟ هذا كان والدي -رحمه الله-. اليوم نسمع عن الوزراء والمسؤولين ونواب البرلمان لديهم بيوت في دبي ولندن. أبي أعدِم وليس لديه بيت ملك. لديه قطعة أرض اشتراها في حي الجامعة وكان ينوي بناءها عندما يتمكن ماديًّا من ذلك. هذه الأرض بقيت ضمن أملاك الدولة، وبيعت بعد السقوط، أخذتها بالمزاد العلني. وأنوي أن أبني مسجدًا باسم والدي فيها».

كتب الجميع تعليقات يترحمون فيها على والد يعرب ويعلقون على نزاهته.

كانت نزاهته حقيقة لا جدال فيها بالنسبة إلى كل من في المجموعة بالفعل.

حتى سرمد. رغم اقتناعه الشديد بأن المنظومة البعثية كلها كانت «مبنية على الخطأ» وأنها قادت إلى كل الكوارث اللاحقة لكنه يقر بأنهم في فترة السبعينيات لم يكونوا قد فسدوا ماديًّا. على الأقل ليس بعد.

لكن لم يكن هذا ما يشغل بال سرمد في هذه اللحظة.

علقت في ذهنه كلمة سوسن عن أنها ترغب في القول «الأمر معقد» عندما تُسأل عن مكان ولادتها أو وطنها.

https://t.me/MktbtArab

كتب منشورًا مستقلًّا قال فيه: «**الأمر معقد. أصدق كلمة يمكن أن تقال عندما يسألوننا: من أين أنتم؟**

معقدون نحن في انتماءاتنا. أجسادنا في مكان، وأرواحنا في مكان آخر لم يعد له وجود حقيقي.

حاضرنا في مكان، ماضينا في مكان آخر، ونتمنى أن ينتهي بنا المطاف في مكان ثالث».

كتب هذا المنشور عندما كان ينتظر لقاء فيصل.

HTTPS://T.ME/MKTBTARAB

-20-

وضعت تارا عدة صور للتدريبات التي تشرف عليها كجزء من التحضير للأمسية الكردية.

بعض الصور كانت لبروفات بملابس عادية، والأخرى كانت لبروفات بملابس كردية تراثية. واحدة من المتدربات كانت تضع تاجًا على رأسها، وترتدي ثوبًا بنفسجيًّا طويلًا له ذيل مليء بحراشف.

كتبت تارا تحت الصور: «**أحضر منذ فترة للأمسية الكردية في الجامعة، أحاول التعريف بالثقافة والتاريخ الكرديين. ضمن هذه الأمسية سنعرض «تمثيلًا» لأسطورة كردية هي أسطورة شميران، أو شاه ميران، التي تعتبر أشهر الأساطير والحكايات الشعبية الكردية. عملت على تصميم وتنفيذ الملابس بنفسي. أتمنى أن تعجبكم الصور، وأتمنى لو يتيسر لكم الحضور بنفسكم. ستكون الأمسية في الثلث الأخير من شهر مارس القادم. مع عيد « نوروز»**».

لم تخبرهم عن قصتها مع هذه الحكاية، وكيف أصبحت كما لو كانت «نصًّا مقدسًا» بالنسبة إليها، هي الملحدة.

أول مرة سمعت هذه القصة كانت في الليلة التي جاءت عمتها لتقيم معهم، بعد أسبوع من ترك أمها للبيت. عمتها كانت تسكن في دهوك، كانت تارا تعرف أنها أرملة دون أطفال. كانت الحل الوحيد بالنسبة إلى أبيها لكي يتدبر أموره مع البيت ومع تارا بعد مغادرة أمها. على الأقل إلى أن تعود، إذا عادت. وكان الود مفقودًا تمامًا بين أم تارا وعمتها.

https://t.me/MktbtArab

نامت عمتها معها في غرفتها. قالت لها سأحكي لك حكاية. كانت تارا قد كبرت على حكايات ما قبل النوم. أصبحت في الصف الأول المتوسط. وكان هذا هو أسبوعها الأول في المدرسة الجديدة. متوسطة القادسية للبنات. لقد دخلت عالم المراهقات، ولم يعد مناسبًا لها أن تسمع حكاية قبل النوم.

لم تقل تارا شيئًا، عمتها فهمت. قالت لها إن لا أحد يكبر على بعض الحكايات. كانت تتحدث معها بالكردية فقط. وأصرت على والدها ألا يتحدث في البيت إلا بالكردية أيضًا.

تلك الليلة، والغرفة غارقة في الظلام إلا من ضوء الممر يأتي من تحت الباب، قصت عليها عمتها حكاية شميران. الفتاة التي لديها رأسان. رأس إنسان ورأس أفعى. تعيش بين الأفاعي لأنهم أكثر وفاء من البشر، ثم يأتي (جاماسب)، شاب غدر به أصدقاؤه وتركوه في البئر، فتقدم له شميران المساعدة وتنقذه، يعيش معها بين الأفاعي في سعادة، ثم يغادر على وعد العودة وكتمان سر شميران، وتأمل شميران أن يفي بوعده. لكن البشر غدارون، عكس الأفاعي.

كانت عمتها تحكي القصة بجدية تامة، كما لو كانت قصتها الشخصية. مع الوقت، عرفت أنها تتعامل مع الحكاية كما لو كانت بالفعل قصتها. عرفت تارا أن عمتها كانت قد حاربت الكل للزواج برجل عربي متزوج، ومن طبقة اجتماعية أقل أيضًا، قاطعها الجميع لكنها هربت وتزوجته وعاشت معه في قريته وسط العداء من أقارب زوجته الأولى، ثم إنها لم تنجب، فزاد الحصار والعداء والضغط على الزوج فهجرها تمامًا ثم طلقها قبل أن يموت في حادث سير.

بالنسبة إلى عمتها، فقد غدر بها من أحبته أكثر مما يمكن للأفاعي أن تغدر. بالضبط كما في حكاية شميران.

ليلة بعد ليلة، كانت عمتها تعيد عليها الحكاية، كما لو كانت تعويذة.

ثم أدركت بالتدريج أن عمتها تريد أن تقول لها إن أمها غدرت بها عندما تركتها، وإن ما يجمع أم تارا بزوج عمتها واضح جدًّا.

إنهما عربيان.

بالتدريج، ومع إدراكها أن أمها تركتها فعلًا، وأنها لن تعود، تركتها دون وداع أو توضيح، تحولت حكاية شميران لتصبح حكايتها الشخصية أيضًا.

https://t.me/MktbtArab

بل إنها بطريقة ما بدأت تتخيل أن جاماسب، الشاب الذي غدر بشميران، كان عربيًّا.

نسختها من الحكاية كانت طفولية وساذجة ومحرَّفة، لكنها كانت تعبِّر عن شعورها بالغضب والحنق تجاه أمها.

ثم بدأت تشعر بالكره، كره أمها لأنها تركتها وكره نفسها لأن أمها تكرهها. لا بد أنها كانت تكرهها ما دامت قد تركتها.

اختلط ذلك بالتدريج مع ما كان يصل إلى والدها من فظائع تحدث للقرى الكردية في حملة «الأنفال» التي شنها النظام، وصولًا إلى مجزرة حلبجة التي استُخدِم فيها الكيميائي.

بطريقة ما تحولت «شميران» من حكاية أسطورية شعبية إلى قصة شخصية مليئة بالطعنات والجروح والندوب، ومن ثم تحولت لتصبح -في ذهن تارا- قضية شعب تمزق لأن من رسم الحدود تجاهل وجوده بالكلية.

كل هذا لم تقله تارا عندما نشرت صور تحضيرات الأمسية.

كل من في المجموعة عرب.

هل يا ترى سيفهمون ما تشعر به؟

وهل تفهم نفسها هي، عندما تجد نفسها ممزقة بين تلك الحكاية بندوبها التي شكلتها، وبين حقيقة أن أصدقاء الطفولة الذين تريد أن تبوح لهم كلهم عرب؟

كما قالت سوسن، وكما كتب سرمد، «الأمر معقد».

كتب أغلب أعضاء المجموعة تمنيات بالنجاح للأمسية. وأبدت ريم إعجابها بتصميم الملابس وتنفيذها.

الأنفال وحلبجة

بين شهرَي شباط / فبراير وأيلول / سبتمبر عام 1988 نفذ النظام العراقي حملة عسكرية في المحافظات الكردية للقضاء على حركة التمرد التي قامت بها فصائل كردية معارضة، عرِفت هذه الحملة بـ (حملة الأنفال). ونتج عنها تدمير 4500 قرية وتهجير قرابة مليون كردي. القرى المستهدَفة فرِّغت من سكانها عبر فصل النساء والأطفال واحتجازهم في معسكرات

https://t.me/MktbtArab

اعتقال في جنوب العراق، وإعدام الرجال بين الأعمار (15-70) ودفنهم في مقابر جماعية.

جُرِّفت لاحقًا القرى أو أُسكِن عرب في بعضها لغرض تغيير ديموجرافية المنطقة.

استخدِمت في الحملة أنواع الأسلحة التقليدية وغير التقليدية كافة بما فيها الأسلحة الكيميائية التي وثِّق استخدامها 21 مرة على الأقل.

أشهر استخدام للأسلحة الكيميائية كان في قرية حلبجة في يوم 16/ 3/ 1988 حيث كان حجم الاستخدام ومداه أكبر من الحوادث الأخرى، كما أن قرب القرية من الحدود الإيرانية سهل دخول الصحفيين الإيرانيين الذين وثَّقوا المجزرة وصوروا ضحاياها. عند انتشار خبر المجزرة التزم النظام العراقي الصمت لفترة ثم اتهم إيران بارتكابها، لكن تضارب الرواية العراقية جعلها ضعيفة ولا تتماسك أمام شهادات الناجين وأمام وثائق عراقية عثِر عليها لاحقًا تشير إلى استخدام أسلحة جديدة في حلبجة في التاريخ نفسه الذي حدثت فيه المجزرة.

عدد الوفيات في حلبجة تراوح بين 3200 – 5000 ضحية، معظمهم من المدنيين.

عدد الضحايا تراوح بين 50 ألفًا في أقل التقديرات إلى 180 ألفًا في أعلاها.

منظمة حقوق الإنسان –في تقرير لها عام 1993– اعتبرت ما حدث في حملة الأنفال جريمة «إبادة عرقية» ضد الأكراد.

اسم «الأنفال» كان يرد بشكل رسمي في البيانات العسكرية التي يبثها الإعلام الحكومي التي قدمت الحملة على أنها جزء من العمليات العسكرية في الحرب مع إيران، و «المتعاونين معها».

اسم الحملة يعود إلى سورة الأنفال، وتعني الغنائم، ويعتقد أن الربط بين طبيعة الحملة والاسم يعود إلى أن النظام قد أقنع «المسلحين الأكراد المتعاونين معه، أو ما كان يعرَف بالجحاش» بالاستيلاء على الحيوانات والمواشي والمحاصيل والأموال التابعة للقرى المستهدَفة باعتبارها «غنائم».

-21-

ذهبت سوسن إلى مركز اللاجئين لتجري مقابلة أخيرة مع سعيد غني مزدهري قبل النطق بالحكم في الجلسة الأخيرة التي ستعقَد الأسبوع المقبل. كانت تريد أن تراجع أقواله مجددًا وتتأكد من أنه سيحافظ على تفاصيلها. الجلسة غالبًا ستحسَم لصالحه حسب توقعات سوسن، لكنها لم تكن تنوي أن تخبره بذلك. تعودت ألا ترفع سقف توقعاتها في أي شيء، وتحرص أن تنقل هذا التعود إلى موكليها. بينما السقوط من مرتفع مؤلم دومًا، فالسقوط من منخفض التوقعات يكون أقل ألمًا.

سلمت بطاقتها وملأت الاستمارة الخاصة بالمقابلة كالمعتاد. جلست في الانتظار، كانت هناك محامية شابة تراها لأول مرة. حيتها بابتسامة كأنها تقول لها «مرحبًا بك في نادي الدفاع عن القضايا المأساوية». ردت المحامية الشابة بمثلها. فكرت سوسن: ستندمين غالبًا.

نادت الحارسة اسمها: «سوزان شيرازي».

نهضت سوسن مستغربة. عادة يستغرق الأمر أكثر من ذلك.

قالت لها الحارسة: «أنت هنا للقاء سعيد غني مزدهري؟».

ردت سوسن: «نعم».

سألتها الحارسة: «ألم تستلمي الإيميل؟».

ردت سوسن: «أي إيميل؟».

https://t.me/MktbtArab

فكرت سوسن مع نفسها: يا الله. نسيت المرور على البريد الإلكتروني صباح اليوم. استغرق استحمام «الباتروس» -الكلب- أكثر من المعتاد، وكان عليها أن تجهز وجبة «الفسنجون» لأن جاسمين قالت إنها ستحضر لتناول العشاء معهم ووعدتها بالفسنجون الذي تحبه. لم يتسن لها أن تفتح البريد.

أجابت الحارسة: «الإيميل الذي أرسِل إليك أمس».

قالت سوسن: «للأسف لا. نسيت. هل هناك شيء؟».

قالت الحارسة: «يفضَّل أن تفتحي البريد بنفسك».

تراجعت سوسن بشكل شبه تلقائي وهي تمد يدها لتخرج الهاتف من حقيبتها.

فتحت البريد.

رسالة من إدارة المركز. عنوان الرسالة: بخصوص النزيل رقم 175432. سعيد غني مزدهري.

بدأت الرسالة بكلمة «يؤسفنا».

هذه بداية لا تبشر بأخبار طيبة. نزلت بسرعة إلى الأسطر الأخيرة.

«... قد وجِد مشنوقًا في الحمام فجر اليوم، فيما يعتقَد أنها حالة انتحار،... كان متوفيًا عندما فُحِص،... لم تكن هناك أي إشارات خطرة عدا شروده مؤخرًا».

حاولت أن تضبط أعصابها وهي تقود سيارتها دون أن تحدد مكانًا للذهاب إليه. حاولت أن تتذكر أي شيء قاله في لقائها الأخير معه. حاولت أن تجد أي إشارة أو نذير غفلت عنه. نعم كان هادئًا قليل الكلام لكنه لم يكن مكثرًا من الكلام بكلِ الأحوال.

وجدت نفسها تقود سيارتها إلى حي كلايمور الذي تسكن فيه عائلة سعيد. سبق أن التقتهم لتبحث عما يمكن أن ينفعها في قضية سعيد. الحي هو أفقر حي في سيدني، لكنهم طبعًا كانوا يعتبرونه الفردوس الأعلى. لم تكن تلك المقابلة نافعة غير لها بشكل شخصي عندما شعرت أن قصة سعيد عن طريقة ضياع وثائقه تبدو صحيحة. كان قد لمَّح عدة تلميحات أنه ربما تكون هناك بعض الأوراق عند زوجته مما يمكن أن تدعم قضيته. لكن الزوجة نفت وجود أي وثيقة جديدة أو معلومة إضافية يمكن أن تخدم قضية سعيد.

ذهبت سوسن إلى العنوان الي سبق أن أرسلته زوجة سعيد في محادثة سابقة لهما. لم تتصل بها قبل أن تذهب. طرقت الباب وهي لا تعرف إن كانت

https://t.me/MktbtArab

زوجة سعيد تعلم بالأمر. فتحت الزوجة الباب وعرفت سوسن فورًا أنها تعلم. دون أن تقول كلمة واحدة، كان واضحًا عليها. لكنها سرعان ما تحولت من حالة الحزن إلى الغضب وهي تحكي لسوسن ما حدث. قالت لها إنها كانت تعلم أن أسرة زوجها ستتسبب بمصيبة كبيرة لها. لكنها لم تتوقع ما حدث.

- ماذا حدث؟

- زاره ابن عمه في مركز اللاجئين، وأخبره أن عليه أن يخرج بسرعة ليغسل عاره بنفسه. لن يفعل أحد ذلك نيابة عنه لأن أولاده ليسوا رجالًا بما فيه الكفاية.

- أي عار بالضبط؟

- ابنتي أميرة. هربت مع رجل هندوسي وعاشت معه في الحرام وأنجبت طفلًا بلون أبيه.

قالت كل هذا في جملة واحدة سريعة كما لو أنها تريد أن تتخلص منها.

- نجحنا في إخفاء الأمر عن سعيد طيلة هذه السنوات.

ثم سكتت قليلًا وأكملت: «كان من الأفضل أن يبقى في مركز حجز اللاجئين بعيدًا عن هذا كله».

فهمت سوسن الأمر في ثانية واحدة. إذن كان هناك بالفعل وثيقة عند الزوجة يمكن أن تخرِج سعيد من وضعه، لكنها فضلت أن تبقيه بعيدًا عن عار أميرة وابنها من الهندوسي. العار لاحقه في محبسه على أي حال، وغسله هو بطريقة مختلفة.

قبل أن تخرج التفتت سوسن وسألتها: «وأميرة؟ ماذا جرى لها؟».

هزت الزوجة رأسها وزمت شفتيها: «لا أعرف شيئًا عنها. ولا أريد أن أعرف».

في طريق العودة وجدت نفسها تتذكر سقوط والدها مشلولًا في حمام شبه عمومي. سعيد غني مزدهري انتحر في حمام مشابه. هل كانت وفاة والدها «الطبيعية» انتحارًا بطريقة ما؟ انتحر والدها همًّا وغمًّا لكي يتخلص من حياة كانت أشبه بالعار بالنسبة إليه؟ تداخل كل شيء فجأة عندها. وجدت نفسها تبكي وهي غير واثقة من سبب بكائها. والدها أم سعيد أم أميرة أم ابنها؟

كان عليها أن تتمالك نفسها عندما وصلت إلى البيت. الفسنجون يجب أن يجهز. مشاعرها يجب أن تكون في الثلاجة الآن ريثما تجهِّز الطعام. فعلت ما

تفعله دائمًا. تحيد كل شيء لكي تستمر الحياة. على العشاء تحدثت جاسمين عن رحلتها إلى دبي ولقائها بخطيبة أخيها وتحضيرات العرس المرتقب خلال شهرين، وضرورة أن تذهب سوسن بنفسها إلى هناك لتشرف على بعض التفاصيل وتحدثت عن مشكلات روتينية في العمل وحديث عادي آخر. لكن سوسن كانت في عالم آخر تمامًا. لم تستطع أن تتفاعل مع شيء. انتبهت جاسمين لذلك وسألتها عن الأمر، علق حسين أنها هكذا منذ أن عادت من العمل، وأنها خرجت في منتهى النشاط.

كانت على بعد جملة واحدة من أن تحكي لهما عن سعيد وزوجته وأميرة وابنها. لكن قدرت أن ذلك سيفسد الأمسية كلها، وسيكرر حسين ما يقوله دائمًا عن ضرورة عدم التعلق أكثر من اللزوم بالأوضاع الشخصية للموكلين.

اكتفت بأن قالت إن هناك مشكلات في العمل.

حاولا أن يسألاها أكثر عن تفاصيل الأمر.

لكنها أنهت النقاش بأن قامت لتصب الشاي.

قبل أن تنام كتبت على المجموعة:

«اليوم انتحر موكل عندي. أفغاني جاء لاجئًا في القوارب منذ سنوات ولأن أوراقه مزورة فقد تمكنت أسرته من الحصول على لجوء وبقي هو محتجَزًا يواجه خطر الترحيل.

قابلت أسرته، وفهمت أن أحد أقربائه أخبره أن ابنته قد ضلت الطريق وأن عليه أن يقتلها غسلًا للعار.

فانتحر.

تأثرت جدًّا، الله يرحمه».

***

ترحم سرمد عليه وشتم كل حكومات الشرق الأوسط وغير الأوسط، وشتم يعرب الحكومات وأضاف إليها أمريكا باعتبارها المتسببة فيما حدث في كل مكان، وعلق محمد عبد الجبار متسائلًا عن جواز الترحم على المنتحرين وقال إن فيها «خلافًا»، وجادله سرمد في الأمر، بينما تجاوزت ريم الموضوع وترحمت عليه.

-22-

بقي محمد عبد الجبار يفكر في شخص لم يره قط ولا يعرف اسمه.

اللاجئ الأفغاني، موكل سوسن، الذي انتحر في وقت سابق يوم أمس، الذي كتبت عنه في المجموعة. قرأ الأخبار وهو في القطار، ذهب إلى مكتبه، قابل زبائن، خرج ليدقق على العمل في موقع يجب أن يسلمه خلال أسبوعين. راجع الضرائب. صلى الظهر. تناول الغداء في مطعم قريب. شاهد الأخبار على هاتفه. قابل زبائن آخرين. صلى العصر.

لكن طيلة الوقت كان هذا الرجل الذي لا يعرفه يتحرك في خلفية رأسه، لا، لم يكن يتحرك، كان جاثمًا هناك. ساكنًا مثل جثة منتحر مدلاة من السقف.

شيء ما، لا يعرف ما هو، كان يقول له إنه يمتلك الكثير من المشتركات مع هذا الرجل الذي لا يعرفه. من الخارج يبدو كل منهما على طرفي نقيض من طيف النجاح. بينما ذاك رجل ذهب بالقارب إلى أستراليا، جاء هو بالطائرة بتأشيرة نظامية وأكمل كل إجراءات إقامته بشكل قانوني، ثم بينما حصل على الجواز البريطاني منذ أكثر من عشر سنوات الآن، بقي ذلك الرجل محتجَزًا في معسكر للاجئين.

لكن محمد يشعر اليوم أن جزءًا منه لا يزال لاجئًا غير شرعي. ولم يأت بتأشيرة نظامية، بل جاء بالقوارب ودخل بطريقة غير شرعية. جزء منه لا يزال محتجزًا في مأوى للاجئين، ينتظر صدور القرار بشأنه. جزء منه يشبه ذلك الرجل الخائف من العار. لا يزال رجلًا شرقيًا. الجواز البريطاني لم يغير ذلك. لا يمكن لشيء أن يغير ذلك. حاول أن يقنع نفسه أن العار يمكن أن

https://t.me/MktbtArab

يحدث في أي مكان في العالم، ليس عليه أن يلوم لندن أو الجواز البريطاني أو قرار الهجرة أو سنة 2003 أو أي أحد آخر. العار يمكن أن يحدث في أي مكان. لماذا الدراما قبل حصول العار؟

لكن لا. لا سواء. لم يقتنع بالتشبيه الذي حاول أن يقنع نفسه به. حاول أن يستخدم عامل المساواة بين الجنسين لكي يخفف من وطأة الأمر. ما الفرق بين بشار وعمار وبين سما؟ العار يمكن أن يأتي من الذكر كما من الأنثى. رقصة التانجو تتطلب اثنين، كذلك الزنا. والدين يساوي بينهما في الذنب والعقوبة: آمنت بالله. الدين يساوي بينهما. لكن ليس ثقافته الشرقية التي لم يصادرها منه موظف الجمارك عندما جاء من العراق. مهما اقتنع بالمنطق أنه لا فرق بين أولاده فقلبه لا يزال يرفض. ثم إن لا علامات خطر جاءت من بشار وعمار. على العكس من سما التي تعيش مراهقتها كما يعيشها كل أقرانها البريطانيين وتمر بكل ما يمرون به من ضغوطات ومخاطر. كل الأعلام الحمراء ترفرف حول سما، الوشم، الأقراط في الأنف، خصلات الشعر البنفسجية، النحافة المفرطة والامتناع عن الأكل والتصور أنها بدينة وبشعة وتحتاج إلى عملية تجميل وتكميم للمعدة، الدفاع المستميت عن مجانين ثنائي الجندر والأفراد الذين يصنفون أنهم (هم / هؤلاء) وليس (هو أو هي)، ومجانين الترانس الذين لا يستطيع أن ينظر إليهم دون أن يصاب بالاشمئزاز. قائمة طويلة من أمراض الجيل الجديد. كلها لم يمر بها بشار وعمار ولم تكن يومًا جزءًا من حياتهما أو حوارهما. بينما تعتبرها هي قضايا مصيرية.

قبل أن يخرج من المكتب شعر بثقل في معدته، فكر أنه ربما أكل أكثر مما يجب هذه المرة. حاول أن يتذكر إن كان قد فعل ذلك حقًّا لكنه لم يتذكر. قرر أن يشرب قنينة من المياه الغازية لتساعده في هضم غدائه. اشترى قنينة من السوبر ماركت وتناول رشفتين في طريقه إلى محطة هكستون حيث يجب أن يستقل القطار للعودة إلى المنزل. شعر أنه أفضل بالفعل فرمى القنينة في سلة مهملات. لدقائق كان أفضل بالفعل. عندما وصل إلى المحطة بدأ يشعر بحرقة خفيفة في معدته. وقف على الرصيف وهو يتأمل الإعلانات. اختر السعادة: كوكا كولا. الخصوصية هي الآيفون. مسرحية المولان روج في البيكاديلي. قوس قزح قادم إلى لندن. الخطوط الجوية البريطانية: لأن الجو سيئ. ليفي: السخونة تأتي في كل الأحجام. أنت تستحق إسبانيا.

https://t.me/MktbtArab

عاد الثقل إلى معدته. هل هذه حرقة أم ثقل؟ يشعر بالضيق. يلتفت حوله. الزحام المعتاد. لكنه يشعر كما لو أن التنفس أصبح صعبًا. يشعر بالدوار، أو لعل الأرض تدور بالفعل. أدرك الآن أنه يعاني أزمة قلبية. لا تشبه الأزمة السابقة، ولا ما يراه في الأفلام، خدعته السينما. للحظات لا يرى شيئًا ولكنه يشعر أنه يرتطم بالأرض. يسمع أحدهم يهمس الشهادتين في إذنه. ويقول له: «ردد معي».

***

عاد سرمد مع دانيا إلى موتيل كامبتون إن القريب من المصحة. كان عليه أن يبقى يومًا آخر قبل أن يتمكن من نقله إلى مصحة قريبة من ديربون ميشيجان لكي يكون أقرب إلى الجميع. إليه وإلى دانيا وإلى أمه. الإشراف عليه سيكون أفضل هكذا. ولم يبدِ فيصل أي معارضة للأمر. في الحقيقة فيصل لم يبدِ أي شيء. كان مستسلمًا كجثة، ساهمًا طيلة الوقت، لم يكن واضحًا أنه عرف والده أصلًا أو ميّزه. قالت الممرضة إن «ليلة أمس كانت صعبة جدًّا». وهذا يعني غالبًا أنه تحت تأثير مهدئ ما. الحاجة إلى مهدئ بعد ستة أشهر من بدء العلاج؟ هذا يدل أن الأمور ليست بخير.

في الطريق إلى الموتيل قالت دانيا لأبيها: «إن فيصل عادة أفضل، لكن ليلة أمس كانت سيئة، وهُدِّئ بمهدئ جعله بالمنظر الذي رأيته فيه».

- ماذا حدث أمس؟
- أخبرته أنك ستأتي.
- وبعدها؟
- انهيار. بكاء هستيري استمر لفترة طويلة إلى حد التدخل الدوائي.
- لماذا؟ هل أنا مرعب لهذه الدرجة؟

نظرت دانيا إلى أبيها ثم أدارت رأسها إلى الجهة الثانية بيأس، كما لو أنها تقول: لا فائدة.

- ما الأمر؟ من يفترض أن يبكي؟ أنا أم هو؟ هل من السهل علي أن أراه بهذا الوضع؟ أنا من يجب أن أبكي. أنا من يحتاج إلى مهدئ. أنا من رأى هزيمته بعينيه.

https://t.me/MktbtArab

- أبي، هل ترى نفسك؟ هل تلاحظ ما تقول؟ أنت تعتبر فيصل معركة شخصية خسرتها، بينما هي حياة فيصل ومصيره ومعركته هو. ليس كل شيء في العالم يدور حولك يا أبي.

أوج. جملة مؤلمة، لكنها أصابت الهدف. في العادة لا يترك الجملة الأخيرة من أي حوار تفلت منه. عليه أن يكون هو قائلها. هو صاحب النقطة نهاية السطر. وليس أي أحد آخر.

لكن هذه المرة، تنبهته دانيا إلى أنه يعتبر فيصل «معركته» هو، خسارته هو، بينما المتضرر الأكبر والخاسر الأكبر هو فيصل نفسه.

بقي سرمد صامتًا تاركًا الجملة تتسلل إلى وعيه.

بقيت دانيا صامتة كذلك، كما لو أنها أدركت أن جرعة اليوم كانت كافية.

قبل أن ينام أعاد قراءة ما كتبته سوسن عن الأفغاني المنتحر في مجموعة السادس أحمر.

بينما قد نجح في محاولته، فيصل لم ينجح.

***

- عليك أن تخرِج كل هذا من صدرك، فارس بيه.

قال ذلك الدكتور آلب وهو يحاول أن يخفي تأثره الواضح.

- أكتب مجددًا لوليد الصغير؟

- لا. هذه المرة اكتب لزملاء وليد، الذين كانوا يحيطونه بتوقعاتهم التي بقي أسيرها حتى اليوم.

- أكتب في المجموعة؟

- نعم. عليك أن تزيح هذا الذي يأكل فيك منذ عقود. هذا جزء من العلاج. لا يمكنك أن تواجه هذا الذي حدث دون أن تتحدث عنه. في اللحظة التي تتحدث فيها عما تعرضت له من صدمة، فإنك تبدأ بتكوين فهم أعمق لهويتك التي ساهمت هذه الصدمة في تشكيلها.

- ......

- هذا جزء من العلاج. الكتابة أو الحديث المباشر. أعتقد أن الكتابة ستكون أيسر عليك في هذه المرحلة.

https://t.me/MktbtArab

- ....

- لديك رحلة علاج طويلة فارس بيه، وهذه الخطوة قد تكون الأهم فيها.

- أكتب عما حدث في المجموعة؟

- نعم.

سكت وليد كما لو أنه يفكر. كان مرهقًا، آثار البكاء واضحة عليه. بكى وهو يحكي كل شيء للدكتور آلب، قال له إن هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها عن الأمر، وإنه اختزن كل شيء في داخله منذ ليلتها. لكن هذا الذي اختزنه أخذ يأكله بالتدريج، مثل سرطان يتمدد وينتشر دون أن يشعر به أحد، إلى أن يضرب ضربته القاضية.

- حسنًا. أعتقد أني سأكتب.

https://t.me/MktbtArab

-23-

«فيديو ميلاد يعرب، مثل كل وجهات النظر، لا يعكس الحقيقة الكاملة، بل مجرد الصورة التي التقطتها كاميرا الفيديو في تلك الأمسية. لكن الحقيقة فيها تفاصيل أكثر. الصورة الحقيقية هي الصورة الكبيرة التي ستعجز أي كاميرا فيديو عن اعتقالها في كادر مستطيل.

عندما قال يعرب إني كنت أبكي، جدته صدقته ونقلت ذلك لأمه التي سألته عن السبب. فقال إني «أبو دميعة». أذكر هذه الكلمة، سمعتها همسًا، وكلمات أخرى أيضًا، لا أزال أذكرها. وصدِّقوا أو لا تصدِّقوا، لا تزال تؤذيني. مجرد أن أذكرها أرجع فورًا إلى ألمي آنذاك. إلى حرجي وخجلي. كل هذه المشاعر لها ذكريات. للألم ذاكرة، وللحرج ذاكرة، وللخجل ذاكرة.

لم أكن أبكي يومها، لكني كنت قلقًا بالفعل. هذا لا يُنسى، لأن ما كنت قلقًا بشأنه، خوفًا من حدوثه، قد حدث فعلًا، ولكن حدث بأسوأ من كل احتمالات قلقي ليلتها.

ربما لا تعرفون أن والدي قد مات في تلك الليلة تحديدًا. في ليلة 16 تموز 1979. الليلة التي وصل فيها صدام إلى رئاسة العراق.

تركني في «عيد الميلاد» أمام باب بيت يعرب، وقال لي إنه سيعود في التاسعة.

https://t.me/MktbtArab

عندما تأخر قلقت. عندما كنت أقف عند الباب منتظرًا مجيئه، وقالت الخالة أم يعرب إن الساعة أصبحت الحادية عشرة، كان والدي في الإنعاش، وكانوا يحاولون إنقاذ حياته. شهادة الوفاة تحدد وفاته بالساعة الحادية عشرة والنصف من مساء ذلك اليوم. تقريبًا في الوقت نفسه الذي وصلت فيه إلى بيت خالتي، أوصلني سائق بيت يعرب وجاءت معنا جدته. عرفت بعد ذلك بساعتين تقريبًا، عندما رفعت سماعة الهاتف واسترقت السمع لمكالمة بين زوج خالتي وخالتي، وقال لها: انطفأ.

لكن ليس موت والدي هو ما أريد الحديث عنه هنا، بل عن شيء آخر لم يعرفه أحد طيلة هذه السنوات. ولم أتحدث به لأحد إلى أن أوصلني ذلك الكتمان إلى الدرك الأسفل، حرفيًا.

الأمر الذي أحتاج إلى أن أبوح به هو قناعتي الراسخة في تلك الفترة، ولسنوات طويلة لاحقة، بأن وفاة أبي لم تكن طبيعية، بل إنه قد قُتِل.

وأن القاتل، كان أنا.

لم يكن قتلًا عمدًا، كنت أدرك ذلك، لكن ذلك لم يخفف من شعوري بالذنب.

والدي أحيل إلى التقاعد قبل ثلاثة أشهر من وفاته. كان في الثانية والأربعين فقط. أحيل مع مجموعة أخرى من الأساتذة في الكلية الطبية في جامعة بغداد ضمن حملة النظام لتطهير الجامعة من الرجعيين أعداء الثورة. كان هذا يعني «المستقلين» الذين لم يتقدموا بطلب للانتماء إلى حزب البعث العربي الاشتراكي. لم يكن «الاستقلال عن الحزب» بالضرورة عداء للحزب بقدر ما كان نأيًا عن الصراع الدموي على السلطة بين الأحزاب التقدمية وانقلاباتهم على بعضهم وعلى أنفسهم.

وكان والدي مستقلًا مع سبق الإصرار والترصد والفخر أيضًا، لم يكن يحب البعثيين، ولا غيرهم أيضًا، ربما مال لهم وقت الصراع مع الشيوعيين، لكنه كان محض ميل عاطفي أيام الدراسة ولم يصل إلى درجة الانتماء، وبخاصة أن البعثيين سرعان ما أثبتوا أنهم ليسوا أقل سوءًا من الشيوعيين بل ربما يفوقونهم في بعض النواحي القمعية.

https://t.me/MktbtArab

لكن والدي كان ملتزمًا بالقانون لدرجة التقديس. نمط نادر حتى في ذلك الزمن الأكثر نظافة. كان الأطباء مثلًا لا يبالون بتفاصيل صغيرة في المستشفيات الحكومية، يكتبون وصفات لعوائلهم ويأخذون الأدوية من الصيدلية، أو يستخدمون الأقلام المجهزة لهم في أمور شخصية. والدي كان قد تعلم من والده أن ذلك يقترب من أن يكون كبيرة من الكبائر. وهذا النمط النادر ما كان سيتورط في أي شيء مخالف للقانون مهما كان هذا القانون غبيًا أو صادرًا عن نظام قمعي.

لكن البعثيين أرادوا تطهير الجامعة من هؤلاء المستقلين الذين لا يتزلفون ولا يتسلقون ولا يبدون حماسًا عند التصفيق. وهكذا كان.

وجد والدي نفسه متقاعدًا في الثانية والأربعين. كان يعتقد أنه لا يزال أمامه عقود من العمل في شغفه الوحيد: جراحة الدماغ. لكن فجأة، دون أي مقدمات. يحال إلى التقاعد دون تفسير أو تبرير. لا تحتاج هذه الأنظمة إلى تقديم تبريرات أو تفسيرات. أنت شخص غير مرغوب فيه في الجامعة، هذا هو معنى قرار الإحالة إلى التقاعد بالنسبة إلى كل القائمة التي كان اسمه في ذيلها، لأنه كان أصغر المشمولين بالقرار.

والدي وجد نفسه في فراغ مروع. لم يكن لديه أي شغف حقيقي غير جراحة الدماغ والجملة العصبية. لا هواية، لا رياضة، لا شطرنج، لا تصوير، لا اهتمام بالحديقة. لا شيء غير جراحة الدماغ والأعصاب، إذا استثنينا فيروز، والأدوار القديمة لأم كلثوم.

كانت جامعة الخليج في البحرين على وشك التأسيس وتضم أول كلية طبية في الخليج، كلمه صديق مصري وقال له إن حصوله على وظيفة هناك أمر مضمون. لكن والدي لم يكن يتخيل فكرة السفر للعمل خارج العراق. ذلك الجيل لم يكن يفكر مثلنا، وبما كان لديهم أمل. إضافة إلى ذلك، كان يعتني بوالدته، جدتي المريضة بقائمة طويلة من الأمراض، وهو الطبيب الوحيد بين إخوته. لم يفكر حتى في العرض.

لكنه كان يذوي بالتدريج. يومًا بعد يوم كنا نراه وهو يذوي ويذوب ويشيخ. في البداية كان يخرج كل صباح ويعود في الوقت المعتاد

https://t.me/MktbtArab

لعودته قبل التقاعد. ثم توقف عن ذلك، توقف عن الخروج من البيت تمامًا. باختصار كان يموت بالتدريج، كما لو أن قرار الإحالة إلى التقاعد كان حكمًا سريًا ضمنيًا بالإعدام. كنا نرى ذلك بوضوح. كنت في الثانية عشرة فقط لكني كنت واعيًا تمامًا، وكنت أرى ذلك كما لو أنه مكتوب على جبينه.

مع اقتراب موعد عيد ميلاد يعرب، جاءت لوالدتي فكرة أن يستغل أبي الموضوع لكي يقدم لوالد يعرب طلبًا بإعادة النظر في قرار إحالته إلى التقاعد. رفض والدي بشدة وشتم كل البعثيين ابتداء من مؤسس الحزب ميشيل عفلق إلى والد يعرب، ومر بصدام والبكر طبعًا. "أنا أتوسل إليهم كي يعيدوا لي حقًّا ظلموني فيه؟ ولو أعادوني إلى الخدمة، ماذا أقول لمن أحيل إلى التقاعد معي؟ توسلت وتذللت إلى هذه العصابة الجاهلة لكي أنال رضاهم وأعود إلى عملي الذي غصبوه مني؟» لم يستمر نقاشهما طويلًا، تحول بسرعة إلى صراخ هستيري من قِبل والدي. خافت أمي عليه وصرفت نظرًا عن الموضوع. لكن ليس أنا.

كتبت لوالدي رسالة أطلب منه فيها أن يتحدث مع والد يعرب في موضوعه. كتبت له بغباء: إذا كنت تحبنا فعليك أن تتنازل وتكلمه. جملة غبية أخرى: نريدك أن تعود كما كنت.

تركت الرسالة على مكتبه.

مساءً مر علي وأنا في سريري قبَّلني وقال لي إنه سيفعل ما طلبته منه. لم أر وجهه عندما قال ذلك، كانت الغرفة مظلمة. لكن صوته كان مختلفًا، جريحًا، مكسورًا.

كان ذلك قبل يومين من ميلاد يعرب.

لم أتحدث معه بعدها عن الأمر، لكن عندما أوصلني إلى بيت يعرب بعد عصر ذلك اليوم، سألته وأنا أهبط من السيارة: «هل ستتحدث مع «أبي يعرب»؟».

هز رأسه أن نعم.

ولم أره بعدها.

كل الحوادث بعد ذلك، بين نزولي من السيارة وموعد قدومه المفترض، وقعت في رأسه.

هناك وقعت جريمة القتل.

الشريان المخي الأوسط، الذي يغذي الجزء الأكبر من الدماغ لم يحتمل وطأة الموقف. وطأة الكلمات الغبية التي كتبتها. كانت كلماتي مثل سكين يغوص في هذا الشريان.

إذا كنت تحبنا.. نريدك أن تعود كما كنت.

انفجر الشريان المخي الأوسط. انقطع الدم عن الدماغ.

خلال ساعات قليلة، كان الأمر قد قُضي.

لقد قتلته.

كنت واعيًا تمامًا بما فعلت. منذ اللحظة التي قال فيها زوج خالتي على الهاتف «لقد انطفأ» كنت أعرف أني أنا من فعل ذلك، أنا من أطفأته.

كانت مشاعري مضطربة. لم أكن قد فعلت ذلك عمدًا، لكن هذا لا ينفي ذنبي ولا يخفف من شعوري به. القتل الخطأ جريمة، أقل من القتل العمد، لكنه جريمة قتل بكل الأحوال. لقد قتلت أبي، دمرت الأسرة. لا شيء سيعود كما كان. انتهى الأمر، وأنا السبب.

ممزقًا كنت بين حزني عليه، وشعوري بفقدانه الذي لا يعوَّض، وذلك اليتم الذي يجعل الآخرين ينظرون إليك بعطف مذل، وبين رغبتي في إخفاء الجريمة.

لم أكن أريد أن أعاقَب، أو أن يعرف أحد. كنت أجبن من المواجهة، كنت في الثانية عشرة.

تسللت إلى غرفة المكتب في أول فرصة. قبل أن يدفَن حتى، بحثت عن الورقة التي كتبتها. سرعان ما وجدتها، مزقتها إلى ألف قطعة ورميتها في سلة المهملات. كما لو أني أريد أن أخفي كل ما له علاقة

بما حدث واهمًا أن ذلك سيخفف من وطأة الأمر علي. تعاملت مع الأمر كما لو أني كسرت بالخطأ مزهرية كريستال في صالة الضيوف وأخفيتها خلف الدولاب.

https://t.me/MktbtArab

بحثت لأيام عن نظرة اتهام أو لوم في عيني أمي، لا شيء، لا شيء سوى دموع أرملة فجِعت بفقدان زوجها وهي في السادسة والثلاثين، وعندها أربعة مراهقين. أو ثلاث مراهقات وواحد على وشك أن يدخل مراهقته، وهي لا تعرف ما الذي يحمله على ظهره.

سألتها بعد أيام، بالتفصيل، عما جرى بينهما من أحاديث في «الأيام الأخيرة».

لا شيء، لم يخبرها، الحمد لله.

لم أكن أعلم، ليته فعل، ليته أخبرها. لو فعل لكان جزء من الثقل قد أزيح عني. كان أحدهم سيخبر الغبي الذي في الثانية عشرة أنه ليس السبب، أنه المكتوب على الجبين، أنه قرار التقاعد الظالم، أنه الاستعداد الوراثي الذي قتل جدي وهو في الخامسة والخمسين. أي شيء. حتى لو كان كذبًا. أي شيء.

لكن لا شيء. لم يقل لي أي أحد أي شيء لأني لم أخبر أحدًا بما حدث، أو بما تصورت أنه قد حدث.

دخلت المرحلة الدراسية والعمرية الجديدة وأنا أحمل ذنبي على ظهري. كل شيء تغير فيَّ. لم أعد الطالب الأكثر تفوقًا، لا الأول ولا الثاني ولا الثالث ولا الرابع. أحيانًا ولا حتى العاشر. فوق المتوسط، بلا تميز من أي نوع. ينجح ويحصل على درجة الإعفاء، وكذلك يحصل أكثر من نصف طلاب صفه في إعدادية « كلية بغداد».

في هذه المرحلة أيضًا دخل الأرق، ودخلت معه حبوب الفاليوم التي ستتطور بالتدريج البطيء إلى ما لا تريدون معرفته. وبدأت نوبات الغضب الغامض من دون أي استفزاز أحيانًا، وبدأت موجات الاكتئاب التي تسقطني إلى القاع دون سبب واضح.

وبدأ أيضًا الكره لنفسي. أصبحت أكره نفسي. كنت واعيًا لهذا الكره، أذكر مرة وأنا في الصف الرابع الإعدادي، في ليلة القدر، وأنا أدعو الله باكيًا أن يخلِّصني من نفسي، أن أموت لأتخلص من هذا الشخص الذي هو أنا. كنت في السادسة عشرة.

من الخارج كنت أبدو بخير، بل كنت أبدو ناجحًا. دخلت الطب وتخرجت فيه وتخصصت في الجلدية وأعيش في دبي في العصر

الذهبي للبوتوكس والفيلر. حياة سبع نجوم كما قال سرمد مرة. لكن الحقيقة هي أني تخرجت في الطب «بالعافية»، وحصلت على مقعد في دبلوم الجلدية لأنه التخصص الوحيد الذي قبلت فيه لأن «الجلدية» -قبل انتشار البوتوكس- لم تكن تخصصًا متنافَسًا عليه. وإن دخول البوتوكس رغم أنه ضاعف من دخل أي طبيب جلدية، فأنا ضاعف مشكلاتي مع نفسي، مريضاتي غالبًا فنانات درجة ثالثة يرغبن في تكبير صدورهن أو أجزاء أخرى من أجسادهن، أو أخريات يقلن إن وظيفتهن هي (موديل)، ولكن طلباتهن لا توحي بذلك إطلاقًا، أو زوجات مترفات ضجرات يرغبن في استعادة اهتمام أزواجهن. حتى في أفضل الحالات وأنظفها، أشعر أني أساهم في التزييف والتتفيه.

تدهورت الأمور أكثر وأكثر بعد أن بلغت العمر الذي توفي فيه والدي، قبل ذلك كنت أهبط السلم درجة درجة، بعدها أصبح درب السقوط مثل منزلق سريع بلا شيء أتشبث به.

لا أرغب حقيقة في أن أقول لكم إلى أين وصلت. سيفزعكم إلى أين وصل «الأول» على صفكم، السادس أحمر.

أنا في مكان ما في اسطنبول، متروك فيه كشيء، أحاول أن أمسك زمام الأمور في حياتي.

وهذا المنشور الطويل الذي أزعجتكم فيه، هو جزء من هذه المحاولة.

إذا كنتم قد وصلتم إلى هنا، فأشكركم على حسن إنصاتكم.

أشعر أني أفضل بالفعل».

HTTPS://T.ME/MKTBTARAB

-24-

لأول مرة، ربما في كل حياته، شعر سرمد بالتعاطف تجاه وليد.

ليس التعاطف فقط، بل دهمه شعور غامض أنه ربما ساهم فيما وصل إليه وليد.

ذلك التنافس المحموم الذي كان سرمد طرفًا أساسيًّا فيه، لا بد أن يكون له دخل فيما حدث لوليد.

في سياق آخر، كان سرمد سيشمت بما وصل إليه وليد. كان سيقول: ألم أقل لكم؟ وليد ركيك وضعيف. هو الأول بالواسطة فقط. المعلمات في الابتدائية كن يجاملن والده الطبيب المشهور.

لكن الآن، وبعد ما كتبه وليد، وجد سرمد مشاعره في موقف مختلف تمامًا. ألم وشفقة وتعاطف وحزن.

تأمل في أسطر وليد الأخيرة. *مكان ما في اسطنبول، متروك فيه كشيء، لا أريد أن أخبركم إلى أين وصلت.*

وليد في مصحة، بالتأكيد هو في مصحة. هكذا فكر سرمد.

هنا ساد الخوف على مزيج المشاعر، بل الفزع.

وليد في المصحة، وفيصل كذلك. كان دائمًا ما يفكر أن فيصل فيه من ضعف وليد وركاكته. لكن هذا كان جزءًا من انتقاداته الحادة لفيصل، حتى لو كانت بينه وبين نفسه فقط. لكن الآن، والمصحة تضمهما معًا، كلٌّ في قارة، ما كان يمكنه إلا أن يفكر في أن الأمر ليس بالصدفة حتمًا. وهو أكبر من (من

https://t.me/MktbtArab

عاب ابتُلي) بالتأكيد. فكر في أنه ربما كان عقوبة من الله. الله؟ أحيانًا يشعر أنه لم يحسم موقفه منه. لديه موقف من كل شيء، رأي في كل شيء، لكنه تجنب دومًا أن يكون له هذا الشيء مع الله. وقف على مسافة من اتخاذ أي قرار. يصوم رمضان ولكن لا يصلي. ليس واثقًا تمامًا من أنه «مؤمن» تمامًا. لكنه واثق تمامًا من أنه ليس بملحد. هو في منطقة مختلفة، ربما كانت ناتجة عن رفضه للخضوع والاستسلام. ناتجه عن أناه المتضخمة باستمرار.

الان، في هذه الحالة، وهو يستعد للذهاب إلى فيصل، وجد نفسه في انكسار كبير.

ليست الهزيمة والإحراج الذي شعر بهما يوم تخرج فيصل.

بل انكسار أكبر أمام حقائق الحياة.

فكر مع نفسه: هل هذا هو انتقامه؟ هل ينتقم الله من موقفي منه؟ أم هو مجرد حصادي؟ أم هو الانتقام على شكل الحصاد؟

حاول أن يكتب تعليقًا على منشور وليد. كتب عدة كلمات مواساة تقليدية، ثم محاها. حاول أن يكتب شيئًا مختلفًا، خصوصيًّا. كان على وشك أن يكتب أن وحيده فيصل مدمن وحاول الانتحار وهو في مصحة. ثم قرر ألا يعلِّق بأي شيء.

وضع علامة «أحزنني» فقط.

وكان صادقًا في هذه العلامة.

***

كانت ريم تأخذ قهوتها الصباحية عندما وضع وليد منشوره في المجموعة. ليست «صباحية» تمامًا، بل في استراحتها بين المرضى. عادة بين الحادية عشرة والثانية عشرة. الشاي هو الصباحي فعلًا. قبل أن تخرج من البيت، شاي حقيقي، عراقي بالهيل، ومصنوع حسب الأصول العراقية عبر (سماور) تركي اشترته من النت.

قهوتها تركية، كما كانت تشربها أمها. خمسة وعشرون عامًا في أمريكا لم تغير ذلك ولم تجعلها تتعود على القهوة السريعة بالكوب الورقي التي يهرول بها الأمريكيون كل صباح. لو كانت في نيويورك، لربما تعودت على ذلك. لكنها في كاليفورنيا، من حقها الاستمتاع بفنجان قهوة حقيقي، ليس هذا

فقط، بل كانت تقلب الفنجان كما كانت تفعل أمها بالضبط، وكانت تتأمل في الرسومات الناتجة عن قلب الفنجان وتحاول أن تجد لها معاني. أم دريد قالت لها عدة مرات إن قراءة الفنجان حرام. أمها استشاطت غيظًا عندما عرفت بذلك. أصبحت تتأكد من أن ريم تقلب فنجان القهوة بعد أن تشربها كما لو أن ذلك علامة الولاء. وكانت أم دريد مهمة لريم، وكلامها مقنع ومدعوم بفتاوى دينية، لكنها لم تكن تجرؤ على مخالفة أمها. حتى الآن، بعد وفاتهما، أمها وأم دريد، لا تزال تقلب الفنجان، تتحكم أمها بها من بُعد، لديها جهاز ريموت في قبرها، أو زرعته في أعماقها. لا تجرؤ على خيار لم يكن ليرضي أمها.

كانت ريم بمزاج جيد إلى حد ما، صحتها جيدة بالنسبة إلى مريضة تصارع في الجولة الأخيرة من السرطان. حاولت أن تعرف إن كان هذا الوضع الجيد يشير إلى أن (وقتها سيكون أطول) من المتوقع. كان السؤال ساذجًا، ولم يكن هناك جواب لسؤال كهذا. عدا هذا، كانت ريم مستمرة في محاولات التوفيق بين ديانا وأسامة، وكانت تعتقد أن الأمر يسير على ما يرام.

لم ينشر وليد قبل ذلك شيئًا، وكان هو الأقل في التعليق على أي منشور في المجموعة، لذا عندما رأت منشورًا طويلًا يحمل اسمه قررت أن تقرأه فورًا ما دامت في فترة استراحتها. كان لديها فضول أن تعرف أكثر عنه، كان المتوقع منه أكثر بكثير مما حققه، هذا كان واضحًا جدًّا بالنسبة إليها.

عندما انتهت من القراءة كانت تبكي بحرقة. بصوت مسموع جعل كيم تدخل لتسألها إن كانت بخير.

لم تكن تعرف وليد جيدًا. ابن صفها لست سنوات لكنه لم يكن يتحدث كثيرًا. كان مهذبًا وهادئًا، كان الأول غالبًا بلا منافس، لكن منافسته كانت محترمة، وليست لئيمة مثل منافسة سرمد. لم تره بعد الابتدائية، عرفت أن والده توفي لأن هذا كان خبرًا اجتماعيًّا منتشرًا، دخل هو كلية الطب في جامعة أخرى، الموصل أو الكوفة أو في محافظة أخرى لم تعد تتذكر، وكان هذا خبرًا غريبًا بالنسبة إليها. لم تكن تعرف أن المستوى الدراسي لوليد تدهور، ولم تكن تعرف أي حالة مشابهة، عادة يحدث تحسن في المستوى الدراسي، في نتائج امتحانات الثالث المتوسط توقعت أن يكون اسمه في القائمة التي تكرَّم وتعلَن في الصحف والتلفزيون. لم يحدث. توقعت أن يحدث ذلك في (البكالوريا)، ولم يحدث، ثم عرفت أنه بالكاد دخل الطب في واحدة من المحافظات.

الآن فهمت السبب. أي حملٍ هذا الذي حمله! لماذا لم يتحدث؟ لماذا لم يطلب النجدة؟ بكت على الطفل الذي تحمل كل شيء، لكن الرجل كان عليه أن يتصرف مع ما حدث بطريقة مختلفة، أم أن ما حدث جعل الطفل هو الذي يبقى بحيث يعوق وصول الرجل؟

تساءلت ماذا كان سيحدث لها لو كانت مكانه. السرطان غالبًا. يبدو أن لكلٍّ طريقته في التعامل مع ما يتعرض له. فوجئت بهذا الذي وصلت إليه. سرطانها كان نتيجة ماذا بالضبط؟ لم تفكر جديًّا في الأمر من قبل. كانت منشغلة بمحاربته. الآن يبدو السؤال منطقيًّا. تعرف تمامًا أن الدراسات لم تثبِت علاقة مباشرة حاسمة بين التعرض للضغط النفسي والإصابة بالسرطان. الأمر غير محسوم. لكنها متأكدة أن سرطانها كان بسبب الضغط. السؤال هو أي ضغط منهم؟ أمها كانت تؤكد أنه «ضغط دريد وأمه». عندما انتزِعت السلطة من والده، أصبحت أمه تعتبر هذه العائلة أس كل المصائب. أمام الناس كانت أمها تقول إنه «ضغط العمل، ظهرها مكسور على المرضى طيلة النهار».

كانت ريم تعرف أن دريد ليس السبب. وأمه ربما كانت من مؤخِّرات ظهور السرطان.

ضغط العمل؟ مشكلات بالفقرات بالتأكيد. لكنها تبقى مستمتعة ما دامت النتائج مرضية للمرضى. لن تكون مرضية لها تمامًا. هذا موضوع آخر. لكن لن نصل إلى السرطان.

الآن مع ما كتبه وليد، وما تحدثت عنه هبة قبل مدة، رأت ريم السبب بوضوح. وليد قال لها إن الموضوع يجب أن يكون قديمًا. وهبة قالت إنه بدأ مع أمها. في لحظات ضعفها هذه التي نتجت عن بوح وليد، استعادت كل شيء. لم يكن في حياتها صدمة كبيرة كالتي مر بها وليد، لكن كان لديها عشرات الصدمات الصغيرة المزمنة التي تراكمت في خلاياها وتناسلت لتصبح سرطانًا بعد أكثر من أربعين عامًا من بدء الصدمات. شعرك. أسنانك. ضحكتك. وقفتك. جلستك. مشيتك. غباؤك. غباؤك. غباؤك. يا غبية. يا غبية. شكلك. ذوقك. ظهرك. جسمك. طريقتك في الكلام. غباؤك. نحسك. حظك. غباؤك. فشلك. فشلك.

يوم أعلِنت نتائج الثانوية، كانت ريم الثالثة على المدرسة، بمعدل 97 %، وكان يمكنها أن تدخل أي كلية ترغب فيها. كان الكل يتصل للتهنئة

والمباركة، وكانت ريم سعيدة جدًّا بالنتيجة، إلى أن انفردت بها أمها في السيارة بعد استلام النتائج. سودتِ وجهي. سودتِ وجهي. طايحة الحظ. لم تفهم ريم أولًا سبب سواد الوجه. اعتقدت أنها ربما قالت شيئًا لا ينبغي أن تقوله بينما المدرسات يباركن لها، ثم اكتشفت أن أمها ليست راضية عن الـ 97 %، لماذا هناك طالبتان أعلى منك؟ ما الذي عندهما وليس عندك؟ يومها تجرأت ريم وقالت لها لماذا إذن كان معدلك أنت 75%؟ تلقت صفعة فورية في السيارة. كان المفترض أن يكون يومًا من أسعد أيام حياتها. كذلك تلقت صفعة وكلمات مماثلة في يوم تخرجها في الكلية، ويوم زفافها.

يمكن أن يكون هذا كله لا علاقة له بالسرطان، ويمكن أن يكون، لكنه بالتأكيد كان جزءًا من الجروح التي كوَّنتها.

بدأت بالبكاء على جروح وليد، وانتهت بفتح جروحها.

يا فاشلة يا فاشلة.

دخلت كيم وسألتها وهي تتفرس داخل وجهها كما لو أنها تريد معرفة سبب البكاء: «مستر أوبادا في الانتظار».

تقول أوبادا كما لو أنه شقيق أوباما. اسمه عبادة.

عليها أن تبدو أمامه كما لو أن لا زلزال قد مر بها للتو.

يا فاشلة.

ثم وضعت وجهًا باكيًا على منشور وليد.

***

ربما كانت تارا هي الأكثر تأثرًا بما كتبه وليد.

كمتخصصة في الأدب قرأت الكثير ودربت ملكاتها على التفاعل مع الكلمات المكتوبة بطريقة تجعلها تميز بين التجارب الحقيقية المكتوبة بصدق، من قلب مكسور، وبين الصنعة الأدبية المتقنة.

وكان منشور وليد من النوع الأول بلا شك، ولهذا تركت دموعها تنساب بلا تحفظ. كان لديها محاضرة بعد قليل، لكنها لم تكترث، ستدخل بوجهها وآثار الدموع عليه. لو كانت في العراق لتهامس الطلبة فيما بينهم.

https://t.me/MktbtArab

شجار مع الزوج. ربما هو لم يستطع الذهاب إلى العمل أصلًا. إلى آخر النكات المستهلكة. غالبًا لا توجد ملاحظات كهذه هنا. أو هكذا كان يحلو لها أن تعتقد.

بكت تارا تأثرًا بما كتبه وليد، ولكن ما كتبه حفر في جروحها أيضًا، فتح أدراجًا كانت قد تصورت أنها بمفتاح لا نسخة له ورمت به في قاع المحيط. لكن منشور وليد فتحها وبعثر محتوياتها.

بالنسبة إليها، ورغم قساوة ما مر به وليد، فقد كانت لديه لحظة معينة، حددها هو بالساعات، بين الساعة الخامسة والتاسعة من أمسية يوم معين، لحظة معينة حملها على ظهره طيلة هذه السنوات.

أما هي فلحظتها استمرت لسنوات، بل بقيت نهايتها مفتوحة بلا حسم، منذ أن استيقظت ذات صباح لتجد أن أمها قد غادرت دون وداع. لم يخبرها والدها قط أنها لن ترجع. تركها تفهم ذلك وحدها. ورفضت أن تفهم. رفضت بعناد مراهق حتى أن يخطر ذلك في بالها. لم يجلس معها والدها ليشرح لها ما حدث. أو ما عليها أن تتوقعه. كان يقول لها إنها ستعود عندما يزول الخطر الأمني عليها. ربما كان يعني أنها لن تعود أبدًا، لأنك عندما تصنَّف «معاديًا» في دولة البعث، فمن الصعب إزالة هذا التصنيف. ربما كان هذا مقصده. لكن الطفلة التي على وشك أن تدخل مراهقتها لن تفهم هذا. تريد أمها، تريد أي شيء منها، من رائحتها، أي خبر، مكالمة، رسالة، أي شيء. لكن لا شيء، لا شيء غير وعود غامضة من أبيها، وكلام حاد من عمتها عن أمها (الغادرة).

في البدء كان الشوق والافتقاد. هي في كركوك، وستأتي. لكنها تأخرت. تفتقدها كما سيفتقد أي طفل أمه.

ثم كان الإنكار. لا يعقَل أنها تركتها. لا بد أنها اعتقلت. لا بد أن والدها يحاول أن يخفي عنها هذا الخبر. لو كانت في كركوك حقًا لذهبوا لزيارتها. لا بد أنهم اعتقلوها. لا بد أنهم جاؤوا في الليل واعتقلوها ولم تستيقظ هي.

ثم كان الحزن. اعتقِلت أو سافرت. في الحالتين، هي حزينة. لا شيء سيعوضها عن أمها.

ثم كان الغضب، لماذا تركتها؟ لماذا كان عليها أن تكون معارضة للحكومة؟ لماذا على أمها هي أن تدخل في السياسة والأحزاب؟ كيف تترك أم طفلتها من أجل حزب سياسي؟

https://t.me/MktbtArab

ثم كان الكره المرير، لأمها، ولنفسها، ولصدام، وللحزب الشيوعي، ولحزب البعث، ولجريدة طريق الشعب، ولكل الجرائد، للاتحاد السوفيتي، ولأمريكا، ولدول عدم الانحياز أيضًا، ولكل من يظهر في الأخبار، للعالم كله. لا شيء يستحق أن يحَب في هذا العالم القبيح الظالم.

ثم جاء الاستسلام، ليس القبول، بل الاستسلام. هناك فرق. استسلمت لحقيقة أن أمها تركتها وأنها لن تعود. لم تقبل. كان هناك شيء ما في أعماقها لم يستطع إلا أن يترك شقًا صغيرًا من الباب مفتوحًا. ربما يحدث شيء وتدخل أمها فجأة من الباب.

لو أن أمها ماتت، لكان الأمر انتهى هناك، عند قبرها. كان سيصبح عليها أن تتعامل مع حقيقة حاسمة نهائية غير قابلة للنقاش. لكن مع هذا الذي حدث، كان الأمر مشوشًا ومؤلمًا ومربكًا ومليئًا بجروح لا تندمل.

استغرق الأمر، من الشوق والافتقاد إلى الاستسلام، قرابة أربع سنوات. أربع سنوات من الحيرة. لم تنته الحيرة بعدها، لكنها صارت أقل أهمية. تراكمت الجروح غير الملتئمة على الحيرة حتى صارت ضمادًا منتنًا.

تفكر أحيانًا، لو أن عائلتها كانت تؤمن بدين ما، لربما قدم هذا الإيمان نوعًا من المواساة، لربما ربت على كتفيها واحتضنها، لربما استطاعت أن تبكي وهي تصلي كما يفعل أولئك المؤمنون.

لكن لا. الحقيقة الوحيدة هي المادة، وعليك أن تتدبري أمورك وحيدة.

ظلت غير متأكدة أساسًا إن كانت أمها معتقلة، أو ماتت تحت التعذيب، أو أنها سافرت فعلًا، إلى أن أخبرها والدها بعد ذلك بسنوات طويلة، عندما قال لها وهو ثمل، أن والدتها قد طلبت الطلاق، وأنه طلقها بالفعل.

لم يكن من عادة والدها أن يسكر في البيت. لكن التاسع من نوفمبر عام 1989 كان يومًا استثنائيًا. جلس والدها أمام التلفاز وهو يتفرج على مشاهد سقوط جدار برلين، كان يوم الخميس. فتح قنينة فودكا وأخذ يشرب وهو يسب الخائن جورباتشوف الذي جندته المخابرات المركزية الأمريكية لينفذ مخططاتها ويتحدث عن المؤامرة الرأسمالية ضد نضال الشعوب والطبقة العاملة. كان قد كف منذ فترة عن استخدام هذه الكلمات، لكن سقوط الجدار فك لسانه المربوط خوفًا من الحكومة. كان من الواضح أنه لا يزال مؤمنًا بكل شيء.

https://t.me/MktbtArab

ثم التفت إليها، كما لو أنه تذكر فجأة، وقال لها: «لقد طلقت أمك. طلبت الطلاق وطلقتها».

تصورت أن هذه الجملة تكونت وتشكلت وقيلت تحت تأثير السكر.

قالت له: «بابا. لقد شربت كثيرًا. هذا يكفي».

قال لها: «تعتقدين أني أهذي؟ اذهبي إلى المكتب، في الحقيبة السوداء، اقرئي قرار المحكمة الشرعية».

ذهبت مسرعة وهي لا تعرف إن كان عليها أن تفرح لأنها على قيد الحياة أو تحزن لأنها كذلك.

فتحت الحقيبة ووجدت القرار بالفعل. مؤرَّخ قبل ثلاثة أشهر. آب 1989.

عادت والقرار بيدها والصدمة تكاد تشلها. سؤال واحد فقط تمكنت من طرحه. كيف تواصلت معك؟

لكن والدها كان يتحدث عن نظرية جديدة مفادها أن أم جورباتشوف قد حبلت به من الزنا مع جندي أمريكي. وزوجته كذلك، رايسا جورباتشوف، لا بد أنها عشيقة للرئيس الأمريكي رونالد ريجان، أو للسفير الأمريكي في موسكو، وهو الأكثر احتمالًا حسب والدها تحت تأثير الكحول.

بعد سنوات، وعندما سافرت إلى السويد، اتصلت بها أمها. والدها هو من أعطاها رقمها. كانت أمها قد انتقلت إلى هولندا بعد أن تزوجت بعراقي يعيش هناك. كان معهم في الحزب، لكنها لا تذكره ولا تذكر أن اسمه مر يومًا على مسامعها. كان الاتصال قصيرًا جدًا، طلبت منها أن تلتقيها لأنها ستأتي إلى ستوكهولم.

فقالت لها تارا إنها لا تعيش في ستوكهولم بل في أبسالا، وإنها منشغلة جدًا ولا يمكنها أن تأتي إلى ستوكهولم. المسافة بين المدينتين لا تتجاوز سبعين كيلومترًا، لكن تارا لم تكن متأكدة أنها كانت تريد اللقاء فعلًا. في النهاية وبعد ضغط من سالار وافقت. التقت أمها التي لم ترها منذ خمسة عشر عامًا في مقهى صغير ملحق بمحطة بترول خارج أبسالا. حاولت أمها أن تحتضنها لكن تارا لم تبادلها المحاولة. كان القطار قد ترك محطة المشاعر منذ مدة طويلة. لم تستطع تارا أن تتفاعل مع المحاولة. ربما كانت والدتها على قيد الحياة. لكنها، هي، تارا، لم تعد كذلك. شيء ما مات في داخلها منذ سنوات طويلة. لم تستطع أن تنظر إليها عينًا بعين. تجنبتها.

تحدثت والدتها عن محاولاتها الكثيرة للتواصل، عن الهدايا والرسائل والصور التي أرسلتها، التي تعمد والدها أن يخفيها عنها. لم تكذّبها تارا. والدها يفعل ذلك وأكثر. لكن فات أوان الفهم والتفسير. الجثث لا تعود إلى الحياة. شعرت تارا بالغثيان في أثناء اللقاء وذهبت إلى المرافق الصحية وأفرغت معدتها. انتهى اللقاء خلال أقل من أربعين دقيقة، ولكن كل دقيقة منه كانت تخنق تارا حرفيًّا. لو أنها التقت امرأة غريبة في محطة البترول وعلى نحو عابر، لكانت ألطف بكثير. لكن هذه المرأة لم تكن غريبة فحسب، بل كانت المرأة التي تركتها في فراشها ذات ليلة دون أن تودعها.

في طريق العودة إلى أبسالا طلبت من سالار أن يوقِف السيارة، كان الغثيان أقوى من قدرتها على الاحتمال.

وقفت على جانب الطريق وتقيأت مجددًا.

استمر الحال لأيام، وعندما ذهبت إلى المستشفى اكتشفت أنها حامل بنوزاد.

كانت على وشك أن تكتب تعليقًا لوليد تقول له: ماذا فعلت بي يا وليد؟

ثم أحجمت عن ذلك.

حان وقت المحاضرة.

***

حاولت سوسن جهد إمكانها ألا تتأثر بما كتبه وليد. كانت لا تزال مرهقة مما حدث مع سعيد، ثم زاد إرهاقها مع صدور الحكم لصالحه صباح اليوم. أخيرًا، بعد سبع سنوات، وافقت المحكمة على طلب اللجوء الذي قدمه سعيد غني مزدهري، وأسقطت عنه حكم الترحيل، وكان من المفترض أن يغادر مركز حجز اللاجئين خلال أسابيع.

مهنيًّا، كانت قد أدت واجبها على أكمل وجه. من الناحية القانونية كان سعيد غني مزدهري طليقًا لا يحتاج إلا إلى بعض الإجراءات الشكلية لكي يخرج إلى نور الشمس.

لكن الحياة أكثر تعقيدًا من كل تفصيلات المواد القانونية وتشعباتها.

وكان سعيد غني مزدهري في ثلاجة ما، بانتظار الدفن.

https://t.me/MktbtArab

حاولت ألا تتأثر بما كتبه وليد. كانت مخلصة في محاولتها رفض التعاطف معه، ليس مع وليد شخصيًا، بل مع أي تجربة يمكن أن تشعر أنها قد تنافس تجربتها الشخصية.

حدث لها ذلك مع ما كتبته تارا أيضًا.

شيء ما في سوسن كان يقول لها إن كل ما حدث للآخرين لا يصل إلى عشر أو واحد بالمائة مما مرت به. ما حدث لها، لعائلتها، ولمن كان معهم في تلك الرحلة، يجب أن يكون على القمة في الظلم. هم الرقم واحد في الظلم الذي تعرضوا له. لا، هم على المراكز الثلاثة الأولى في قائمة الأكثر اضطهادًا، أو العشرة الأولى، هذا يبدو أكثر انسجامًا. تعودت على أن تفسر كل ما حدث للعراق بعد تسفيرهم كما لو أنه «حوبة» ما حدث لها ولعائلتها. كانت تتخيل أحيانًا، في طفولتها، أن كل من في العراق كان قد فرح بتسفيرهم أو شمت بهم، وبالتالي فكل ما حدث للعراقيين هو جزء من عدالة «كما تدين تدان». جزء من الجزاء من جنس العمل. جزء من العدالة الإلهية التي نراها أحيانًا في الدنيا قبل الآخرة. حاولت كثيرًا تجنب العراقيين أو الاستماع لقصصهم أو مآسيهم التي حدثت لهم. كانت تتجنب التوكل في قضايا لجوئهم. لن يكون ذلك مهنيًا بالنسبة إليها. شيء ما في بقايا جروحها الشخصية كان يجعلها غير محايدة معهم. كانت تدرك تمامًا أن مشاعرها ليست صحية وأنها نتيجة طبيعية لوضع غير طبيعي، وكانت تدرك أيضًا أن أغلب من تعرفهم أو عرفتهم من العراقيين لم يكونوا راضين بما حدث لهم من تسفير، ولكنهم جميعًا كانوا مغلوبين على أمرهم أمام السلطة التي تعتبر أي تردد في تنفيذ الأوامر خيانة تستحق الإعدام. لكن ما كان سهلًا على سوسن الطفلة أن تفهم ذلك.

منذ أن دخلت المجموعة وهي تراجع مشاعرها تجاه العراقيين، كل العراقيين. وليس فقط أعضاء المجموعة.

بالتدريج، بدأت تفهم أن الكل قد (شال شيلته)، بطريقة ما، ربما بنسب مختلفة بين فترة وأخرى، لكن الكل حمل حمله على ظهره ورأسه. لم يحتكر أحد التعرض إلى الظلم. كأس ودارت على الجميع.

أرادت أن تقول شيئًا عن ذلك على المجموعة، لكنها عدلت عن ذلك.

فتحت الوتس وكتبت لشقيقها لؤي: «عندما يكون وقتك مناسبًا أخبرني. أريد أن نتحدث».

https://t.me/MktbtArab

-25-

تمنى يعرب لو أن وليد لم يذكر أنه وصفه ذلك الوصف. أبو دميعة. قالها مع أمه. ولم يكن يعرف أن هناك «تصويرًا بالفيديو»، وكان طفلًا. في العموم، يذكر يعرب أن هذه كانت نظرة عامة عن وليد، وإن كانت «هامسة» بين الأولاد، ولم تصل، حسب ذاكرة يعرب، إلى الإهانة العلنية لوليد أو السخرية منه في وجهه، أي التنمر بلغة اليوم. لماذا التنمر وليس التكلب مثلًا؟ أو التأسد؟ لا أحد يعلم.

بكل الأحوال، فوجئ يعرب بأن والد وليد مات في اليوم نفسه. سمع طبعًا بوفاة والد وليد بعد فترة، لكنه وعائلته عمليًا كانوا قيد الإقامة الجبرية منذ تلك الليلة لمدة تزيد على الأسبوع، مع قطع الهاتف، ومنع أي أحد من الدخول -باستثناء رجال الأمن الذين فتشوا البيت عدة مرات وقلبوا عاليه سافله- لذلك فلا يمكن ليعرب أن يربط بين تأخر والد وليد ليلتها، ومعلومة (وفاته) التي عرفها لاحقًا، ربما بعد شهر، وكان والده هو قد أعدِم -أو مات تحت التعذيب- ثم صدر عليه الحكم بالإعدام، في أثناء هذا الشهر.

لكن ما عاناه وليد مع ما حدث في تلك الليلة لحياته كلها، ذكَّره بأنه حمل الليلة أيضًا على ظهره. لقد عاش طيلة حياته، إلى عام 2003، وهو محاط بصور قاتل أبيه في كل مكان. كل مكان حرفيًّا. في السنوات الأولى كانت الصورة في الأماكن الرسمية والمدارس. في كل صف كانت هناك صورة رسمية معلقة فوق اللوحة. ثم بدأت الصور تغزو الجدران وتتحول إلى جداريات ضخمة تطارده في كل مكان لتكتم أنفاسه. أحيانًا يفكر أن نجاته من الجنون كانت أمرًا معجزًا. ثم يتذكر أن الآلاف من أبناء المعدومين شاهدوا صورة قاتل أبيهم وهي

https://t.me/MktbtArab

تطاردهم لتكتم أنفاسهم بالضبط كما تفعل معه. من يقول إنه نجا من الجنون؟ أو إنهم نجوا؟ ربما جننا جميعًا، أو أُصِبنا بعاهات نفسية عميقة. لا المجنون يعي جنونه، ولا المعقد يشخص عقدته. على الأقل ليس قبل استفحالها.

في بداية الأمر، كان يعرب يتخيل صورة والده مكان صورة القاتل، الصورة المعلقة نفسها في غرفة المعيشة، الصورة المبتسمة بوسامته الأنيقة دونما مبالغة. يضعها في خياله في إطار مذهب ويضع على جانبها شريطًا أسود مائلًا. بعد فترة أصبح الأمر لا معنى له. الصور في كل مكان لدرجة أصبحت تثير سخرية الجميع. سخرية صامتة طبعًا. أصبحت الصور تعتبر علامات دالة على الشوارع. لا تدخل في الشارع الذي فيه الصورة وهو يرتدي البذلة البيضاء، ولا التي يرتدي فيها الزي العربي. ستأتيك صورة له وهو فوق الحصان. ادخل في هذا الشارع. ما كان سيضع صورة والده الأنيق في هذا الموضع المثير للسخرية. أصبح يكتفي بألا ينظر إلى تلك الصور. أنعم الله عليه بنعمة التجاهل. يشيح بنظره عنها فلا يعود لها وجود.

في المدرسة، خصوصًا في السنوات الأولى، كان الوضع لا يخلو من مضايقات من قِبل صغار البعثيين الذين يعتقدون أنهم يثبتون ولاءهم للحزب والرئيس عبر إزعاجه. هل أخبركم والدك أنه كان يتآمر على القيادة؟ كم دفعوا له؟ كان يرد بشراسة كما لو أنه لا يزال ابن المسؤول الحزبي والوزير المهم. بل ربما أشد. كان ألطف قبلها. الآن صار عدائيًّا. في مرة كاد أن يكسر أنف أحدهم. في مباراة لكرة القدم في المدرسة، سبه وضمنًا سب والده. كانت مسبة عادية ومقبولة ضمن سياقات المراهقين وهم يلعبون كرة القدم. لكن يعرب أمسكه وأشبعه ضربًا على وجهه. كان يمكن أن يتطور الأمر لغير صالحه. بيد أن إدارة المدرسة كانت متفهمة. سمعة والده الطيبة ومساعدته للناس خلقت نوعًا من التعاطف السري المكمم المغلوب على أمره.

قبل أن يحصل كل ذلك، كان يفترض أن يدخل في إعدادية كلية بغداد. المدرسة الأهم في العراق، التي يوضع فيها أولاد المسؤولين. عدي وقصي صدام حسين كانا فيها، وكذلك كل أبناء الوزراء، متفوقين كانوا أو ناجحين بالواسطة. أما أبناء عامة الشعب فيجب أن يكونوا من المتفوقين ليتمكنوا من دخولها. الآن كان واضحًا أن ذلك لم يعد مناسبًا. حوَّل خاله أوراقه إلى إعدادية المنصور للبنين.

https://t.me/MktbtArab

التحدي الأكبر بالنسبة إلى يعرب في السنوات اللاحقة لم تكن الصور التي استطاع أن يطور آلية لتجاهلها، بل كان اضطراره إلى كتابة المديح والثناء لقاتل أبيه في مادة الإنشاء. كان يكتب المديح المكرر المعتاد ويتحدث في أثناء ذلك مع والده، يطلب منه السماح على ما يكتب، وكان والده يرد بغمزة عين. كما لو أنه يقول له إن لا أحد يصدق ما يقال بأي حال من الأحوال. التحدي الآخر كان اضطراره، كما الجميع، إلى التصفيق في كل مرة يأتي فيها اسم القاتل في أثناء تحية العلم. كان يصفق كما يفعل الجميع، ولكنه في أثناء ذلك كان يلهي نفسه بسبه وآبائه واحدًا واحدًا طيلة مدة التصفيق. أقذع أنواع السباب والشتائم. كان غالبًا يصل إلى الجد العاشر، وأحيانًا الثاني عشر.

على أي حال، خلال أربعة عشر شهرًا مما حدث، دخل العراق الحرب مع إيران، وبدأت النعوش تأتي من الجبهة، نعوش ملفوفة بالعلم العراقي. في البداية شعر بنوع من الغيرة، نعش والده لم يلَف بالعلم العراقي. رغم أنه أحب العراق أكثر من أي شيء في العالم، بل لم يسمح لهم حتى بإقامة مجلس العزاء. ولكن مع تزايد النعوش وزحف السواد على النساء، أصبح يشعر أن العراق كله جالس في عزاء أبيه. كل النعوش هي نعش أبيه. كل النسوة اللواتي يرتدين السواد كن يرتدينه من أجل أبيه. منعوهم من إقامة مجلس عزاء لأبيه، لكن العراق كله تحول إلى مجلس عزاء.

كان يعرب لديه قناعة راسخة لا سبيل إلى تغييرها، يفسر بها ما حدث، وبمعزل عن عدم وجود وثائق حاسمة تؤيد قناعته، كان يعرب واثقًا تمامًا من تفسيره لما حدث. الخميني يطيح بشاه إيران في شباط فبراير 1979، الشاه كان شرطي أمريكا في المنطقة، والإطاحة به تجعل المنصب فارغًا، والإعدامات التي نفِّذت بحق قادة الجيش من أعوان الشاه جعلت الجيش الإيراني في حالة ضعف، صدام يعتقد أن أمامه فرصة سانحة لشغل منصب شرطي الخليج، وهو يعي أن ذلك لن يكون سهلًا دون إزاحة البكر وكل من يمكن أن يعارضه في هذه المغامرة المجنونة. وكل هذا حدث عبر تمثيلية «استقالة البكر» ومن ثم تمثيلية «المؤامرة» التي خلصته من كل من يمكن أن تكون عنده احتمالية للتفكير في معارضة قرار الحرب.

بقيت أمه تقول في دعائها، لسنوات طويلة: «ربِ، أرني اليوم الذي تأخذ فيه ولديه الاثنين، في يوم واحد، وفي حياته يا رب».

وتحقق هذا الدعاء بالتفصيل. قتِل عدي وقصي في يوم واحد، وفي حياة والدهما.

https://t.me/MktbtArab

ذهب يعرب يومها إلى أمه. كانت هادئة بلا أي أثر لفرح أو شماتة. في النهاية لقد قتلهما الأمريكيون. كانت تتمنى لو أن ذلك حدث بطريقة مختلفة.

قال لها: «أمي، اليوم هو 8 / 8».

أجابته: «نهاية حرب إيران تقصد. نعم».

قال لها: «وأحكام إعدام قاعة الخلد صدرت أيضًا في 8/ 8».

رفعت حاجبيها مستغربة. صمتت لثوانٍ. القدر يجبرنا أحيانًا على أن نقول «سبحان الله» بأكثر مما يفعل أي منظر طبيعي ساحر أو خطبة مليئة بالمواعظ.

ثم قالت بحزم كأنها تذكرت شيئًا: «لكن صدام لن يتأثر. ليس لديه قلب أصلًا لكي يتأثر».

لا شيء سيغير معاناته التي مر بها يومًا بيوم طيلة هذه السنوات. كل ما حدث انطبع عميقًا في كل شيء في داخله. أمه تهزه بشده وتقول له لا تبك، إياك أن تبكي. أنت الرجل الآن. ممنوع إقامة مجلس للعزاء. صور قاتل والده في كل مكان. التصفيق عندما يأتي اسمه. «حفظه الله ورعاه» تقال بعد كل مرة يقال فيها اسمه. والدك خائن. كم دفعوا له؟ هل أخبركم بمؤامرته؟ منجزات القائد، إعدام الخونة.

كل هذا ترك آثارًا عميقة عليه. لكنه لم يتحدث مع أحد بها من قبل. لم يرجع من المدرسة ليخبر أمه بما حدث. لم يخبرها كيف يتعامل مع الصور، مع الشعارات، مع الهتافات، لم يدرب شقيقتيه على ما يمكن أن تفعلاه لكي تقل المعاناة.

الخوف من وجود أجهزة تنصت في البيت جعل كلًّا منهم يخوض التجربة بمفرده، مثل جزيرة منعزلة عن العالم.

الآن، بعد ما كتبه وليد، يشعر أن هناك ما يمكن أن يفعل.

خرج من المكتب وذهب إلى بيت والدته، ليس هذا وقت زياراته المعتاد، فتحت له الخادمة الإندونيسية الباب، «ماما في غرفتها»، من باب البيت كان يصل إليه صوت ما تستمع أمه له. نشيد «شعلة البعث صباحي» من على اليوتيوب في هاتفها. دخل عليها. كانت محرجة قليلًا من اكتشاف أمر شعلة البعث صباحي»، كما لو كانت مراهقة ضبطها والدها وهي تتحدث مع ابن الجيران. أغلقت النشيد.

سألها وهو يمسك بيدها: «تحنين يا أمي؟».

- طبعًا أحن. كفرت به لفترة، لا أنكر ذلك، اعتبرت أن كل شيء كان مؤامرة منذ البداية، لكن لاحقًا هدأت وتوازنت. لقد آمنا فعلًا بمبادئ الحزب، كنا مخلصين له، وكنا نريد أن نحقق أهدافه، لم نكن ملائكة طبعًا، ارتكبنا أخطاء كبيرة، لا شك في ذلك، لكن ما حدث لاحقًا كان شيئًا مختلفًا. لقد اختطف الحزب. الحزب الذي أحن له حزب آخر غير حزب الثمانينيات وما بعدها. وصدام أعدم من البعثيين أكثر مما أعدم من أي حزب آخر. لكن لا أحد يتحدث عن هذا الآن.

- لا تحتاجين إلى الشرح والتبرير يا أمي. أنا أيضًا أحب هذه الأغنية بالذات.

- جميلة وتذكرني بأيام مختلفة. ما الذي جاء بك الآن على أي حال؟ هل هناك شيء؟

- أمي، يجب أن نتحدث.

- أسمعك.

- الأشياء في السنوات الخمس والأربعين الماضية حدثت بسرعة، لم نجد الوقت الكافي للحديث عما يجب فعله.

نظرت إليه نظرة استغراب: «هل تسمع نفسك؟».

ضحك يعرب.

- أمي، أريد أن أقيم مجلس عزاء لأبي. أريد أن أقف وأستلم العزاء فيه. أضع صورته كبيرة ومحاطة بالعلم العراقي. كل عمري وأنا أريد أن أفعل. أحسد من يموت أبوه ويستطيع أن يقف في عزائه، أريد أن أنهي هذا الأمر.... وأيضًا أنت يجب أن تفعلي ذلك، تأتي رشا وداليا وخالتي سناء وبناتها وكل من تستطيع أن تأتي وتجلسن جميعًا في عزاء أبي. كما كان يجب أن يحدث قبل 44 عامًا.

سكتت أمه وهي تستقبل ما يقوله. بدت على وجهها علامات القبول.

***

بعد أن قضى ثلاثة أيام في العناية المركزة، انتقل محمد عبد الجبار إلى وحدة العناية الانتقالية، الخطر المباشر زال، والرقابة أقل تشددًا، لكن لا يزال يحتاج إلى عناية قبل الانتقال إلى الوحدة العامة. كانوا جميعًا بجانبه، بشار

https://t.me/MktbtArab

وعمار وسما، لكن لا يمكن دخول أكثر من شخصين في وقت واحد. هالة وضعت غطاء الرأس كما لو أنها تريد أن ترسل إليه رسالة معينة. أو ربما الرسالة لنفسها قبل أن تكون له.

طلب هاتفه. رفضت هالة أولًا. تعليمات المستشفى لا تمنع ذلك إلا قرب بعض الأجهزة الحساسة. لكن تعليمات هالة هي السارية الآن. قال لها إنه أفضل الآن ولكنه سيشعر بتحسن أكبر لو سمع سورة الرحمن. ماطلت قليلًا قائلة إنها نسيت هاتفه دون شحن وعليها أن تشحنه أولًا، ولكن الشاحن ليس معها. مجموعة الحجج التي يستخدمها المراهقون أمام أمهاتهم لتبرير أن الهاتف كان مغلقًا عندما اتصل بهم.

بعد ساعتين جلبت الهاتف ومعه سماعة الأذن. فتح سورة الرحمن بصوت وليد إبراهيم. قراءة عراقية حزينة لكنه يحتاج إليها. ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾.

شعر بالراحة. نادى هالة. جاءت مسرعة.

سألها: «ما معنى disclosure بالعربي؟».

قالت له: «أعرف ماذا تعني الكلمة، لكن ماذا تقصد؟».

- أريد أن أعرف ترجمتها أولًا.
- أعتقد تعني كشفًا، أو كشف المستور، أو مكاشفة.
- نعم، مكاشفة، هذا هو.
- هذا هو ماذا؟
- أريد أن أعمل «مكاشفة» لك.
- الآن؟ في وحدة العناية الانتقالية؟
- لا، ليس بالضرورة. لكن آن أوان المكاشفة.

ثم أمسك يدها وقال: «أحتاج إليها بقدر حاجتي إليك. وأكثر من حاجتي إلى العناية الطبية».

-26-

شاشة الزوم مقسمة إلى أربعة أقسام.

وليد في المربع العلوي الأيمن، بجانبه مربع يظهر رفاه، أصغر شقيقاته التي تكبره بعامين.

المربع الأيمن السفلي فيه رنا، كبرى شقيقاته، وفي المربع الأيسر رغد.

كن متشابهات بطريقة لافتة للنظر. لم يكن كذلك في طفولتهن. مع الوقت تغيرت ملامحهن بطريقة غريبة، كما لو أن الزمن قد زاد من توحدهن معًا. كانت رنا هي الأكبر سنًّا والأكثر اهتمامًا بمظهرها. شعرها مصفف دومًا بعناية محترفة تعودت عليها من سنوات معيشتها في دبي، ولم تتخل عن ذلك عندما انتقلت إلى المملكة المتحدة. شعرها يتغير لونه باستمرار. ومكياجها لا يغادر وجهها في أي حال، عدا إذا ذهبت إلى مجلس عزاء. طبيبة نسائية وتوليد. أم لثلاثة كلهم أطباء (والحمد لله)، وجدة لثلاثة، ستعمل أن يكونوا أطباء أيضًا. واحد من الأبناء اسمه خالد.

رغد هي الثانية، الأكثر شبهًا بأمهم. الخدان نفسهما اللذان كانا علامة مميزة لأمهم وخالاتهم. موقفها من المكياج هو الموقف المعاكس من موقف رنا. في يوم زفافها، توسلت إليها أمها أن تضع قليلًا من حمرة الشفاه، تقريبًا لم توافق إلا بالتهديد والإكراه. أمها هددت إنها لن تحضر العرس دون وضع القليل من المكياج. اختصاصية جراحة أطفال. سنوات دبي لم تزدها إلا إصرارًا على موقفها. ولم يتغير ذلك ولو قليلًا عندما انتقلت إلى كندا، رغم أن الجالية العراقية هناك تعيش في وضع يجعل كل ما له علاقة بالمظاهر في

المراتب الأولى من الاهتمام. بنتان وولد. الأولى تدرس الطب في جامعة أوتاوا. الثانية تخرجت في الهندسة الصناعية، والآن تدرس الماجستير. والولد يبحث عن شغفه منتقلًا بين ثلاثة تخصصات حتى الآن. حفيد واحد من المهندسة. اسمه خالد أيضًا.

رفاه هي الثالثة، الوحيدة التي لا تزال في دبي، طبيبة أسنان، ترتدي الحجاب منذ عشرين عامًا. مكياج خفيف جدًّا. ثلاثة أبناء كلهم دخلوا المجموعة الطبية. طب وطب أسنان. حفيدة واحدة. وأكبر الأولاد اسمه خالد. أمها تعيش معها وهي تعتني بها منذ أكثر من عشر سنوات.

عندما ولِد وليد، بعد ثلاث بنات، كان يفترض أن يكبر ليكون سندًا لشقيقاته. لكن ما حدث كان أنهن هن السند له. كان الذكر، والأصغر، لذا دللنه جميعًا بشكل طبيعي، ثم تيتم وهو الأصغر، فحصل على العطف والاهتمام. كلهم تيتموا، لكن لأنه الأصغر ولأنه (الولد المنتظر) الذي سيحفظ اسم الوالد، فقد كان يتمه مختلف المعايير عن معاييرهن. ساهمن هن أنفسهن في هذا التمييز، كما ساهمت أمهن.

بقي الأمر هكذا. لا يتدخل فيه زوج ولا تؤثر عليه تكوين عائلة لكل منهن. وعندما اختطِف ابنه خالد في بغداد، تنازلن جميعًا عن حصصهن من بيت والدهن وبيع البيت لكي تدفَع الفدية التي طلبها الخاطفون إنقاذًا لحياة خالد.

طلب وليد اليوم اجتماع الزوم هذا.

يجب أن يكن جميعًا فيه.

كان القلق باديًا عليهن.

سألت رنا: «وليد، أنت بخير؟».

- الحمد لله. بخير. طبعًا تعرفون أين أنا الآن. لكن بخير، مع الأخذ بالاعتبار أني في المصحة.

قالت رنا: «أنا on call بعد تقريبًا ساعة».

وكانت تقصد أن يدخل في الموضوع مباشرة.

قال وليد: «أريد أن نتحدث في شيء كان يجب أن نتحدث عنه قبل سنوات طويلة. أربعون سنة على الأقل».

https://t.me/MktbtArab

سكتن جميعًا وهن ينتظرن أن يكمل. على وجوههن كان هناك سؤال: ما هو الذي كان يجب أن نتحدث عنه قبل أربعين سنة.

أكمل: «16/ 7/ 1979».

بدت المفاجأة عليهن. كانت هناك ثوانٍ بدا على رفاه أنها لم تربط التاريخ بشيء. رنا ورغد فهمتا التاريخ قبل أن يقول السنة.

قالت رغد: «لحظة»، واختفت لثوانٍ، ثم ظهرت وأشارت إلى علبة المناديل. قالت: «سأحتاج إلى هذا».

قالت رنا: «كنت أعرف أني سأضطر إلى مسح مكياجي».

رفاه بقيت ساكتة. لكن بدا أنها ستكون أول من ستذرف الدموع.

- أريد أن نتحدث عما نتذكره عن هذا اليوم.

ساد الصمت لثوانٍ، ثم تحدثت رنا.

- كنت مع رسل ورفيف وغادة. احتفلنا بظهور نتائج البكالوريا قبل أسبوع. رسل كانت قد حصلت على إجازة السياقة. لكن أمها لم تكن تسمح لها بسياقة السيارة وحدها، فكانت تخرج معها. ذهبنا إلى مطعم (وهبي) في المنصور. أكلنا آيس كريم كان المطعم مشهورًا به. في أثناء وجودنا كان الرئيس البكر يلقي خطابًا على التلفزيون، لكننا لم ننتبه إلى أنه استقال أو تنازل عن الرئاسة. رجعت البيت نحو الثامنة والنصف. بابا كان في غرفة النوم. لم أنتبه إلى وجود شيء غريب. تفرجت قليلًا على التلفزيون، ثم صعدت إلى غرفتي. سمعت صوتًا بدا لي أنه صوت بابا في الحمام. ذهبت إلى الحمام. كان واقفًا عند المرحاض، وهو يتقيأ. كان هناك أثر قيء على الأرض أيضًا. وقفت بجانبه وسندته وبدأت أنادي ماما. لم تسمعني في البداية. مسحت وجهه بالماء. كان لا يزال واقفًا. سندته ورجعنا في طريقنا إلى غرفة النوم. خطوتان وسقط على الأرض ولم أستطع منع ذلك. في أثناء ذلك جاءت ماما. تحدثت معه ونادته باسمه ولم يرد. مسكت يده لتقيس النبض، وحاولت فتح عينه. كانت متماسكة جدًّا، قامت فورًا واتصلت بالإسعاف. أعطتهم العنوان وهي هادئة وصلبة. ثم قامت بشيء فهمت منه أنها اعتبرت أن الموضوع خطير.

سأل وليد: «ماذا فعلت؟».

https://t.me/MktbtArab

- اتصلت بعمو فؤاد. قالت له خالد في الإسعاف. فهمت أن الأمر خطير لأنها ما كانت ستتجاوز القطيعة بينهما لولا أن الأمر كذلك. لقد فكرت أن بابا قد يموت، وحاولت أن تصلحه على أخيه في الوقت الضائع.

- ماما فعلت ذلك؟ لا أذكر هذا.

سألت رفاه وقد بدا من صوتها أنها بدأت بالبكاء. لم يظهر ذلك واضحًا على وجهها عبر الزوم.

- نعم، وعندما جاءت الإسعاف، صعدت معه، ثم قالت لهم انتظروا، نزلت من الإسعاف، ركضت إلى البيت ووضعت قميصًا كيفما اتفق على ملابسها. كانت ترتدي السواد على جدو خليل، وتشاءمت من ذلك، فكسرته فورًا بقميص فوق ملابسها، في حر تموز.

كانت رنا تبكي الآن بوضوح.

- حاولت أن أصعد معها إلى الإسعاف ولكن قالت لي أن أنتظر في البيت. انتظرنا ولم يأت أحد. اتصلت بعمة لمياء وبخالة لمعان التي لم تكن تعرف أي شيء بعد. كل من نتصل به يذهب إلى المستشفى ولا يتصل بنا. قبل منتصف الليل جاءت عمة لمياء ومعها عمة صفاء. فهمت دون أن تنطقا بكلمة أنه مات.

قالت رفاه: «أنا لم أفهم. بقيت أسألهما وهما تبكيان وتشهقان بالبكاء، وأنا لا أفهم. ماذا حدث؟ كيف هو بابا؟ وهما تبكيان بصوت عالٍ. مات. قالت عمة صفاء بين دموعها. وأنا أقول لها لا يمكن. لقد تقيأ فقط. لا أحد يموت لأنه تقيأ. احتضنتني عمة لمياء وقالت لي مات مات. وفهمت. عندما سقط أرضًا، سمعت صوتا لم أفهمه، كنت في غرفتي أقرأ مجلة الموعد وأسمع إذاعة مونتي كارلو. لم أهتم بالصوت لكن عندما سمعتك تصرخين منادية أمي،خرجت من غرفتي راكضة، لم أكن مقتنعة أصلًا أن الأمر يستحق الإسعاف. سيكون بخير أكيد».

قالت رغد: «أنا كنت في المطبخ عندما جاء من الخارج، أعتقد أنه أوصلك إلى مكان ما. دخل المطبخ، فتح الفرن، كان هناك صينية فيها «كبة حلب»، أخذ واحدة وأكلها وقال إنه سيصعد لينام. لم أره بعدها. كنت في الحديقة عندما حدث كل شيء».

ثم قال وليد: «الآن جاء دوري».

حكى كل شيء. الرسالة، ما كتبه فيها، اعتقاده الراسخ أنه قتل أباه منذ تلك الليلة وحتى سنوات طويلة لاحقة، بحثه عن الرسالة وتمزيقه لها كطريقة لإخفاء دليل الجريمة، خوفه أن يكون والده قد قال شيئًا لأمه عن الأمر وتحقيقه معها عن ذلك.

المربعات الأربعة على شاشة الزوم كانت تبكي بأكملها.

رنا وضعت يدها على جبهتها كما لو أنها تسند رأسها كي لا يسقط. كل مكياجها ساح وصار الكحل خطين مائلين على وجهها.

رفاه كانت تجفف دموعها وأنفها باستمرار. كانت أمها تقول لها ألا تبكي لأن فمها يصبح مربعًا عندما تبكي. الآن أصبح فمها مربعًا بالفعل.

رغد كانت تبدو مذهولة، كما لو أنها تفكر في شيء آخر، أو كما لو أنها فهمت أخيرًا أشياء كثيرة كانت عصية على التفسير بالنسبة إليها. أخيرًا وجدت الحلقة المفقودة في حياة شقيقها وليد.

قالت رنا: «هل أنت غبي يا وليد؟ هل اعتقدت حقًا أنك قتلت بابا بسبب هذه الرسالة؟».

- لست غبيًا. كنت في الثانية عشرة.

- ولماذا لم تتحدث معنا آنذاك؟ لماذا لم تطلب النجدة؟ لماذا تركت نفسك حبيس هذا الذي حبست نفسك فيه؟

- لأني خفت.

- خفت من ماذا؟

- خفت من أمي، منكن، من الجميع، خفت من اللوم، أن أعيش طيلة حياتي وأنا أتحمل لوم الجميع.

- ففضلت ألا تدق جدار الخزان؟

قالت رفاه ذلك وهي تعرف تمامًا أنه سيفهم قصدها بالإشارة.

- كنت في الثانية عشرة. لم أكن أعرف أني في الخزان!

سألته رنا مجددًا: «طيب، بعد سنة، سنتين، لماذا لم تتحدث؟».

- لم أكن قد فهمت ما فعلته بإخفاء الأمر. لم أفهمه إلا لاحقًا عندما بدأت العلاج النفسي.

قالت رنا كأنها تكلم نفسها: «لماذا لم تتحدث لي؟».

https://t.me/MktbtArab

- لأني خفت. كنت صغيرًا وبعدها دخلت في المراهقة. خفت أن أفقد الجميع كما فقدته. لقد دمرت الكل. قتلته ودمرت الكل.

كان يصرخ تقريبًا.

سألته رفاه: «وليد، اهدأ. أنت تفهم الآن أنك لم تقتله، صحيح؟».

- ربما. لست متأكدًا. الجلطة قد تنشأ بساعات. فهذا ممكن.

- نعم، لكن الموضوع أكثر تعقيدًا. هو كان تحت ضغط بسبب ما حدث له. كل شيء كان ضاغطًا عليه، هل تعتقد أن رسالتك هي الرصاصة الموجهة للشريان الذي تسبب بالجلطة في دماغه؟

- كلماتي كانت صعبة، كانت بمنزلة تهديد بحبه لنا. ونريدك كما كنت كانت تعني أننا لا نريدك لو لم تعد كما كنت.

- لا، لا أحد يفهم الأمور هكذا.

- أنا فهمتها هكذا. وحملتها في صدري طيلة هذه السنين، وحدي.

قالت رغد فجأة: «كنت أعرف بأمر هذه الرسالة».

قالتها بشكل طبيعي جدًّا.

بينما اتسعت عينا رنا، عقدت رفاه حاجبيها.

وليد كان مذهولًا، سألها: «كيف عرفتِ بها؟».

- أبي أخبرني عنها.

- لماذا أخبرك أنت بالذات؟

- لأنني تحدثت معه في الموضوع. دخلت عليه المكتب وطلبت منه أن يقدم طلب مرحمة إلى والد يعرب، توسلت إليه أن يفعل. فسألني إن كنت متفقة معك على الموضوع وقال إنك أرسلت إليه رسالة بالفكرة نفسها، وأراني إياها.

- متى حدث ذلك؟

- قبل وفاته بليلة. مساء الأحد.

- هل كان متألمًا عندما تحدث عن الرسالة؟ هل بان شيء عليه؟

- وليد، أبي كان مهمومًا وقتها. ولا، لم يقل لي إن هذه الرسالة ستقتله، إطلاقًا.

https://t.me/MktbtArab

HTTPS://T.ME/MKTBTARAB

سألت رنا: «لماذا لم تتحدثي عن الأمر من قبل؟».

- أتحدث عن الرسالة؟ لماذا أتحدث أصلًا؟ ما خطر في بالي قط أن أخانا الحساس سيحمل هذا الحمل كله بسببها. لأنه لم يتحدث عن الأمر. كيف سيخطر في بالي -والمعذرة منك يا وليد- هذا الجنون؟ لم يقل شيئًا كي أقول أنا شيئًا.

وليد كان يجهش بالبكاء.

بين دموعه قال: «أنتِ أيضًا قلت له الشيء ذاته؟».

الآن لم يعد واضحًا إن كانت دموع فرح أم حزن. بدا له أنه وجد دليلًا على براءته أو على الأقل بوجود شريك له في الجريمة.

قالت رغد: «هل هذا يجعلني مشاركة في قتله؟».

هز وليد رأسه وهو يمسح دموعه ويضحك.

قالت رغد: «لو كنت أعرف أن هذا سيخفف عنك، ويحمِّلني نصف الحمل، وأتقاسم الجريمة معك، لقلت لك منذ البداية. لكنك لم تتحدث».

ثم أكملت: «يا جماعة، لم أفكر ولا مرة واحدة أني ربما أكون السبب في موت أبي، أو أني جزء من الأسباب التي أدت إلى موته، ولا فكرت أن رسالة وليد ممكن أن تكون قد قتلته. هل أنا عديمة الإحساس تمامًا أم إن وليد هو المفرط في الحساسية؟».

قالت رنا: «شيء من هذا وذاك بالتأكيد. معروف تمامًا أن إحساسك قليل».

قالت رفاه: «ماما كانت تقول إنك (إحساس سز) يا رغد».

أجابت رغد: «ذكرتِني صحيح. ماما كانت تقول إنك عندما تبكين يصبح فمك مربعًا. الآن انتبهت إلى أن ملاحظتها صحيحة تمامًا».

- أعرف، ملاحظاتها كانت دومًا صحيحة. بخصوص فمي، وبخصوص إحساسك.

سأل وليد: «لا أعرف ماذا أقول. هل تعتقدون أن ماما كانت تعرف أيضًا؟».

- بالتأكيد كانت تعرف.

- أكيد.

قالت رغد ورفاه.

- لماذا أنتما واثقتان هكذا؟

https://t.me/MktbtArab

- كان يخبرها بكل شيء.

- لكنني سألتها عن آخر حواراتهما ولم تقل أي شيء.

- غالبًا كانت تعرف حساسيتك وما كانت تريد أن تذكِّرك بالرسالة. فضلت أن تنساها ما دمت لم تذكرها.

سكت وليد وهو يفكر وقال كأنه يتحدث مع نفسه: «أمي كانت تعرف؟ معقول؟».

قالت رغد: «معقول جدًّا. ولم تعتقد قط أنك قتلته. لا أحد يمكنه أن يعتقد ذلك بالأساس. تحتاج إلى أن تكون مفرط الحساسية والتفكير ولديك استعداد كبير للشعور بالذنب لكي تصل إلى هذا الاستنتاج».

أضافت رنا: «وتكون في الثانية عشرة!».

سألت رفاه: «ماذا قال لك عندما قلت له أن يتقدم بطلبه؟».

تغير وجه رغد فورًا: «كنت قد استخدمت لفظ «المرحمة». أو «الاسترحام»، شيء كهذا. قال لي إنه لا يطلب الرحمة، بل العدل، وإنه سيطلبه بالفعل. سيحاول. لكنه كان واثقًا أن لا عدل في هذا البلد».

https://t.me/MktbtArab

-27-

جمعت ريم كل ذكرياتها، كل جراحها، كل عقدها، اللمفاوية وغير اللمفاوية، التي غزاها السرطان، والتي لم يصل إليها بعد، كل آلامها، كل أوجاعها، كل مخاوفها وهمومها وخططها وخيباتها، والبقية الباقية من أحلامها، وكل خصلات شعرها الذي تساقط ولم يبق منه شيء تقريبًا. جمعت كل ملائكتها، وأيضًا كل شياطينها. جمعت كل دروب السفر التي قادتها من بيتهم في بغداد إلى كاليفورنيا، وكل دروب السفر التي فرقتها عن إخوتها وصديقاتها وأقربائها.

وجمعت كل شجاعتها، وذهبت لتواجه.

تواجه أمها.

في الطريق إلى مقبرة (حديقة الجنة) الإسلامية التي تقع في هايورد على مسافة 50 كيلومترًا من سان فرانسيسكو، كانت تحاول أن تستجمع ما ستقوله لأمها. لكنها خافت وكادت أن تتراجع وتعود بسيارتها إلى سان فرانسيسكو. وضعت سورة يس وسمعتها بصوت إسلام صبحي. لم تكن قد سمعت به من قبل. قررت أن تحمِّل سورة البقرة بصوته، وتشغلها في البيت. كانت أم دريد تفعل ذلك دومًا.

في الليلة السابقة كانت قد تحدثت مع سوسن مطولًا، تحدثتا عما كتبه وليد وعن أن ما فعله كان عين العقل، وأنهما لا تمتلكان شجاعته في هذا البوح العلني الذي فعله، لكن المواجهة هي عين العقل.

HTTPS://T.ME/MKTBTARAB

قالت لسوسن إنها قررت أن تواجه. لم تخبرها ماذا ستواجه، لكنها قالت إن عليها أن تفعل ذلك.

قالت سوسن إنها تفكر في ذلك أيضًا، لكن لم تقل أي شيء ستواجه.

عندما وصلت إلى المقبرة ركنت سيارتها، واتجهت إلى قبر أمها. تزورها مرتين في السنة على الأقل. مرة في يوم ميلادها، 17 / 8، ومرة في ذكرى وفاتها، 22 / 11.

قرأت لها الفاتحة ثم جلست على حافة القبر. قرأت سورة يس، قرأتها بتمهل كما لو كانت تريد أن تؤخر المواجهة، تكسب بعض الدقائق. ثم قرأتها مرة ثانية بتمهل أكبر.

ثم قررت أن تبدأ.

حكت لها أولًا عن سرطانها الذي تجدد وعن انتشاره. وعن (يمكن علاجه ولا يمكن شفاؤه). قالت لها إنها بخير رغم ذلك. لا أريدك أن تقلقلي علي. أنا بخير.

ثم طلبت منها أن تسامحها فيما ستقوله لها. توسلت إليها أن تفعل.

ثم قالت لها كل شيء. قالت لها إنها حطمتها، ملأتها بجروح لا تندمل، جعلتها ضعيفة الشخصية، منعدمة الثقة بنفسها، بكل ما تفعله، بشكلها، بعملها، بصديقاتها، بخياراتها، بكل شيء. سردت لها بعض المرات التي وصمتها بالفشل والغباء فيما كان يفترض أن تبارك لها فيها نجاحاتها، وسردت لها مرات كانت بحاجة إلى دعم وحضن بعد انكسار وفشل، ولكنها لم تجد عندها غير اللوم والتقريع.

قالت لها إنها حرمتها من أي احتمالية لحب. ذكرتها بأسامة مصطفى، زميل دفعتها الذي اعتبرته أمها لا أحد، لمجرد أن أهله بسطاء. كل بسيط هو «لا أحد».

قالت لها إنها حولتها إلى شخص يحاول استرضاء الآخرين في كل شيء، يبحث عن قبولهم عبر المبالغة في العطاء والتضحية، بأكثر مما يريدون أو حتى يفكرون، لعل وعسى هذا يجعلهم يرضون عليها، يقبلون بها.

قالت لها إن هذا هو سبب طلاقها من دريد.

طلبت الطلاق منه لترضيه. لاحظت بعد أن أجرت عملية استئصال الثديين أنه لم يعد يقترب منها. طلبت منه الطلاق لكي تطلق سراحه منها. لم تخبره

قط أن هذا هو السبب. لم تخبر أحدًا بالأمر. لكنها كانت واثقة أنه يريد الطلاق ليتزوج بأخرى، وهكذا كان. اعتبرت أنها تضحي بزواجها لكي يرضى عليها.

وقالت لها إن أسوأ ما فعلته بها هو أنها جعلتها تمارس الكثير مما فعلته معها مع أولادها. اعتبرت أن هذه هي الأمومة، وأن هذا ما يجب أن تفعله.

أخبرتها أيضًا بأنها تعرف تمامًا بأن نيتها كانت طيبة، وأنها لم تقصد أي سوء، وأنها غالبًا تعرضت لشيء مماثل ونقلته لها، لم تقل لها إن رنا ومصطفى يقولان إنها مصابة باضطراب الشخصية النرجسية، هذا شأنهما إن أرادا أن يقولاه، لن تنقل الكلام هي.

قبل أن ترحل التفتت لها وقالت لها إنها سامحتها على كل شيء، مسامحة، وإنها تدعو لها بالمغفرة. لكن كان يجب أن تواجهها. كان لا بد من ذلك.

***

لقاء سرمد بفيصل كان أكثر عاطفية.

لم يكن سرمد يتوقع هذا، لم يكن مستعدًا له. هو في العادة شخص لا يظهِر عواطف، وبخاصة الحزن. لا يذكر أنه بكى يومًا، لا يعرف هذا الشعور بالأساس. حتى عند وفاة والده ووالدته. كان حزينًا بالتأكيد، لكن لا دموع. البكاء ضعف عند الرجال وسلاح عند المرأة.

لكن في اللحظة التي قال فيها فيصل «سامحني داد» تبخر كل ذلك.

انفجر سرمد بالبكاء وهو يحتضن فيصل المسجى في فراشه ويقبِّله من وجهه.

كان سرمد يقول: «بل أنت سامحني. أنا من يطلب السماح».

جفلت دانيا وتراجعت إلى الخلف وهي تشاهد ما لم يكن في حساباتها. لم تتوقع هذا قط. كان أقصى طموحاتها أن يلتزم والدها بعدم لوم فيصل وتقريعه.

لكن أن يطلب منه السماح وهو يبكي!

أن يقول: أنا من يجب أن يتلقى العلاج، وليس أنت.

أن يقبِّل يدَي فيصل وهو يقول سامحني، ثم يلتفت إليها ويقبِّل يديها هي أيضًا، ويقول سامحاني.

https://t.me/MktbtArab

حدث كل شيء بسرعة. تطلب من دانيا الأمر بعض الوقت كي تستوعب ما حدث. والدها -الذي لم تر له يومًا شبه دمعة- استمر بالبكاء على نحو هستيري.

أخذت تربت على كتفيه وتواسيه. فكرت: أبي يحتاج -بوضوح- إلى مساعدة.

قال مخاطبًا فيصل وهو مستمر بالبكاء: «سنتخطى هذا. سأقف معك. لن أتخلى عنك. تأكد من ذلك».

قالت دانيا وهي تحتضن والدها: «نعم أبي. سنتخطى ذلك. سنقف معك. لا تقلق».

***

كان محمد عبد الجبار قد أخرج من المستشفى، محملًا بوصايا لنمط حياة مختلف كان واثقًا تمامًا من أنه لن يتبناها. بينما استرخى على كرسيه في غرفة المعيشة جاءت هالة بكوب من الشاي كما يحبه. عراقي وبالهيل وثقيل دون تخفيف. عندما كان يمثّل المرض والأزمات الصحية كان يستمتع بالدلال. الآن، وقد أصبح الأمر جديًّا، يبدو التدليل محرجًا كما لو كان قد استلم سلفًا كل حصته منه.

قالت هالة: «إذن، كشف المستور؟».

هز رأسه: «نعم».

قالت فورًا: «أحب أن أقول لك شيئًا قبل أن تكشف أي شيء».

هز رأسه: «قولي».

أمسكت بيده وقالت: «مهما ستكشف، أنا مسامحة».

- ماذا تقولين؟ مسامحة؟

- نعم. مهما كان الشيء الذي ستكشف عنه.

- لا أفهم.

- أقول لك إنه مهما كان هذا الذي تريد الاعتراف به، فأنا أغفر لك.

- حقًّا؟

- نعم، لكن بشرط أن تعترف. لا تأخذ هذا السماح حجة لطي الصفحة.

- هل يمكن أن تعطيني فكرة بسيطة عن الشيء الذي في تصورك، عن المستور الذي سأكشفه؟

- مانشيستر.

- مانشيستر؟

- نعم، رحلة الربيع الماضي إلى مانشيستر.

- ماذا عنها؟

- أعتقد أن هناك شيئًا ما قد حدث فيها. وضميرك يؤنبك، وتريد أن تعترف.

حاول أن يتذكر ما الذي حدث في مانشيستر في الربيع الماضي كي تعتقد هالة أن هناك شيئًا ما -نسائيًا طبعًا- وتتصور أنه محور المكاشفة التي يريد أن يفتحها.

آه، نعم. البطاقة الائتمانية. أضاعها وحاول إخفاء الأمر عن هالة كي لا تقرعه. امتنع عن الرد على أي اتصال ثم أغلق هاتفه ريثما رتب الأمر.

- لم يحدث شيء في مانشيستر، ولا غير مانشيستر. الموضوع ليس في هذا الاتجاه.

- ليس في هذا الاتجاه؟

- إطلاقًا.

- حسنًا. أنا أسحب السماح إذن.

- تسحبين السماح على شيء لم يحدث؟

- نعم. حتى لا يكون هذا السماح مثل (بطاقة مرور) لفعل ما لم تفعله في مانشيستر.

ضحك محمد بشدة حتى أخذ يسعل.

- الأمر لا علاقة له بهذا يا هالة إطلاقًا. الموضوع لا يخصك مباشرة.

- هل ما تريد الكشف عنه أسوأ مما لم يحدث في مانشيستر؟

- لا أعرف كيف أرد. أخشى أن يكون هناك فخ في هذا السؤال.

- ما هو المستور الذي تريد كشفه يا محمد؟ قل بلا مقدمات.

وقال:

حكى لها عن علاقته المعقدة بأخيه الشهيد أحمد، وبأبيه.

عندما تزوجا كان أحمد قد استشهِد، وهكذا لم تعرفه ولم تلاحظ نوع العلاقة بينهما. علاقته بأبيه كانت متوترة. الأب كان دائم التذمر والسخط، لا يرضى عن شيء، وبخاصة إذا كان من محمد. لم يكن سيئًا معها، لم يسمِعها كلامًا مزعجًا قط، لكنه لم يكن مرتاحًا، ولم تكن تعتقد أن الأمر يخص محمد تحديدًا. كان بالنسبة إليها شخصًا صعب المراس حاد المزاج. هذه طبيعته فحسب.

من ناحيته، محمد كان يحرص غاية الحرص على الحصول على رضا والده. يبذل كل ما يستطيع في خدمته لحد التفاني. وكان والده يبدو كما لو أنه يتوقع ما هو أفضل من ذلك بكثير. لا تتذكر أنها سمعت كلامًا طيبًا منه بحق محمد، اللهم إلا في مرضه الأخير.

هذا رأته وكانت شاهدة عليه.

لكن ما لم تره هو السبب في كل هذا. الشهيد أحمد. لم تر غير صوره المعلقة في أكثر من مكان في البيت. واحدة منها كبيرة تتوسط غرفة الضيوف مع شريط أسود مائل.

حكى لها محمد أن شقيقه أحمد، بكر العائلة، كان مقدسًا عند والديه، ومقدسًا أكثر عند أبيه. ولِدت بعده ثلاث بنات، ومع كل بنت تأتي كانت قداسة أحمد تزيد. تحول من «الذكر الأول» إلى «الذكر الأوحد»، وهذا له ما بعده.

ثم جاء محمد، وكان من المتوقَّع منه أن يكون الأخ الذكر الذي يسند أحمد ويعينه.

لكنه جاء ليخيِّب كل التوقعات. على العكس من أحمد، قوي البنية، وافر الصحة، منفتح الشخصية، كان محمد ضعيف البنية، ركيك الصحة، هش الجسد والروح، كثير العلل والأمراض. أمه اهتمت به وأعطته الحنان والرعاية دونما حدود، لكن والده نفر من ضعفه. كان رجلًا نشأ في السوق وكبر في ورشات الحدادة، مفهوم الرجولة عنده ارتبط بالقوة الجسدية وبالشخصية الانفتاحية، وهذا بالضبط ما كان متوافقًا مع أحمد، ومفقودًا عنده. وهذا أيضًا زاد أكثر وأكثر من قداسة أحمد، كان الذكر الأول، ثم صار الذكر الأوحد، ثم صار الذكر الأفضل، الذكر-الرجل. الرجل الذي سيمسك المصنع والورشة ويستطيع والده أن يعتمد عليه. كان أحمد هو النموذج الذي قضى طفولته

https://t.me/MktbtArab

وهو يحاول أن يكونه. يدفَع دفعًا ليكون مثله. ترغيبًا وترهيبًا. لكن ذلك كان مثل محاولة تشبُّه فصيلة بفصيلة أخرى. تستطيع أن تتظاهر، أن تقلد، لكن ذلك لا يحدث حقيقة أبدًا. وإذا حدث جزئيًّا فهو يأتي مصحوبًا بتشوهات عميقة. كانت علاقته بأخيه أحمد في الطفولة علاقة حب وتقديس أولًا، ثم حب وغيرة، ثم أصبحت مزيجًا من الحب والكراهية. وتناقصت كمية الحب في هذا المزيج تدريجيًا إلى أن لم يعد متأكدًا من وجوده.

ما كان يمكن لشكل العلاقة أن يتغير كل هذا التغير لولا أن أحمد كان دائم السخرية منه، علنًا وسرًّا وبكل الأحوال، كما لو أن مكانته لا تكفيه، ويريد المزيد من المكانة عبر تصغيره هو. وكان أبوه يشارك في ذلك، للأسف. فقط أمه كانت تحاول موازنة الأمور، لكن البشر ينحازون إلى التأثر بما هو سلبي. للأسف أيضًا. كان محمد مثابرًا على محاولة التقرب من محمد. يعتقد أنه لو كسبه فإن الأمور ستتحسن. نظرته إلى نفسه ستتحسن، ونظرة والده إليه أيضًا. وكان أحمد مثابرًا على الصد والسخرية.

وفي لحظة شر يائسة، كان صد أحمد وسخريته أكبر من الاحتمال، وكذلك تأييد أبيه له، شكا ابن الثانية عشرة ما يحدث لربه. دعا على أخيه. دعا الله أن يكسره، أن يأخذه، أن يبقى وحده بلا منافس، فيكون الأفضل.

ثم بدأ يلاحظ وجود علامات على تحقق دعائه، علامات بسيطة ولكن بدت له كالمعجزة. حاول مع الوقت أن يكون الأفضل في مجالات لا ينافسه فيها أحمد. الدراسة والدين. لم يكن محمد متفوقًا جدًّا على أي حال. لكن التفوق على أحمد دراسيًّا لم يكن أمرًا صعبًا على الإطلاق. كذلك أمر الدين. كان أحمد بعيدًا عنه. مع الوقت أصبح لمحمد مساحة التميز الخاصة به، لا يزال أحمد هو المفضل بلا منازع بطبيعة الحال، لكن خفت محاولات محمد في التودد والتقليد، وخف كذلك الصد والسخرية. بينما تخرج أحمد ضابطًا في كلية الأمن القومي، له هيبته ومكانته وخوف الناس منه، موزعًا وقته بين وظيفته الأمنية ومتابعة شؤون المصنع مع والده، تخرج محمد بعد سنوات في كلية الإدارة والاقتصاد، قسم المحاسبة.

وفجأة، صدام يدخل الكويت في 2 أغسطس 1990، وأمريكا تقود تحالفًا دوليًّا لإخراجه منها. يوم 17 يناير كانون الثاني تبدأ الحرب، وتقصف إحدى المباني الرئاسية التي كان أحمد خافرًا فيها، ويستشهد.

https://t.me/MktbtArab

نزل محمد إلى القبر الذي حفِر لأحمد في مقبرة (محمد سكران) في الكرخ، مد يده ليستلمه مكفنًا ويسجيه في لحده، كان أولاد عمه يساعدونه، واحد منهم معه في القبر الضيق، واثنان على الطرف العلوي، على بعد متر كان والده يبكي وصوته واضح تمامًا: «انكسر ظهري. انكسر ظهري. راح الزين. راح الي عندي. ما عندي غيره».

عبارة (انكسر ظهري) ترددت عشرات المرات في أيام العزاء، التي أقيمت بعد انتهاء الحرب، لصعوبة إقامتها في أثناء الحرب.

وتذكر محمد ذلك الدعاء. في تلك الليلة.

ومن يومها وهو يحمل جثة أخيه فوق ظهره. ويحمل معها، داخل الكفن، علاقته المعقدة به وبأبيه.

قال لهالة كل ذلك.

كان وجهها ممتقعًا. حسنًا، هذا أفضل بكثير من أن يكون قد حدث شيء ما في مانشيستر. ولكن هذا أيضًا كبير ومعقد.

- محمد (عيني)، أنت تعتقد أن أحمد قد استشهد بسبب دعائك عليه؟ إذا كان هذا ما تعتقده فتأكد أن هذا يعني أن كل شهداء الحرب العراقية الإيرانية وحرب الكويت والحروب اللاحقة كلهم كانوا بسبب أن أحدهم دعا عليهم. الشعب العراقي كله كان سيذهب شهيدًا لو كان الأمر كما تعتقد. حتى الأمهات يدعين على أبنائهن، عمرك شاهدت أم شهيد تعترف بذلك؟ طبعًا لا. لأن لا أحد يأخذ هذه الكلمات بجدية، كلمات تقال ساعة غضب وعصبية وينتهي الموضوع.

- لا طبعًا، ما يقال في عصبية وغضب ليس كما يقال عند النوم في لحظة شر وحقد.

- تعال هنا، هل أنت جاد؟ هل تعتقد أن الله يستجيب للدعاء بهذه الطريقة العشوائية؟ ولد معقد بالسادس الابتدائي يدعو على أخيه والله يستجيب للدعاء ويجعل الحرب تقوم لكي يموت الأخ الذي دعا عليه؟ معقد؟ خلف الله عليك.

- هالة! معقد؟ نفسيتي! لقد خرجت للتو من المستشفى.

- الآن هذا ما يهمك؟ أني قلت «معقد»، كل هذا الذي تحدثت عنه وأنت معترض على كلمة (معقد)، إن لم تكن هذه عقدة فما هي إذن؟

https://t.me/MktbtArab

معها حق.

- عمومًا، الفكرة، لا تكبر الموضوع، أردت أن تخرج ما في صدرك وفعلت. لكن الموضوع عادي.

- هالة، أنا خائف على الأولاد.

- خائف عليهم من ماذا بالضبط؟

- أن تطلع (جوبة) أحمد فيهم.

- أنت لم تفعل شيئًا لأحمد. هناك طيار أمريكي قصف، وهناك شخص آخر، تعرف من، دخل الكويت وأعطى الحجة لدولة هذا الطيار كي تعطيه الأمر بالقصف. بينك وبين هؤلاء مليون شخص على الأقل يتحمل مسؤولية ما حدث لأحمد قبلك.

- لا أعرف. أنا أخوه، فطبيعي أن أتحمل جزءًا من المسؤولية.

- وكان من الطبيعي منه كأخ أن يكون سندًا لك، لأخيه الصغير. وهو لم يفعل. هو الذي بدأ بالتقصير. وكان لا بد لفعله أن يكون له رد فعل.

- ربما أنت على حق. لكن لا أستطيع أن أطرد الأمر من بالي. لقد دعوت الله بحرقة وليس مرة واحدة، وأخشى أن يحدث شيء مشابه للأولاد، تعرفين، يقولون، يا داعي إلك ثلثين الدعاء.

- لا هذا غير صحيح. هذا كلام أمثال لا أكثر ولا أقل.

- أفكر في الأمر كثيرًا. ربما أحتاج إلى أن أذهب إلى معالج.

- معالج من أجل أنك دعوت على أخيك وأنت في السادس الابتدائي؟ 100 باوند في الساعة؟ لا داعي. تصدق بها عن روحه أفضل. أو اعمل له عمرة أو حجة. وإذا أردت أن تتحدث عن الأمر فأنا موجودة وأسمعك دومًا. لكن الأمر لا يستحق الذهاب إلى المعالج. تأكد من ذلك.

لم يعد واثقًا من أنه فعل الشيء الصحيح بهذه المكاشفة مع هالة. ربما كان من الأفضل لو أنه ذهب إلى معالج نفسي مباشرة، لكنه رغم ذلك يشعر بأنه أزاح شيئًا عن صدره. هل هو يكبِّر الأمور فعلًا كما تقول هالة؟ هل إخراج صدقة عن روح أخيه سيسهل تعامله مع الأمر؟

قالت له كما لو أنها تقرأ أفكاره: «ربما كنت لا تعاني حقًّا بسبب هذا الذي قلته».

https://t.me/MktbtArab

- ماذا تقصدين؟

- أقصد ربما هناك مشكلة أخرى مرتبطة بعلاقتك بالمرحوم والدك والمرحوم أخيك. ربما أنت لا ترى سوى موضوع الدعاء، لكن هناك أشياء أخرى قد تؤثر فيك وأنت لا تستطيع معرفة مصدرها. ربما مساعدة مهنية، معالج نفسي أو شيء كهذا يمكن أن تنفعك.

للمرة الأولى ينتبه أن مشكلته ربما تكون بدأت قبل الدعاء بزمن طويل. وأن الدعاء كان نتيجة ليس إلا. الأضرار التي أصابته سبقت الدعاء. ربما تمسكه بفكرة الدعاء كانت للهروب من مشكلة عميقة أخرى. مع مشكلة الدعاء كان هو الظالم، المذنب. ربما فضل لا وعيه أن يتعامل مع هذه المشكلة بدلًا من مشكلة أخرى يكون فيها هو المظلوم.

- ربما تجد معالجًا بأقل من مائة باوند. سأبحث لك. تريد أن أصب لك شايًا آخر؟

- نعم. إذا أمكن.

https://t.me/MktbtArab

-28-

كتبت سوسن منشورًا في الصفحة.

«أولًا أحب أن أشكر من أنشأ هذه المجموعة. لا أعرف من يكون وقد شككت بالجميع تقريبًا. الآن لا أعرف من هو ولكني أشكره/ أشكرها.

أحب أن أشكر وليد. ما كتبه كان محفزًا على التفكير لدي، التفكير والمواجهة. وكما كتب هو مكاشفة حميمة أريد أن أكتب شيئًا مماثلًا.

أريد أن أعترف لكم، أني بقيت لفترة طويلة جدًا، سنوات طويلة، وأنا أكرهكم جميعًا. أكره كل من بقي في العراق، جملة وتفصيلًا. لم يحدث هذا فورًا. بل بعد وفاة والدي. أي بعد أشهر من التسفير. صرت أكره الجميع. أتذكر بنات صفي واحدة واحدة وأتخيل أن يحدث بهن جميعًا ما حدث لي. أذكر جيراننا وأتخيلهم وهم يترحلون كما رحلنا. مشاعر شريرة ولكنها مبرَّرة تمامًا. لا أخجل منها أبدًا، كنت صغيرة، في الثالثة عشرة عندما حدث كل شيء، ووجدنا أنفسنا مطرودين من بيوتنا، مجردين من كل شيء. كان من الطبيعي أن تنشأ عندي ردود أفعال نفسية تجاه كل ما حدث. تخيلت أن الجميع قد شمت بنا، وأنكم كنتم تتحينون الفرصة لتأخذوا بيوتنا. لم يكن هذا موقف الكل. كان الموقف الذي وجدت نفسي فيه، الموقف الذي سهَّل علي تحمل ما كان يحيط بي. كان الحقد هو مخدري ومسكن آلامي. وكلما سمعت عن مصيبة حدثت في العراق أو للعراقيين، كنت أقول هذه (حوبتي). هذه دعواتي. مع الوقت عرفت أني كنت مخطئة وساذجة في تصوراتي.

https://t.me/MktbtArab

وأن الكل كان مغلوبًا على أمره. لكن المعرفة لا تلغي تراكم المشاعر، والمشاعر لها ذاكرة.

في إيران، إلى أن خرجت، كان كل عراقي هو في (خانتي) نفسها، لذا لم يكن لدي مشكلة معه، وإن كنت أفضِّل تجنبه لكي أتخلص من نوبات حنينهم إلى العراق. لم أكن أحتمل هذا. عندما غادرت إلى أستراليا في أوائل التسعينيات، كان أغلب العراقيين هم من اللاجئين المتضررين من النظام بشكل أو بآخر، لذا كان تجنبي فقط من أجل تجنب نوبات الحنين إياها. لم أفهم قط لماذا يحنون إلى وطن أجبرهم على الرحيل عنه سواء كان عبر الترحيل القسري أو عبر سد كل منافذ العيش والكرامة. مع الوقت، زاد اللاجئون والمهاجرون، ولم يعد بإمكاني أن أضعهم في (خانتي) نفسها، وابتعدت. فضَّلت أن أتجنبهم. كنت أستغرب من قدرة أختي بان على الاندماج مع العراقيين (الآخرين) في ميونيخ كما لو أنها لم تمر بكل ما مررت به، لؤي كان أصغر سنًّا، ولا يتذكر الكثير، وعمله يحتِّم عليه التعامل مع الجميع. لكن بان! منطقيًّا كنت أفهم موقفها. ما دخل كل هؤلاء بما حدث؟ بعضهم لم يكن قد ولِد أصلًا. لكن عاطفيًّا كنت عاجزة، عاجزة تمامًا.

عندما وصلت إلي دعوة الانضمام إلى المجموعة، قبلتها فضولًا أولًا، ولكن كان هناك سبب آخر. الطفلة المراهقة في داخلي كانت لديها رغبة شريرة بأن تحمِّلكم كل ما حدث. أن تشعِركم بالذنب تجاه ما مرت به.

كنت أريد ان أنهي حسابًا قديمًا توهمت وجوده.

لكن دخولي المجموعة جعلني أتعرف إليكم من جديد، وأتعرف إلى نفسي أيضًا. اكتشفت أن الكل قد نال نصيبه من الحساب. البعض دفع سابقًا، والبعض دفع لاحقًا. والبعض دفع مرتين. لكن هذا الحساب يجعلنا في خانة واحدة شئنا أم أبينا. الهموم توحدنا بأكثر مما يوحدنا أي شيء آخر.

اكتشفت وجود كمية مختزنة من الحنين غير المستخدَم في داخلي. في مكان ما داخلي، كنت أملك شوقًا كبيرًا للوطن الذي طرِدت منه. تفاجأت حقًّا بنفسي وأنا أنتقل على اليوتيوب من ياس خضر إلى حميد منصور إلى ناظم الغزالي إلى سيتاهاكوبيان إلى مائدة

نزهت إلى إلهام المدفعي. شاهدت كل حلقات تحت موسى الحلاق، بل حمّلت الحلقة التي يقرأ فيها الحجي راضي الرسالة إياها إلى الحجية أم غانم وأصبحت أسمعها وأنا أقود سيارتي. أستعيد فيها طريقة أبي وأصدقائه في الحديث.

هل قلت إن الهموم توحدنا؟ نعم. الهموم والفن أيضًا.

لكن ليس هذا كل شيء، مواجهتي لن تنتهي عند اليوتيوب، بل ستكون هناك مواجهة أخرى، أصعب بلا شك، ولكني قررت خوضها.

سأذهب إلى بغداد، نعم، سأفعل ذلك. كنت أرفض أن أذهب إلى القنصلية العراقية في سيدني لإجراء توكيل، الآن سأذهب إلى بغداد. اتفقت مع أخي لؤي وحجزت كل شيء. لدي سفرة إلى دبي لتحضيرات ضرورية للعرس -أخبرتكم بأن ابني كامران سيتزوج هناك صحيح؟- وخلال ذلك سأذهب إلى بغداد. أعرف أنها تغيرت كثيرًا حتى عليكم، فكيف بالنسبة إلى من تركها قبل ذلك؟ أعرف أن الرحلة ستكون مؤلمة جدًّا، لكني أحتاج إلى أن أتصالح مع بغداد. أحتاج إلى أن أواجهها. أن أقول لها إني سامحتها. وأطلب منها أن تسامحني. أحتاج إلى أن أذهب إلى الكاظم، سلام الله عليه، أحتاج إلى أن أوصل سلام أمي له. أن أقول له إنها ماتت بحسرة زيارته. أن أكون من المظلومات اللواتي يمشين له. *كلجن يا مظلومات للكاظم امشن. عد سيد السادات فكن حزنجن.*

أحتاج إلى أن أفك كل أحزاني عنده. وعندي الكثير منها. مثلكم جميعًا.

وسأذهب إلى بيتنا بطبيعة الحال، مهما كان حاله محزنًا، علي أن أواجهه هو أيضًا. منذ أن خرجنا منه وأنا أفتقد الأمان. فقدت الأمان فيه، على بابه يوم طرقوه في الليل، لكن من يومها لم أجد أمانًا تحت سقف. حتى اليوم، إذا دق جرس الباب تنتفض في داخلي طفلة وتقول: لقد جاؤوا. أحتاج إلى أن أقف عند بابه حيث صادروا كل هوياتنا ومستمسكاتنا التي تثبت عراقيتنا. أحتاج إلى أن أقول للبيت إني قد عدت. أربعون عامًا مضت، لكني عدت.

وسأذهب إلى مدرستنا طبعًا، وسأحاول أن أذهب إلى السادس أحمر. بعد كل شيء، «السادس أحمر» هو الذي فجر كل هذه المواجهات.

https://t.me/MktbtArab

لا أزال أفكر فيمن منكم هو «السادس أحمر». شكرًا له/ لها بكل الأحوال.

بطبيعة الحال، لؤي يجهل هذه الأجندة. يعتقد أننا سنذهب لمتابعة موضوع البيت ومن ثم بيعه.

لو عرف نواياي لربما أصبح أقل حماسًا.

شكرًا وليد.

شكرًا لكم جميعًا».

بعد دقائق كتبت ريم: «أبكيتني يا سوسن يا حبيبتي».

ثم كتبت تارا: «أعتقد جاء دوري في الاعتراف. عندي أيضًا ما أقوله».

https://t.me/MktbtArab

-29-

في اليوم التالي وضعت تارا منشورًا في المجموعة.

«كما قالت الحبيبة سوسن، ساهم منشور وليد في تشجيعي على المواجهة.

ومثل سوسن، وربما مثلكم جميعًا، عندي ما أهرب منه، ما عشت كل حياتي وأنا أهرب منه.

ربما قلت لكم إن أمي كانت شيوعية. أبي أيضًا كان كذلك لكنه ترك الحزب مبكرًا، بينما أصرت أمي على البقاء. كانت أمي مطلوبة، وكما قلت سابقًا هربت من العراق دون أن تودعني. استيقظت ذات صباح وعرفت أنها سافرت. أولًا إلى كركوك وستعود، ثم بالتدريج فهمت أنها لن تعود. ولم تودعني ولم تتصل بي. لا شيء. مع الوقت أصبحت علاقتي بأمي معقدة جدًّا. أقصد مشاعري تجاهها. لأنه عمليًّا لم تكن هناك علاقة. بل ربما حتى كلمة معقدة تحتاج إلى تغيير. أصبحت كراهية فحسب. أكرهها لأنها تركتني. بهذه البساطة والوضوح. ولأن أمي كانت عربية، فقد خلطت بين كرهي لها وبين مشاعري القومية الكردية وبين انتمائي إلى القضية الكردية الذي زاد مع الوقت خصوصًا مع ما كان يحدث في كردستان، من حملة الأنفال إلى حلبجة. بالكردي الفصيح، تحولت مشاعر كرهي لأمي إلى كره للعرب، وساهمت جرائم النظام في ترسيخ الربط وزيادة كرهي لأمي وللعرب كلهم.

https://t.me/MktbtArab

في السويد تجنبت ليس العراقيين فقط، بل كل العرب. جئت لاجئة في أوائل التسعينيات، وكان هناك الكثير من العراقيين ممن جاؤوا في الفترة نفسها. لكني عزلت نفسي عن كل ما له علاقة بغير الكرد. لست عراقية. أنا من كردستان. جاءت وجبة أخرى من اللاجئين العراقيين بعد 2003، زدت من عزلتي ورفضي لهم. أغلبهم كانوا عربًا، وزاد الأمر حدةً مع مجيء وجبة اللاجئين الكبيرة بعد 2014، أغلبهم كانوا سوريين وعربًا. حتى إني انتخبت الحزب اليميني العنصري (الذي يخالف كل مبادئي وما تربيت عليه) فقط لأنه ضد اللاجئين، وأنا ضد اللاجئين لأنهم، ببساطة، عرب. أنا محرجة مما أقول الآن. لكن هذه هي الحقيقة.

خلال هذه الفترة التقيت أمي مرة واحدة فقط. جاءت لتراني من هولندا حيث تقيم إلى السويد، كان لقاءً سيئًا جدًّا. حاولت أن تبرر وقالت إنها كانت ترسل الرسائل وأبي كان يخفيها... إلخ. لكن لا فائدة من أي شيء. كرهي لها كان أكبر من أي تبرير أو تفسير. انتهى.

لكن كنت أعرف أن لدي خزينًا من المشاعر التي أحاول قمعها وكبتها. رغم كل تجنبي لكل ما هو عراقي عربي فقد كنت أحيانًا أضبط نفسي متلبسة بالحنين. أسمع في السوق لهجة بغدادية لسيدة كبيرة في السن فأتذكر جدتي الحنونة التي توفيت في الصف الخامس الابتدائي. دعيت مرة إلى حفل أقامته فرقة كورال عراقية تقدم أغاني تراثية. اسمها فرقة طيور دجلة. ضمن الحفل هناك أغانٍ كردية، لذلك ذهبت، دعمًا للقضية. لكن في اللحظة التي بدأت فيها الأغاني التراثية البغدادية بدأ قلبي يقرع مثل طبل. حاولت أن أستذكرْ جرائم الأنفال كي أخفف من انفعالي مع الأغاني. هذه الأغاني عربية، والعرب مجرمون. حلبجة. حلبجة. حلبجة. لكن في لحظة ما فقدت سيطرتي وتمايلت على كلمات عربية تمامًا. *أويلاه يابه. منهو علي جابه. ناسي ولا ببالي. هسة اجه كبالي.*

كان هذا ما حدث لي حرفيًّا. حتى سالار صدِم بتفاعلي. ردت *أنساك. تاليها نسيت الناس كلها وما كدرت أنساك. تالي وياك. أحس أعضائي كلها تموت وأجفل من يمر طرواك.*

شجعني ما كتبه وليد على مواجهة كل هذا. مشاعري الممزقة بين الكره والحنين. شعرت أن هذه هي فرصتي الأخيرة في المواجهة. أمي تجاوز عمرها الثمانين. إذا كانت هناك فرصة فهي الآن. بعدها ربما يفوت الأوان.

اتصلت بأمي. دعوتها للأمسية التي أشرف عليها. اقترب موعدها. ستأتي، وستبقى معي في البيت لأيام. أعد من الآن الغرفة التي ستنام فيها. لن يكون الأمر سهلًا علي، ولا عليها. لكنه لا بد.

أريد أن تكون نسختي من قصة شاه ميران مختلفة، بنهاية أفضل. وهذا ليس كل شيء أيضًا.

كذبت عليكم عندما قلت لكم إن نوزاد لن يتزوج لأنه مشغول جدًّا بالدكتوراه التي يحضرها في الذكاء الصناعي. اعذروني. قرأت عن أولادكم وشهاداتهم. قلت شيئًا مشابهًا لكنه كان كذبًا.

نوزاد لن يتزوج لأنه مصاب بتوحد شديد جدًّا، درجة ثالثة. يعتمد علي في طعامه وشرابه وتفريش أسنانه وفي كل شيء. لديه أيضًا نوبات صرع ومشكلات هضمية.

عندما كنت حاملًا به، كنت أقول إني لن أكون كأمي، لن أتركه أبدًا، ولا حتى لحظة واحدة.

حدث هذا حرفيًّا. نتناوب عليه أنا وأبوه ولا يمكن تركه لحظة واحدة.

هذا الكون يعمل بطريقة غريبة جدًّا".

https://t.me/MktbtArab

-30-

- كيف تشعر الآن، فراس بيه؟
- أشعر بالوضوح، وأن ثقلًا كبيرًا قد أزيح من صدري.
- أنت تعي طبعًا أن ذلك كله هو مجرد جزء من رحلة علاج، وأننا لا نزال بعيدين عن الوصول إلى الهدف؟
- مفهوم بالتأكيد.
- فهم المشكلة جزء من حلها، لكن مجرد الفهم لا يؤدي إلى الحل.
- لم تكن مشكلتي فهم المشكلة، بقدر ما كان كتمانها لأنفاسي.
- هل تشعر بالحاجة إلى مكاشفة أخرى، غير مكاشفاتك مع شقيقاتك؟
- لا أعتقد أني قادر حاليًا على ذلك.
- لماذا؟
- لقد خذلت من يجب أن أكاشفهم على نحو مستعص على العلاج.
- تعتقد أنك خسرتهم؟
- نعم. مع الأسف. لكن لا ألوم إلا نفسي.
- من تقصد؟
- زوجتي وأولادي.

هز آلب رأسه كما لو أنه يوافقه.

- هل لديك أي فكرة عمن يمكن أن يكون خلف المجموعة؟
- أي مجموعة؟

https://t.me/MktbtArab

- مجموعة الفيس بوك التي حفزت هذه المكاشفة التي فعلتها.
- لا ليس لدي أدنى فكرة.
- توقعات؟
- لم أفكر كثيرًا في الأمر. لكن أحد أعضاء المجموعة غالبًا هو من يقف خلفها. اسمه يعرب. صاحب عيد الميلاد الذي نزَّل الفيديو الخاص به في المجموعة. هو أو شخص من طرفه. هو يقول إن هذا الفيديو صودر من بيتهم بعد تصويره بيوم أو يومين. لكن رغم ذلك، يجب أن يكون من طرفه.
- لا يوجد احتمالات أخرى؟
- ليس بالنسبة لي.
- ربما آن أوان أن تتعرف فارس بيه.

***

خلال الدقائق التالية روى الدكتور آلب لوليد، المصعوق من المفاجأة، كل شيء.

خلال دقائق فقط وجد وليد نفسه أمام الصورة الكاملة لكل ما حدث في مجموعة الفيسبوك.

كان آلب يتحدث دون أن يتمكن من تحديد الأسماء، لكن وليد كان يضع في ذهنه كل اسم في موقعه الصحيح.

ذكَّره آلب، أنهِ كان قد ترك رقمَي زوجته مي وابنه خالد كأرقام للتواصل، وباعتبارهما من يحق لهما السؤال عنه وعن تطور علاجه.

بالتواصل معهما، ذكر لهما آلب أن وليد (أو فارس بيه) لا يتحدث عن الماضي أبدًا، وأنه يتهرب من الأسئلة عن طفولته، تحديدًا عن أبيه، وأنه سيحتاج إلى أن يستخدم وسائل غير تقليدية، لجعله (يفتح).

جاء خالد بفكرة مجموعة الفيسبوك التي تجمعه مع زملاء المدرسة الابتدائية، استخدم عماته لمعرفة بعض الأسماء أولًا، ثم توصل إلى معلومة أن وفاة والد وليد كانت في يوم ميلاد يعرب، وكان وليد في حفل العيد ميلاد عندما نقِل والده إلى المستشفى.

عادة في أعياد الميلاد تكون هناك صور، كانت فكرة خالد أنه لو تمكن من الوصول إلى هذه الصور فذلك ممكن أن يكون فاتحًا لذكريات أبيه وجعله يتحدث عن تلك الليلة.

https://t.me/MktbtArab

عمته رفاه كانت تعرف أخت يعرب رشا، الاثنتان طبيبتا أسنان تخرجتا في جامعة بغداد بفرق أربع سنوات. سألتها وكان الجواب في البداية مخيبًا للآمال. قالت رشا إن كل الصور الشخصية صودرت بعد اعتقال أبيها وإعدامه.

لكن هذا الجواب اتضح أنه سيكون الفاتحة لكنز من الصور والوثائق.

ما دامت الصور قد صودرت، فقد كانت في مكان ما في حيازة المخابرات العراقية، على الأقل لغاية 2003.

خالد -الذي تعرض للخطف طفلًا في بغداد- كان قد حاول معرفة هوية خاطفيه بعد سنوات من خطفه. الفكرة العامة في بغداد أن عصابات الخطف كانت تابعة لأحزاب سياسية لغرض الحصول على التمويل أو لغرض إشاعة الرعب عند فئات معينة ودفعها للهجرة. لم يصل خالد إلى معلومة حاسمة بشأن خاطفيه، الجميع يتهم الجميع، لكنه خلال رحلة البحث حصل على مجموعة جيدة من العلاقات، التي عرف من خلالها أن أغلب أرشيف المخابرات العراقية السابقة موجود لدى جهات معينة كانت حريصة على أن (تتصل إليه) قبل أن يصل غيرها.

ومن هذه العلاقات وصل إلى صندوق كارتوني ضخم كتب عليه: عبد الحميد جبارة/ وزير سابق/ معدوم/ قاعة الخلد.

دفع 400 دولار لقاء الحصول عليه.

وفي هذا الصندوق كان هناك كنز من الصور، من ضمنها صور لمدرسة المنصور التأسيسية وللسادس أحمر.

وفيه أيضًا مجموعة أقراص مدمجة، تضم كل ما صادرته من أفلام منزلية على أشرطة فيديو كاسيت. حيث حولت المخابرات العراقية في بداية الألفينيات كل أرشيفها من أفلام فيديو منزلية إلى أقراص مدمجة بدلًا من شرائط الفيديو كاسيت التي بدأت تهترئ.

وفي واحد من هذه الأقراص كان هناك فيديو عيد الميلاد.

وكان هناك أيضًا ملف تفصيلي بالأشخاص الذين زاروا عبد الحميد جبارة ليلة اعتقاله. لأن هؤلاء ربما كانوا شركاء له في شيء ما.

هؤلاء الزوار كانوا أولياء أمور أصدقاء يعرب الذين جاؤوا لأخذ أبنائهم من حفلة عيد الميلاد، ودخلوا المنزل على أمل مقابلة والد يعرب لكي يسهِّل لهم بعض الأمور في الدولة.

هذا الملف ضم كل المعلومات عن هؤلاء الأشخاص وإخوتهم وأخواتهم، وقد سهَّل ذلك الوصول إلى جميع أعضاء المجموعة. سوزان شيرازي ما

كان يمكن الوصول إلى أنها سوسن مالك لولا وجود أسماء أعمامها وأبنائهم وبناتهم.

كل ما نشِر في المجموعة من قِبل «السادس أحمر» كان يحدث غالبًا بالتنسيق مع الدكتور آلب. وكان آلب يعرف بما نشِر وبالتعليقات التي حدثت، عن طريق مي وخالد.

هذا كل شيء.

***

سأل وليد: «لماذا؟».

أجابه آلب: «لماذا ماذا؟».

- لماذا فعل خالد كل هذا؟

- هناك عدة احتمالات، ما رأيك بـ (لأنه يحبك)؟ أو (لأنك والده)؟ أو (لأنه يريد مساعدتك)؟ ماذا عن (جميع ما سبق)؟

- رغم خذلاني له؟

- تخيل! لا بد أنه يحبك جدًّا!

- ....

بقي ساكتًا يحاول استيعاب هذه المعلومات التي هبطت عليه فجأة. كيف لم يخطر في باله كل هذا؟ كيف لم يشك أن مي وخالد يقفان خلف كل هذا؟ كان قد شك بمي نعم. لكن خالد...

- تحتاج إلى أن تحلق، سيأتيك الحلاق بعد قليل.

- لماذا؟ أنا بخير.

- هل نظرت إلى المرآة مؤخرًا؟

- لماذا علي أن أحلق؟

- لديك زوار بعد قرابة الساعتين.

- زوار؟ من؟

- لا أعرف. كل ما أعرفه أن لديك زوارًا.

- كم واحد؟ هل هم زوار أم زائر وَاحد أم زائرة؟

ضحك آلب وقال بالتركية: «Sihhatler olsun».

https://t.me/MktbtArab

- ماذا تعني هذه؟

- تعني حرفيًا (كن بصحة جيدة)، لكننا نقولها بعد الحلاقة.

***

دخلت السكرتيرة على يعرب بعد أن دقت الباب.

- هناك طرد شخصي وصل إلى حضرتك أستاذ.

سألها: «هل فيه صوت تك تك تك؟».

قالت: «لحظة واحدة»، ثم خرجت من الغرفة.

عادت بعد قليل وقالت: «لا أستاذ لا يوجد صوت».

نظر إليها يعرب مصدومًا وفكر: الفاتحة على روح حس النكتة.

قال لها: «هاته لو سمحت».

عادت بصندوق ضخم تحمله بصعوبة.

- كل هذا؟ كان يجب أن أسألك إن كان هناك صوت تنفس.

- عفوًا أستاذ؟

- لا شيء.

قال يعرب ذلك وهو مستغرب من استمراره في المحاولة.

فتح الصندوق.

وجد كمية كبيرة من الصور التي استطاع يعرب أن يميزها فورًا. هذه صور قديمة لعائلته، صور شخصية لما قبل 1979، صور طفولته، صور زواج والديه، صور أعياد الميلاد، صورهم في رحلة الشمال، رحلة الحبانية، صور سفرة إسبانيا، صور سفرة لندن.

وأوراق ورسائل وملفات وأقراص سي دي. لمح خط والدته في الرسائل. هذه رسائل الخطوبة التي قالت إنهم صادروها.

وكان هناك أيضًا دفاتر يوميات.

تصفحها ووجد خط والده يملأ كل الصفحاتَ.

شعر برائحة عطر والده تصل إلى أنفه، رغم كل السنوات.

بحث عن اسم المرسِل على الصندوق.

خالد وليد خالد.

-31-

وضع حساب السادس أحمر مجموعة من الصور، وكتب تعليقًا واحدًا.

سفرة المدائن- سلمان باك. بتاريخ 22/ 3/ 1979

كانت الصور متنوعة بين صور في الباص وأخرى أمام (طاق كسرى)، أو في الحدائق المحيطة.

يعرب وسرمد يمسكان بكرة أمام الطاق بطريقة تظهِر ماركة الكرة. الكريكر.

يعرب والست فائزة في الباص والست سهام تمد برأسها.

سوسن تحتضن ريم أمام مجموعة من الزهور، الطاق يظهر في الخلفية.

ريم وسوسن وياسمين ودعد في الباص وهن يحطن بالست مارثا.

تارا وسوسن وريم مع الست فائزة يجلسن على الأرض في الحديقة، الست فائزة تحمل قدح شاي، وتارا تحمل قطعة كيك في يدها، ريم تمسح فمها بيدها كما لو أنها تزيل أثرًا للكيك. سوسن تفتح فمها كما لو أنها تقول (واو).

أحمد موفق يقف مستندًا إلى الشباك في الباص وأنظار الكل نحوه. الست سهام وياسمين وريم وسوسن في المقدمة، خلفهن تارا ودعد والست فائزة. يعرب ينظر إلى الكاميرا.

***

كتب سرمد: «الي ما يزور السلمان عمره خسارة».

https://t.me/MktbtArab

علق محمد عبد الجبار: «يبدو أني لم أكن موجودًا. عمري خسارة إذن».

كتب سرمد: «الست سهام علمتنا هذه الأغنية في الباص. كل ما علينا أن نرد عليها ونقول: عمره خسارة».

علقت ريم: «أنا أذكر الأغنية الأخرى»، ووضعت وجهًا ضاحكًا، ثم سألت: «تذكرون يا بنات؟».

وضعت تارا ثلاثة وجوه ضاحكة وكتبت: «نعم تذكرت الآن».

كتبت سوسن: «لا أذكر شيئًا».

ردت ريم: «على الخاص».

كتب سرمد: «ماذا هناك يا بنات؟ أسرار؟».

علق محمد: «يبدو ذلك. وكلهن يتذكرن الأمر. لا بد أنه كبير».

ردت سوسن: «قولي أنت يا ريم».

كتبت ريم: «الأغنية الأخرى هي الأغنية التي غناها أحمد موفق في الباص. صغيرون، لسيتا هاكوبيان، كانت الأغنية جديدة آنذاك».

رد سرمد: «وما المضحك في الموضوع؟ أحمد موفق كان صوته جميلًا ويغني دائمًا».

كتبت تارا: «المضحك أن كل بنت في الباص اعتبرت الأغنية موجهة إليها، وفي هذه السفرة بالذات، وبسبب هذه الأغنية اكتشفنا أن أحمد موفق قد أعطى رسائل لكل البنات أنه معجب بهن، وكل واحدة منهن لا تعرف بالأخرى، وجاءت هذه الأغنية في الطريق للمدائن، عندما نزلنا، قالت دعد للبنات إن الأغنية كانت لها، تتفاخر بذلك، ولكن ياسمين -الله يرحمها- ردت بثقة: بل لي، ودخلت على الخط الأخت ريم، ومن ثم أنا، وسوسن، وكل بنت كانت في المجموعة».

وضع سرمد خمسة وجوه ضاحكة وسأل ريم: «كيف تذكرتِ كل هذا؟».

ردت: «بعد ست سنوات أصبح أحمد موفق زميلًا لي في الكلية. كنت أذكر الأمر كلما رأيته».

كتب يعرب: «والله تذكرت شيئًا كهذا. كان روميو زمانه».

كتب محمد: «تفرق دمه بين القبائل».

أضافت سوسن وجوهًا ضاحكة جديدة.

https://t.me/MktbtArab

كتبت ريم: «إحقاقًا للحق. غالبًا كان يحب كل الفتيات في آنٍ واحد. لأنه في الكلية كان يمشي ويحب على نفسه، كان معي في الأسنان، أحب كل بنات المرحلة، وفي الصف الثاني بدأ بحب بنات الصف الأول، وهكذا مع كل وجبة طالبات جديدة، واستمر الأمر لغاية التخرج، ثم تزوج بنت خالته».

كتب سرمد: «غالبًا أحب كل صديقاتها في العرس».

سأل محمد عبد الجبار: «أين هو الآن؟».

كتبت ريم: «لا يزال صامدًا في بغداد. أصبح مديرًا لمركز تخصصي حسب معلوماتي».

كتب سرمد: «هل هو الوحيد من السادس أحمر الذي في بغداد الآن؟».

كتب يعرب: «نعم، على ما أعتقد».

علقت ريم: «كم هو محزن الأمر. واحد فقط من الصف بقي في بغداد».

قال سرمد: «الصراحة مستغرب من وجود أي أحد هناك».

علق وليد في دخول مفاجئ: «هنيئًا له. هنيئًا لكل من استطاع البقاء وبقي».

كتبت ريم: «ربما الأمر ليس في الاستطاعة على البقاء بقدر عدم الاستطاعة على السفر».

أجاب وليد: «أو ربما هذا ما نواسي به أنفسنا».

قال سرمد: «المهم أن لدينا من يمثّلنا في بغداد... هذا أيضًا إنجاز».

https://t.me/MktbtArab

النهاية

وضعت ريم منشورًا فيه فيديو لأغنية (صغيرون) مصاحبًا لكل الصور التي نشِرت في المجموعة، صور الصف السادس أحمر.

كتبت: «ساعدتني ديانا في صنع الفيديو، اتضح أن الأمر أسهل مما توقعت. هذا إهداء لكل أعضاء المجموعة، ولكل صف السادس أحمر دورة 1979 أينما كانوا، ولكل طلبة التأسيسية، ولمس صوفي مبارك، الله يرحمها، والست محاسن الله يرحمها أيضًا، والست فائزة، والست مارثا، والست سهام، وكل مدرساتنا، والرحمة تجوز على الحي والميت.

وإهداء خاص إلى أحمد موفق، الوحيد الصامد في بغداد من السادس أحمر».

صغيرة جنت وأنت صغيرون

حبنا بدا بنظرات العيون

قالوا ترى ذولة يحبون

من الصغر لما يكبرون

مثل نجمة والقمر

كبر حبنا وازدهر

بعيونك حبيبي

تبتدي دروب السفر

عالجرف كعدنا ليالي

https://t.me/MktbtArab

ذاك النهر والنخل عالي
تغيرنا وكبرنا يا غالي
ظل النهر والنخل عالي
مثل النهر ما تغيرنا
حبنا كبر واحنا كبرنا
محلا الحب اللي جمعنا
مثل الطيور احنا صرنا
مثل نجمة والقمر
كبر حبنا وازدهر
بعيونك حبيبي
تبتدي دروب السفر

تمت

2023 / 12 /14

https://t.me/MktbtArab